روائع القصص العالمي

وليم فولكنر

اللصوص



وليم فوكنر

اللصوص

رواية

نقلتها الى العربية
خالدة سعيد

توزيع المكتبة العصرية
دار مجلة شعر
بيروت



اللصوص



اللصوص

الفصل الأول

قال جدي :

هكذا كان بون هوجانبك. فلو نقش اسمه على حجر لصحّ أن يكون شاهدة قبره ، شأن مقاييس « بريتون » لمعرفة هوية الشخص ، أو اعلان للشرطة ، حتى أن أي شرطي في شمـــالي الميسيسبي كان يستطيع أن يتعرّف إليه من بين الجموع ويوقفه .

كان الوقت صباح السبت ، حوالي الساعة العاشرة . كنا - أنا وأبو جدك - في المكتب : أبي جالس إلى الطاولة يخرج النقود من كيس الكتان ويقابلها بقائمة الفواتير التي جمعتها من ساحة البلدة ، وأنا جالس على كرسي قرب الجدار انتظر ساعة الظهر، حتى أتقاضى تعويضي (الاسبوعي) البالغ عشر سنتات ، ثم نذهب الى البيت . وبعد تناول الغداء ، يتاح لي

الذهاب للاشتراك في لعبة البيسبول التي كانت تبدأ منذ الصباح دوني : كانت الفكرة من ذلك (فكرة جدك لا فكرتي) أن الرجل منذ أن يبلغ الحادية عشرة من عمره ، يترك وراءه سنة يحاسب فيها ، او يغدو مسؤولاً عن المكان الذي يشغله ، وعن الغرفة التي يحتلها في اقتصاد العالم (في جفرسون ، ميسيسيبي ، على الاقل) .

كنت اغادر البيت مع ابي صباح كل سبت بعد تناول طعام الفطور ، بينا يكون الصبيان الآخرون في الشارع مسلحين بالكرات والمضارب وقفازات البيسبول - فضلا عن اخوتي الثلاثة الذين كانوا أسعد مني حظاً لمجرد أنهم اصغر سناً . كان هذا منطق أبي : ما دام أي انسان بالغ ومنتج يستطيع ان يعيل اربعة أولاد ، فان بإمكان اكبر هؤلاء سناً ان يكسب ما يفي بحاجاته الضرورية . فكنت اتجول صباح كل سبت حاملاً فواتير شحن صناديق البضائع التي نقلها سواقونا الزنوج ، خلال الاسبوع ، من المستودع الى الأبواب الخلفية لحوانيت البقالة ، ودكاكين الخرضوات الحديدية ، ومخازن لوازم المزارعين ، ثم اعود بكيس الكتان الى أبي ، ليراجع الحساب ويضبطه. ثم ألزم المكتب حتى الظهر ، لارد على رنين جرس التلفون . وهكذا كنت اكسب عشر سنتات في الاسبوع ، وهو المبلغ الذي كان مفروضاً ان أعيش به .

وفي صباح ما ، دخل بون وهو يقفز . كانت الدرجة لا تعلو كثيراً عن ارض الممر ، حتى لصبي في الحادية عشرة(مع

ذلك فإن جون بويل مـــدير الاسطبل ، دفع صن توماس سائقنا الاصغر ، إلى ان يقترض ، أو يغتصب ، من مكان ما قطعة خشب يحملها درجة متوسطة العلو لي) . غير ان بون كان يصعدها ، كعادته ، بخطوته الواسعة . ولكنه ، هــذه المرة ، آثر ان يقفز فوقها قفزاً الى الغرفة . ولم يكن وجه بون يبدو لطيفاً او هادئاً في الاحوال العاديــة ، ولكنه في تلك اللحظة بدا كأنــه سينفجر ويندفع من بين كتفيه ، من الهيجان والسرعة،وهو يقفز باتجاه المكتب صائحاً بوالدي: « انتبه يا سيد موري ، ابتعد من الطريق . » ثم انقضّ على درْج الطاولة الاسفل ، حيث يوجد مسدس الاسطبل . فهل دفع بون ، في طريقـــه، الكرسي إلى الوراء (كان كرسياً دواراً ذا عجلات)ام أن أبي هو الذي قذف بـــه الى الخلف ليتمكن من ان يُبعد يـــد بون الممتدة ؟ لقد تبعثرت أكوام النقود المرتبة ، في كل اتجاه ، حول المكتب ، فيما بدأ أبي يصيح ، هو الآخر :

« يا للشيطان ، كفى ! »

« سأقتل لودوس ! » صاح بون . « لعله اجتاز الساحة الآن وذهب ! انتبه يا سيد موري ! »

« لا ! » قال أبي . « اخرج ! »

« ألا تدعني آخذه ؟ »

« لا ، يا للشيطان . »

« حسناً . » قال بون وهو يقفز راجعـــاً باتجاه الباب

ويخرج منه . واكتفى ابي بالجلوس هنـــاك . لا بد أنك لاحظت مدى جهل الناس الذين تجاوزوا الثلاثين أو الأربعين من العمر . لا أعني أنهم سريعو النسيان . هـذا تمويه ، إذ يسهل القول : « أوه ، أبي (أو جدي) أو أمي (أو جدتي)، طاعنون في السن ، وقد نسوا.» ففي الحيـاة أشياء وحقائق جارحة لا يمكنك نسيانها ، أياً كانت سنُّك . فلو عبرت ، في صغرك ، حفرة أو خندقاً ، فوق جسر من جذع شجرة ، ثم عدت اليه ، وانت في الخامسة والثلاثين او الأربعين من العمر، وقد ذهب الجذع ، لَمَّا تذكرته ربما ، ولكنك لا تضع قدمك في الفراغ حيث كان الجذع فيما مضى .هكذا كان أبي حينئذٍ. جاء بون إلى المكتب وهو يقفز دونما انذار ،حتى كاد يُسقِط كرسيّ أبي ، مندفعـاً نحو الدرج حيث وُضعَ المسدس لكن أبي كان مستعداً لابعاد يده عن الدرج او سحقها. إذّاك استدار بون وقفز عائداً كما جاء . وظنّ أبي ، كما يبدو ، أنّ ذلك ينهي المسألة . حتى انه كف عن قذف الشتائم ، وكأن شيئاً لم يحصل. ثم أعاد الكرسي الى مكانه قرب الطاولةوتطلع الى النقود المبعثرة التيسيضطر الى عدها من جديد ، فعاد يشتم بون ثانية ، لا لحادث المسدس ، وانما لمجرد كونه بون هوجانبك . وظل كذلك إلى أن قلت له :

« ذهب ليستعير مسدس جون بويل .»

وصرخ أبي قائلاً : « مـــاذا ؟ » ثم قفز هو أيضاً ، وأسرعنا نعبر المكتب الى الردهة ومنها الى كومة البضائع ،

خلف الاصطبـــل ، حيث كان جون بويل و لاستر يساعدان « جيبي » الحداد في تركيب نعال ثلاثة بغال وجواد مسرج . وكان أبي، كلما قطع ثلاث خطوات، يصرخ :«جون! بون ! جون ! بون ! » دون أن يضيع الوقت بالسباب .

ولكنه ، هذه المرة ، أيضاً وصل متأخراً . لأن بون خدعه او بالاحرى، خدعنا. إذ لم يكن مسدس جون بويل مجرد مسألة معنوية وحسب ، بل كان مسألة عاطفية أيضاً . كان مسدساً من عيار ٤١ ، قديماً جداً ، لكنه في حالة جيدة، لأن جون حرص على ابقائه كذلك ، منذ أن اشتراه من أبيه ، حين كان في الحادية والعشرين من عمره . إنما لم يكن يحمله ، بحكم الضرورة ، اعني لم يكن للمسدس وجود رسمي علني . كان هناك تقليد قديم كالاسطبل نفسه ، وهو ان المسدس الوحيد التابع للاسطبل ، كان يرقد في قرارة الدرج الايمن ، وكان معروفاً لدى الجميع أن ليس لموظف ان يحمل سلاحاً منذ حضوره الى الاصطبل حتى انصرافه إلى البيت ، فكيف باحضار السلاح واستعماله . وقد أوضح جون ذلك لنا جميعاً وحصل على تأييدنا وعطفنا وتفهمنا مما دعم مركزه امام العالم وامام والدي نفسه ، لو لم تحدث تلك المشكلة التي ما كانت لتحدث لولا بون هوجانبك - وهو الذي أخبرنا كيف وفّر جون ثمن المسدس بالعمل الإضافي أثناء فترات استراحته ، بمساعدة أبيه في المزرعة في اوقات كان يجب أن يمضيها في النوم أو الاكل ، إلى أن وضع

في عيد ميلاده الحادي والعشرين آخر قرش في يد أبيه ونال المسدس . ثم انه اخبرنا كيف كان المسدس الرمز الحي لرجولته والدليل الذي لا يدحض على أنه بلغ الحادية والعشرين وصار رجلاً ، ومع انه لم يعتزم استعماله ابداً ، إلا انه أحبّ أن يحمله باستمرار . ولو انه كان يترك المسدس في البيت عند مجيئه الى العمل ، لكان كمن يترك رجولته هناك. وقد أخبرنا (وصدقناه) بأنه لو دعي الى الاختيار بين ترك المسدس في البيت ، أو عدم المجيء إلى العمل ، لما تردد في الاختيار .

لذلك خاطت له زوجته في البدء جيباً مُرتّباً متيناً بقياس المسدس ، داخل صدرية بزة العمل . وقد عرف جون أن ذلك لا يكفي ، لا لأن المسدس قد يسقط في اية لحظة ، بل لأنه كان ظاهراً بوضوح من فوق الثياب . وهو لم يكن ظاهراً لنا وحسب ، اذ كنا جميعاً نعرف انه هناك – من مستر بالوت رئيس عمال الاسطبل الأبيض ، و بوت مساعده (الذي كان يعمل ليلا مما يجعله أن يكون الآن نائماً في سريره) ، مروراً بكل الزنوج من سواقين وسائسي خيل ، إلى احقر خدم الاسطبل ، اي إليّ أنا ، الذي كان عملي فيه يقتصر على جمع فواتير البضاعة المتراكمة ايام السبت ، والرد على الهاتف . حتى العجوز دان جرينتب القذر ، ذو اللحية الملطخة بالتبغ ، الذي لم يكن يوماً ثملا تماماً ، والذي لم يكن له وظيفة رسمية في الاسطبل ، لا لمعاقرته الخمرة ، بقدر ما لان اسمه كان في الواقع

« جرينيه » لا « جرينـّب » ، وهو من أقدم الاسماء في المنطقة الى أن أنجبت الأسرة « لوي جرينيه » البروتستانتي الذي اجتاز الجبال من فيرجينيا وكارولينـا بعد الثورة وجـاء إلى ميسيبيي في العقد التـاسع من القرن الثامن عشر وأسس جفرسون وأعطاها اسمها – وان العجوز هذا ، الذي لا يعيش في مكان معيّن – اذ ليست له اسرة باستثناء ابن أخ مخبول أو ابن عم ما يزال يعيش في خيمة بين أدغال النهر، خلف منعطف «فرانشمان باند» الذي كان يوماً جزءاً من مزرعة « جرينيه » – بل يظهر فجأة – وهو الذي لا يبلغ به السكر قط حداً يعيقه عن سياقة العربة – في الاسطبل ، في الوقت المناسب ، ليأخذ العربة الى المحطة لملاقاة قطاري التاسعة والنصف صباحاً، والرابعة والربع بعد الظهر، وإيصال الباعة المتجولين الى الفندق . وقد كان أحيانا يبقى للعمل طوال الليل ، حين كانت تقام في دار الاوبرا تمثيليـات فولكلورية زنجية ، أو حفلات راقصة او مسرحيات . وكان بعض الناس يعزو سبب استمراره في عمله الى ان زوجة السيد بالوت الاولى هي ابنته . اما نحن ، العاملين في الاسطبل ، فكنا نعتقد ان استمراره في عمله راجع الى ان ابي كان في صباه يذهب لصيد الثعالب مع والد دان العجوز عند منعطف فرانشمان باند .

كان المسدس ظاهراً ليس لنا فقط ، بل لابي ايضاً . إذ كان ، هو الآخر، على علم به . كان لا بد من ذلك ، فمؤسستنا

كانت صغيرة جداً ومتشابكة ومتداخلة. لذلك كانت مشكلة أبي المعنوية هي مشكلة جون بويل ذاتها ، وكان كلاهما يعرفها ويداريها كما يجب أن يفعل رجلان شريكان : فاذا اضطر أبي الى اعلان معرفته بوجود المسدس ، صار لزاماً عليه أن يخيّر جون بين ابقاء المسدس في البيت ، أو عدم العودة الى العمل . وكان جون يعرف هذا . لكنه ، لفرط رجولته أيضاً ، أبى ان يضع أبي في موقف يحمله على افشاء معرفته بوجود المسدس . وهكذا خاطت له زوجته الجيب في صدريته ، تحت ابطه الايسر، لا في جيب بزة العمل. بذلك لم يعد المسدس ظاهراً ، او على الاصح ناتئاً ، عندما كان يلبس صدريته أو يعلقها بمسماره الخاص في غرفة السروج، اذا اشتدت حرارة الطقس او كانت كما هي الآن .

تلك كانت حال المسدس عندما جاء بون الذي كان من شأنه أن يكون ، آنذاك ، في الفراش كما وعد ، لا أن يتسكع حول الساحة ، حيث واجه ما دفعه الى العودة نحو الاسطبل، مقتحما باب المكتب ، مُظهِراً كلاً من أبي وجون بويل بمظهر الكاذب .

غير أن أبي وصل متأخراً هذه المرة أيضا . إذ أن بون خدعه ، أو بالاحرى خدعنا . لأن بون كان يعرف هو أيضاً بأمر المسمار في غرفة السروج . وكان ذكياً ، أذكى من أن يعود ، عبر الممر ، من امام المكتب . وعندما وصلنا الى الساحة ، كان جون ولوستر وجيبي (والبغال

الثلاثة والحصان ايضاً) يراقبون مصراع الباب الذي كان ما يزال يتأرجح وقد اقتحمه بون ساعتئذٍ ، حاملا المسدس في يده . وتبادل جون وأبي النظر حوالي عشر ثوانٍ ، ثم انهار صرح ما بينهما من « تفاهم شرف » وصار الى غبار . مع ذلك بقي الشرف ، أو الولاء .

وقال جون : « انه لي . »

« نعم . » قـــال أبي . واضاف : « رأى لودوس في الساحة . »

فقال جون : « ساقبض عليه وآخذه منه . مرني بذلك . »

وقال جيبي : « ليمسك أحدكم بلودوس . »

ومع ان لودوس كان قصيراً ، إلا انه كان ضخما ، بخلاف بون ، له ساق مفتولة ، بشكل نحيف ، نتيجة حادث قديم نزل به أثناء العمل ؛ كان في وسعه ان يمسك حافر الحصان أو البغل الخلفي ويلويه على ركبته الملوية ، فلا يجد الحصان أو البغل مناصاً من الارتماء . وذلك لعجزه عن تحرير ساقه والحفاظ على توازنه ، فيرفسه بالساق الأخرى .

وقال جون : « لا أحد منكم يفهم لودوس . انه أكثرنا مسالمة . رأيت بون هوجانبك يطلق النار قبله . »

ولم يلقبه بالسيد ، مع انه لم يكن يغفل ذلك ، حين يخاطب رجلا ابيض يعتبره نداً له ، لأن جون هذا كان مهذباً .

وتابع جون كلامه مخاطباً ابي :

« مرني ، يا سيد موري . »

فاجاب أبي : « لا ، اركضْ الى المكتب وتلفن للسيد هامبتون (كان مدير الشرطة آنذاك) . اخبره بانني أريده ان يقبض على السيد بون بأسرع ما يمكن . »

وراح ابي في اتجاه البوابة .

« رح معه ! » قال جيبي للوستر ، واضاف : « قد يحتاج الى شخص ما يلحق ببون . اغلقْ البوابة . »

هكذا ذهبنا نحن الثلاثة ، عبر الممر صوب الساحة . كنت أهرول لأتمكن من اللحاق بهم ، وذلـك للحيلولة دون بون والمسدس و جون بويل . ألم يقل جون نفسه ان لا أحد يفهم لودوس جيداً ؟ كنا جميعاً نعرف ان بون لم يحسن إصابـــة الهدف ، وإنه اذا اطلق الرصاص على لودوس، فسوف يخطئه. كان لودوس ايضاً احد سواقينا حتى صباح الثلاثاء الماضي . هذا ما حصل، حسب رواية بون والسيد بالوت وجون بويل، بل لودوس نفسه ايضاً : منذ اسبوع او اسبوعين ، وجـــد لودوس معشوقة جديدة . كانت ابنة (أو زوجة لم نعرف بالضبط) صاحب مزرعة تبعد ستة أميال عن المدينة .

وعندما جاء بون ليتناوب العمل مـع السيد بالوت ، كانت الدواب كلها والعربات والسواقون جميعاً هناك ما عـدا لودوس . وذهب السيد بالوت الى البيت قائلاً لبون أن يعلمه بعودة لودوس .

هكذا شهد السيد بالوت . وهذه شهادة بون أيضاً . وقد أكد جون بويل قسماً منها (كان والدي قد ذهب الى البيت

قبل ذلك) . ولكن ما كاد السيد بالوت يجتاز الباب الأمامي حتى وصل لودوس من الطريق الخلفية ، وأخبر بون بأن اطار إحدى عجلات عربته ارتخى ، فتوقف عنـــد بيتنا ورأى والدي ، الذي أشار عليه بأن يقود العربة وسط الساقية ، في المرعى ، فينتفخ خشب العجلة ويضغط على الاطار . كمـا اشار عليه ان يقود البغال الى زريبتنا ويطعمهـــا ، ثم يعود ويخرجها في الصباح . وهذا ما كنا نتوقع ان يصدقه بون ، بينما ينكره جون بويل فوراً ، إذ ان من يعرف الرجلين يدرك ذلك ، كما يدرك ان والدي - مهما كان التـدبير الذي يتخذه بشأن العربة في الليل - سيرسل لودوس الى الدواب ليعود بهـا الى مرابطها في الاسطبل ، حيث تُنظف وتُعلف جيداً . ولكن هذا ما قال بون انه سمعه ، لذلك لم يجد داعياً لإقلاق عشاء السيـد بالوت ، كي ينقل الخبر اليه ، ما دام أبي يعرف مكان البغال والعربة ، وهو الذي يملكها لا السيد بالوت .

أما رواية جون بويل ، التي سردها على مضض ، لانه كان يؤثر ألّا يرويها لولا ان بون جعل سكوته (سكوت جون) عن الحقيقة مسألة اخلاقية أهم من ولائه لابنـاء جنسه ، فهي انه عندما رأى لودوس يدخل من باب الاسطبل الخلفي، وهو خالي اليدين ، بينما كان السيد بالوت يخرج من الباب الامامي، تاركاً المسؤولية لبون ، لم يهتم جون بالاستماع الى مـــا كان لودوس يقوله ، بل عبر الردهة واجتاز الباحة الى نهايتهـا .

وكان جون قد بلغ العربة حين عاد لودوس اليها . كان فيها كيس من الطحين، وجالون من زيت الكاز و (كما قال جون) كيس من روح النعنع . هذا ما حصل تقريباً . فمع ان كلمة جون بشأن الجياد والبغال ، داخل الاسطبل ، لم تكن تُرَد، حتى عند بون ذاته مروراً بالسيد بالوت او أبي، الا انه كان في هذه القضية لا يملك نفوذاً ، وانما كان مجرد عامل في اسطبل موري بريست . وكان هو ولودوس يعرفان ذلك ، بل لعل لودوس ذكره به . لكنني اشك في الامر ، اذ كان يكفي ان يقول له لودوس عبارة كهذه : « إذا اخبرت موري بريست كيف استعرتُ هذه العربة وهذه الدواب ، اخبره انا بالشيء المخيّط في ثيابك ! »

ولا أحسبه قال ذلك ايضاً لأنه ، هو وجون ، كانا يعلمان به كما كانا يعلمان بان لودوس ، لو انتظر ان يخبر جون ابي بما اسماه « استعارة » العربة والدواب ، لما عرف ابي بذلك قط . وكانا يعلمان ايضاً بان جون لو انتظر ان يخبر لودوس (او اي زنجي آخر في الاسطبل او حتى في جفرسون) ابي بامر المسدس ، لما عرف بذلك ايضاً . وهكذا يُرجّح ألا يكون لودوس قد قال شيئاً ، وان جون اكتفى بكلمة « حسناً » ، ولكن اذا لم تعد البغال إلى مرابطها ، دون قطرة عرق او اثر للسوط ، ودون ان يبدو عليها النعاس ، وذلك قبل مجيء السيد بالوت صباح الغد بساعة كاملة (لا بد انك لاحظت كيف اسقط كلاهما بون من روايته للحادثة : فلا

لودوس قال ان السيد بون يعرف ان هذه البغـــال لن تعود الليلة - أليس هو المسؤول هنا إلى ان يعود السيد بالوت صباحاً ؟ - ولا جون قال ان كل من يصدق الحكاية التي اتيتَ بها الليلة عن البغال ، ليس جديراً بأية مسؤولية ، ولا اكون مقتنعاً بعد بأن اسمه بون هوجانبك، فان السيد موري لن يعلم فقط بغياب البغال ، بل سيعلم أيضاً أين كانت .

لكن جون لم يقل ذلك . ومع ان بغـال لودوس عادت الى مرابطها قبل الشروق بساعة ، فقد ارسل السيد بالوت في طلب اودوس ، بعد وصوله الى الاسطبل بربع ساعة ، وأخبره بأنه مطرود من العمل . فقال لودوس ان السيد بون علم ببقـاء البغال خارج الاسطبل وانه ارسلني لأحضر له زجاجة وسكي ، وذلك حوالي الرابعة هذا الصباح . »

وقال له بون : « لم أرسلك إلى أي مكان . » وتابع بون قائلا : « عندما جاء الى هنا ، البارحة مساء ، بتلك القصة الملفقة ، زاعماً أن البغال في حوش السيد موري لم أصغ إليه . بل لم أهتم بأن أسأله عن مكان العربة والدواب . كل مـا قلته هو ان يمر قبل ان يعيد العربة صباحاً ، بمحل « ماك ونبوش» ويأتيني بجالون من وسكي « أنكل كال بوكرايت » . وقـد أعطيته المبلغ اللازم - دولارين . »

وقال لودوس : « وأتيتك بالوسكي . لا أعرف ما فعلت بهـــا . »

فأجاب بون : « أتيتني بنصف زجاجة من سائل معظمه

حساء وفلفل أحمر . لا أعرف ماذا سيفعل بك السيد موري لإبقائك البغال خارج الاسطبل ، لكن هذا لا يقارن بما سيفعله بك كالفن بوكرايت عندما أريه تلك الوسكي ويعلم انك زعمت انها من صنعه . »

وقال لودوس : « ان السيد ونبوش يقيم على بعد ثمانية أميال من المدينة . ولم يكن باستطاعتي الذهاب اليه والعودة قبل منتصف الليل . »

فقال بون : « لهذا إذن احتجت الى العربة . واخيراً انسحبت من جفرسون ، والآن تجوب المنطقة كلها لتجد نافذة خلفية تتسلل منها . حسناً ، ستجد الوقت الكافي الآن . المشكلة الوحيدة هي انك ستضطر للمشي . »

وصاح لودوس بفظاظة :

« قلت لي زجاجة وسكي ، فجلبت لك زجاجة ...

وقاطعه بون قائلا : « لم تكن تحوي نصفها . » ثم التفت الى السيد بالوت وقال : « يا للشيطان ، لست مضطراً ان تدفع له راتبه الاسبوعي الآن . » (كان أجر السواقين الاسبوعي دولارين ؛ كان هذا عام ١٩٠٥ ، كما تذكر .) « انه مدين لي بثمن الوسكي . ماذا تنتظر ؟ اتنتظر مجيء السيد موري ليطرده بنفسه ؟ »

ومع ذلك ، فلو اعتزم السيد بالوت (وابي) طرد لودوس فعلا لكانا أعطياه اجره الأسبوعي . وكونهما لم يفعلا ذلك

(ولودوس يعرف ذلك) بدليل ان لودوس كان سيمنح اجر اسبوع (مـــع عطلة) لابقائه الدواب خارج الاسطبل طوال الليل ، دون استئذان . كان سيحضر صبـاح الاثنين التالي ، في الوقت المحدد ، مع باقي السواقين ويكون جون بويل قد هيأ له الدواب كأن شيئاً لم يحدث . انما كان على القدر – الاشاعات – التقولات ، ان تتدخل في الامر .

هكذا اسرعنا –وانا اهرول– عابرين الممرّ باتجاه الساحة. ولم نكد نبلغ نهاية الممر حتى سمعنا طلقات الرصاص الخمس : وهاو ، وهاو ، وهاو ، وهاو ، وهاو ، هكذا . ثم وصلنا الساحة (لم تكن بعيدة : كانت عند المنعطف امام مخزن ابن العم « اسحاق ماك كاسلن » للخرضوات) وصار بامكاننا مشاهدة من فيها . كان هنالك جمع كبير . فقد اختار بون يوماً مناسباً يكثر فيه الشهود. كان السبت الأول من كل شهر، حتى في تلك الأيام ، يعتبر يوم البازار ، وخصوصاً في ايار ، حين تحسب الناس مشغولين في زراعة الارض . الامر لم يكن كذلك في مقاطعة « يوكناباتووفا » . كانوا هناك جميعـا ، السود منهم والبيض : كانت إحدى التجمعات تضم السيد هامبتون (جد الفتى الصغير آنذاك ، الذي صار الآن عمدة ، او الذي سيصير عمدة في العـــام التالي) واثنين من المتفرّجين يتماركان مع بون . وكان هناك تجمّع آخر حول وكيل عمدة آخر يمسك بلودوس ، على بعد عشرين قدما ، وهو لا يزال في الوضعية المتجمدة للركض ، او متجمداً في

وضعية الركض ، او في وضعية الركض المتجمّد . وكان هناك جمهور ثالث خلف نافذة مخزن ابن العم آيك التي اصطدمت بها إحدى رصاصات بون (ولم يُعرف أين ذهبت الرصاصات الاربع الاخرى) بعد ان اخترقت عجيزة فتاة زنجية ، كانت الآن تتمدد على البلاط ، وتصرخ ، إلى ان خرج ابن العم « آيك » من المخزن وغيّب صوتهـا بجعيره الهائج على بون ، ليس لانه هدّم نافذته (وكان ابن العم «آيك» شاباً آنئذ ... افضل رجال الغابات والصيادين الذين عرفتهم المقاطعة) بل لانه لم يستطع ان يصيب هدفاً على بعد عشرين قدماً فقط .

وتتالت بعد ذلك الاحداث بسرعة اكثر . كان مكتب الدكتور بيبودي في الطرف الآخر من الشارع ، فوق حانوت « كريستليان » للأدوية . وكان السيد هامبتون يحمل مسدس جون بويل ويتقدم الجمع ، يتبعه لوستر وزنجي آخر يحمـل الفتاة التي كانت ما تزال تصرخ وتنزف مثل خنزير مطعون ، على طول الدرج ، يتبعهم ابي ومعه بون ، ثم انا ووكيل العمـدة ولودوس واكبر جمهور يتسع له الدرج ، الى ان توقف السيد هـامبتون والتفت وصاح بهم . كان مكتب القاضي ستيفنس قريباً من عيادة الدكتور بيبودي الذي كان يقف على رأس السلم حين صعدنا . وهكذا دخلنا – اعني والدي وانا وبون ولودوس ووكيـل العمدة – لننتظر عودة السيد هـامبتون من مكتب الدكتور بيبودي . ولم يستغرق ذلك طويلا .

وقال السيد هامبتون :لا بأس . لم تكد تخدشها الرصاصة. اشترِ لها فستانا جديداً (لم تكن تلبس شيئا تحت فستانها) وكيساً من الملبس ، واعطِ اباها عشرة دولارات ، فيسوّي هذا حساب بون معها . اما حسابي انا معه فلم اقرره بعد . »

ثم نفخ هامبتون في وجه بون لحظة – كان رجلا ضخماً ، له عينان رماديتان صغيرتان ، وجسم ضخم كجسم بون، دون ان يكون له طوله – وقال له حسناً ! »

وقال بون : « شتمني . واخبر صن توماس انني صغير العجيزة وابن ساقطة . »

فنظر السيد هامبتون الى لودوس وقال له « ما جوابك؟» فقال لودوس : « لم اقل ابداً إنه صغير العجيزة . بل قلت انه صغير العقل . »

وصرخ بون قائلا : « ماذا ؟ »

وقال القاضي ستيفنس : « هذا أسوأ . »

وقال بون : « طبعاً اسوأ . الا ترى ؟ لم يكن لي خيار . فكيف لي، انا الرجل الأبيض ، ان اقف ساكناً وأدع بغّالاً زنجياً لعيناً ينتقدني ، أو يقول امام خمسة من الشهود انني بلا عقل. ألا ترى ؟ انك لا تستطيع استرجاع شيء ، أي شيء. لا يمكنك حتى إصلاحه ، لأنه ليس هناك ما يُصلح . »

واوشك بون ان يبكي . وتلوّت تقاطيع وجهه الضخم المحمرّ ، القاسي الذي يشبه الجوز ، واعتصرت كوجه طفل. ثم تابع قائلا : « لو انني حصلت الآن على مسدس آخر

وصوبته على صن توماس ، لاخطأته ايضاً . »

فنهض أبي فجأة وبسرعة ، وكان الجالس الوحيد . حتى القاضي ستفنس كان واقفاً ينتفض في الغرفة قبالة المدفأة ويداه تحت ذيل معطفه كما لو كان الوقت شتاء ، والنار تشتعل في المدفأة . وقال ابي : « يجب ان اعود الى العمل . ماذا يقول المثل القديم عن العمال البليدين ؟ ثم اضاف ، دون ان يوجه الكلام الى احد : اريد ان يوضع بون وهذا الغلام تحت كفالة مالية ، استتباباً للامن. لنقل مئة دولار عن كل منهما . انا اكفلهما بشرط ان احصل منهما على كفالتين متبادلتين نتفق عليها ويستحق دفعها حين يرتكب أي منهما اي ذنب لا .. أ .. » فأسعفه القاضي ستيفنس قائلا : « ... لا يرضيك ! »

وقال له أبي : « اشكرك. » ثم اضاف متسائلا : « لا ادري إن كان هذا قانونيا ام لا . »

فقال القاضي : « انا ايضا لاادري. يمكننا ان نجرب. واذا لم يكن شيئا كهذا قانونيا ، وجب أن يكون كذلك . »

وقال له أبي : « اشكرك . » واتجهنا أنا وبون وأبي نحو الباب .

وقال لودوس : يمكنني ان اعود الآن ». فلا انتظر حتى يوم الاثنين ، إن كنت تحتاج إلي . »

فأجابه ابي : « كلا . »

وهبطنا الدرج – أنا وأبي وبون ، نحو الشارع . جرى

هذا كله يوم السبت ، يوم البــازار . لكن كان كل شيء قد انتهى . اعني الى ان يجد شخص آخر يدعى بون هوجانبك مسدسا آخر . ومشينا في الشارع نحو الاسطبل – انا وابي وبون . كان صوت بون يمر الآن فوق رأسي صوب ظهر ابي قائلا :

« إذا كنت سأفي المئتي دولار بمعدل دولار في الاسبوع ، فذلك يستغرق سنة وثمانية وأربعين اسبوعا .وسيبلغ التعويض عن نافذة « آيك » عشرة دولارات ، او خمسة عشر دولاراً، كما اظن ، بالاضافة الى ما ساتحمله عن تلك الفتاة التي جاءت صدفة في الطريق، قل: سنتين وثلاثة اشهر . معي الآن حوالي اربعين دولاراً . اذا اعطيتك هذا المبلغ نقداً ، هل تتركني انا ولودوس وصن توماس في احد الاصطبلات وتقفل الباب علينا عشر دقائق ؟ »

وقال ابي : « كلا. »

الفصل الثاني

كان ذلك يوم السبت . وعـاد لودوس الى العمل صباح الاثنين . ويوم الجمعة التالي مات جدي ـ الجد الآخر ، والد أمي ، جد جدك ـ مات في خليج سان لويس .

بون لم يكن ملكاً لنـــا ـ أعني ليس لنا وحدنا ، نحن آ ل بريست ، أو بالأحرى آ ل ماك كاسلين وآ ل ادموندس الذين ينحدر منهمآ ل بريست. كان لبون مالكون ثلاثة. ليس فقط نحن الذين يمثلنا جدي ووالدي وابن العم آيك ماك كاسلين وابن عمنا الآخر زا كاري ادموندس ، الذي تنـازل ابن العم آيك في عيد ميلاده الحـادي والعشرين لوالد زاكاري ماك كاسلن ادموندس ، عن مزرعة ماك كاسلن ـ بل ايضا الميجر دي سبين والجنرال كومبسون ، الى يوم وفاته . كان بون مؤسس شركة مساهمة يملك فيهـا ثلاثتنا ـ ماك

كاسلين ودي سبين والجنرال كومبسون – حصصا متساوية .
لكن المسؤولية المترتبة على كل من هذه الحصص لم تكن محددة.
والنظام الوحيد الذي كان يعمل به في هذه الشراكة هو أن
يهب للدفاع عن بون من كان اكثر قربا من المشكلة التي احدثها،
أو المخالفة التي ارتكبها او تحمّل مسؤوليتها . كان بون
جمعية احسان ذات فوائد للحماية ، حيث الفوائد من نصيب
بون ، بينما المشاركة والإحسان من نصيبنا نحن .

كانت جدته ابنة احد زعماء قبيلة تشيكاسو الهندية .
وقد تزوجت تاجر وسكي من البيض ، فكان بون يعلن أحيانا
ان دم التشيكاسو الملكي يجري في عروقه بنسبة تسعة وتسعين
في المئة – أو حسب حجم الكأس . وليس هذا فقط ، بل
كان يعلن أنه سليل « إبسيتيبيّها » نفسه ، وانه سيقاتل كل
من يجرؤ على ان يلمح الى ان في عروقه قطرة واحدة من
الدم الهندي .

كان قويا ، امينا ، شجاعاً . ولكن لا يركن اليه ابداً .
كان طوله ست أقدام وأربع بوصات ويزن مئتين وأربعين
رطلا انكليزيا ، وله عقل طفل . منذ سنة ، كان أبي قد بدأ
يقول إنني سأتخطاه عقليا في أية لحظة .

ومع انه كان ظاهرة بيولوجية مكتملة من لحم ودم،
باستثناء لحظات السكر التي كان يتحرق فيها لقتال اي رجل
او أية جماعة دفاعا عن حقوق الاجداد ، او ضدهم، حسبما

يكون تأثير الخمر عليه) ، فلا بد انه امضى سنواته التسع او العشر الاولى ، في مكان ما . إذ كان يبدو كما لو انه خلق مكتملا ،او له من العمر تسع او عشر او احدى عشرة سنة، فيتجه بواسطتنا نحن الفرقاء الثلاثة - ماك كاسلين ودي سبين وكومبسون - كحلّ لورطة حصلت في مخيم صيد الميجر دي سبين .

انه المخيم نفسه الذي بقينا نسميه مخيم ماك كاسلين ، بضع سنوات اخرى بعد موت ابن العم « آيك » ، تماما كما بقينا - نحن آباءك - نسميه مخيم دي سبين بعد موت الميجر دي سبين بسنوات . ولكن عندما اشترى الميجر دي سبين ، في ايام ابي ، الارض او استعارها أو استأجرها (او كما كان الناس يفعلون ليكتسبوا صكوك التملك الشرعية في الميسيسيبي بين عامي ١٨٦٥و١٨٧٠) وبنى الكوخ والاسطبلات وأكواخ الكلاب ، كان المخيم مخيمه : هو الذي اختار الرجال الذين اعتبرهم جديرين بصيد الحيوانات التي كتب لها ان تصطاد . وهكذا لم يكن يملك الصيادين وحسب ، بل مكان الصيد والطريدة ايضا : الدببة والغزلان والذئاب والفهود التي كانت ترتادها على بعد اقل من عشرين ميلا عن جفرسون . وهي القطاعات الاربعة او الخمسة من ادغال حوض النهر التي كانت جزءاً من حلم توماس ستبن بالمملكة الشاسعة - الحلم الذي لم يتبدد وحسب بل دمر معه ستبن أيضا - الادغال التي كانت في تلك الايام بمثابة بوابة شرقية الى المستنقعات والغابات العذراء التي

كانت تمتد غربا من التلال حتى المـــدن والمزارع على طول الميسيسيبي .

كان يبعد عشرين ميلا اذن . وكان آباؤنا يغادرون جفرسون بالعربات في منتصف ليل الخامس عشر من تشرين الثاني (كانت تُقطع على الجياد بسرعة أكثر) ويبلغون موقع غزال أو دب مع الفجر. ولم تكن البراري، حتى عام ١٩٠٥، قد تراجعت اكثر من عشرين ميلا آخر ، فكان على العربات المحملة بالبنادق والطعام و الفُرش أن تتحرك مع غروب الشمس؛ وكانت شركة قطع أخشاب شمالية قد مدّت آنذاك خطا حديدياً ضيقاً لشحن الاخشاب ، يتصل بالخط الرئيسي ، ماراً على بعد ميل من مخيم الميجر دي سبين الجديد ، حيث أُعِدّ موقف غير رسمي لانزال الميجر وضيوفه ، وحيث تنتظرهم عربات كانت قد تحركت في اليوم السابق . وكان بوسعنا أن نرى نهاية هذه الحقبة بحلول عام ١٩٢٤ .

وكان الميجر دي سبين وبقية الفوج القديم قـــد ذهبوا ما عدا ابن العم آيك وبون (كانت الطريق قـــد رُصفت بالحصى من جفرسون إلى محطة دي سبين) فصـــار بامكان ورثتهم ان يوقفوا سياراتهم عندما يسمعون اصوات الفؤوس والمناشير حيث لم تكن تُسمع، قبل سنة ، غير اصوات كلاب الصيد . ولأن مانفريد دي سبين كان صرافا لا صيّاداً كابيه فقد باع الارض ، والاخشاب . وفي عام ١٩٤٠ (وكان قد اصبح يدعي مخيم ماك كاسلين) كان عليهم – علينا، أن نحمل

كل شيء في شاحنات بيك أب . ونمضي مسافة مئتي ميل على طرقات معبدة حتى نصل الى برية ننصب فيها الخيام . ومع ذلك ، كان على السيارة ان تصبح وسيلة عقيمة للوصول الى البراري . لكن ربما انهم سيجدون ـ أو ستجدون ـ البراري في الوجه الثاني للمريخ أو للقمر ، وفيها دببة وغزلان !

ولكن عندما وصل بون الى المخيم ذات يوم بكامل عدته وعمره عشر سنوات او احدى عشرة او اثنتا عشرة ، لم لم يكن امام الميجر دي‌سبين والجنرال كومبسون وماك كاسلين ادموندس ووالتر وايويل وبوب ليجيت والستة الآخرين سوى عشرين ميلا يجتازونها . وعلى الرغم من ان الجنرال كومبسون كان قد قاد الجنود في ستلوه،برتبة كولونيل،دونما فشل كبير،وقادهم ثانية،كجنرال دونما فشل كبير ايضاً،اثناء تقهقر جونسون في اتلنتا، الا انه كان قليل الخبرة بمعرفة الارض وما يتعلق بالطوبوغرافيا، الى درجة انه كان يضل طريقه بعد مغادرة المخيم بعشر دقائق (كان يجب ان تتوفر في البغال التي يختارها القدرة على إعادته الى المخيم في اية لحظة ، وذلك حين بلغ به الانهيار حداً جعله يقبل باستشارة بغلة) .هكذا كانت حالهم . وعندما كان يعود آخر صياد منهم ، يعمدون الى نفخ البوق بالمناوبة ، الى أن يصل الجنرال كومبسون . كان هذا التدبير كافياً الى ان بدأ سمعُ الجنرال يضعف بدوره وجاء يوم اضطر فيه والتر ايويل وسام الذي كان نصف زنجي ونصف هندي

من قبيلة تشيكاسو ، الى تعقّب أثره ، وخيا معه في الغاب طوال الليل . وهكذا ُخيّر الجنرال بين أن يمتنع عن مغادرة المخيّم أو أن ُيطرَد من النادي. حينذاك ظهر بون هوجانبك. كان عملاقا وهو في العاشرة او الحادية عشرة من عمره ، وأضخم من الجنرال كوميسون الذي استقبله كاللقيا . وبدا بون كأنه لا يعرف غير اسمه ، ولا يملك غيره . حتى ابن العم آيك لم يكن متأكداً ممن يكون قد عثر على بون أولاً ، ماك كاسلين ادموند أو الميجر دي سبين ، حين اطلق صاحبه سراحه . كل ما كان يعرفه آيك - أو يذكره - هو أنّ بون كان هناك ، في الثانية عشرة من العمر تقريباً ، خارج بيت ماك كاسلين ، حيث كان ماك كاسلين ادموند يربي آيك وكأنه أبوه ، فتعهد بون أيضاً وكأنه أبوه ، مع أن ماك كاسلين ادموند نفسه لم يكن قد تجاوز الثلاثين .

على أية حال ، عندما أدرك الميجر دي سبين انه سيضطر إما إلى طرد الجنرال كومبسون من النادي ، وهو أمر صعب، أو الى منعه من مغادرة المخيم ، وهذا مستحيل ، كما ادرك انه كان عليه أن ُيزوّده بفتى على شاكلة بون هوجانبك ، عند ذلك ظهر بون هوجانبك الذي قدّمه ماك كاسلين إدموند أو - ادموند ودي سبين معاً - . وفي وسع آيك ان يتذكر هذا المشهد ، أعني تحميل أسرّة المخيّمات والبنادق والزاد في العربة ، يوم الرابع عشر من تشرين الثاني ،مع تنيزجم (جد بوبوبوشامب الذي سيأتي ذكره قريباً) وسام وبون. كان آيك

آنذاك في الخامسة أو السادسة من عمره وماك كاسلين نفسه .
وكان ماك هذا يعتلي حصاناً ويقف في الطليعة ، وهم في طريقهم الى المخيم حيث كانت مهمة بون أن يتبع الجنرال كومبسون ، كل صباح ، على بغلة ثانية ليعيده الى الاتجاه الصحيح ، في الوقت المناسب ، فيصلا الى المخيم قبل حلول الظلام .

هكذا جعل الجنرال كومبسون من بون رجل أدغال غصباً عنه . ومع انه كان يجلس الى مائدة واحدة مع والترايويل ، ويستكشف معه الغابة نفسها ، وينامان معاً تحت المطر نفسه ، فان ذلك لم يجعل بون ماهراً في اطلاق الرصاص . ويروي والتر ايويل عن هذا الموضوع حكايات طريفة . منها انه ترك بون مرة عند كمين لصيد الغزلان (كان الجنرال كومبسون قد ذهب أخيراً الى أبيه ، أو الى نادي المحاربين القدامى ، ولعلهم قد أصروا على الذهاب اليه ، لأنهم لم يجدوا مكاناً آخر يناسبهم للاقامة الدائمة - وكان بون قد أصبح يصطاد كغيره بانتظام) وعندما سمع ايويل اصوات الكلاب ، عرف أن الغزال سيمر قرب كمين بون . ثم لم يلبث ان سمع اصوات خمس طلقات من بندقية بون العتيقة (كان الجنرال كومبسون قد اوصى له بها ، ولم تكن أحسن حالاً حين كانت في حوزة كومبسون ، مما حمل والتر على الاستغراب كيف انطلقت البندقية مرتين دون ان تتعطل، فكيف بالخمس طلقات). وتبع الطلقات صوت بون يخترق الأدغال قائلا : « يا الشيطان ! نزل ! إلحقوه ! إلحقوه ! » فأسرع والتر باتجاه كمين بون

ووجد الخرطوشات الخمس المفرغة على الارض ، وهي لا تبعد اكثر من عشر خطوات عن آثار الغزال الذي مر ، لكن دون أن تمسه .

حينئذ اشترى جدي تلك السيارة ووجد بون رفيقة روحه . في هذه الفترة كان قد اصبح رسمياً (بموافقة ماك كاسلين وادموند وبريست معاً) من خدم اسطبلنا العمومي . كانت معظم الاعمال ، في تلك الايام ، اعمالاً إضافية ، كإطعام الدواب وتنظيف السروج والعربات ... ولكن كان لبون طريقة خاصة مع الجياد والبغال ، وسرعان ما اصبح سائقاً منتظماً لعربات الأجرة – التي تلاقي قطارات النهار ، وعربات الجر ، وعربات الركوب ، والشاحنات الصغيرة . وكان الآن قد اصبح يعيش في المدينة ، إلا عندما يتغيب ماك كاسلين وزاكاري في الليل معاً ، فيضطر للنوم في البيت ليحرس النساء والاولاد . اعني كان يعيش في « جفرسون » . اعني ، كان له بيت – غرفة مفردة في فندق كان يدعى في أيام جدي فندق كوميرشال الذي أنشىء على أمل ان ينافس فندق هولستون هاوس ولم يبلغ يوماً مستواه . ولكن كان في ايامي فندق ناجح ينزل فيه المحلفون ويأكلون خلال فترات انعقاد المحاكم ، وحيث كان اصحاب الدعاوى وتجار الجياد والبغال يشعرون بحرية اكثر مما لو كانوا بين السجاد والمباصق النحاسية ، والمقاعد الجلدية ، ومفارش الكتان . كان ذلك فندق سنوبس . ففي تلك الايام بدأ فايم سنوبس ينقل عشيرته

من البرية الواقعة خلف منعطف الفرنسي الى البلدة . وقد قتل هـــذا الثري منذ عشر سنوات او اثنتي عشرة بيد قريب له مجنون ، كان يظن ان ابن عمه لم يرسله الى الاصلاحية للعلاج بل للتخلص منه . ثم استأجرتــــه سيدة نحاسية الشعر لمدة قصيرة وذلك حوالي عام ١٩٣٥. كانت قد أتت فجأة من مكان ما ثم رجعت بسرعة ولم تطل اقامتها . وقد عرفت لدى ابيك ولدى الشرطة باسم ليتل شيكاغو . اما فندق كوميرشال هذا فهو الذي تعرفه أنت باسم بنسيون السيدة راونسويل . لكنه كان مـــا يزال في ايام بون يدعى فندق كوميرشال . وبعد ان كان بون ينام على الارض في مطبخ بيت كومبسون او ادموند او بريست ، صار ينام في الفندق عندمــــا اشترى جدي السيارة .

لم يكن جدي يريد شراء سيارة . لكنه أجبر على ذلك . كان صرّافاً ، ورئيس أقدم بنك في جفرسون ، اي أول بنك في مقــاطعة يوكناباتاوفا . وقد ظل يعتقد حتى مات – بعكس سواه في المقاطعة – بأن السيارة ظاهرة ستزول مع شروق شمس اليوم التـــالي مثل الخطر الذي بلا جذور .

غير ان الكولونيل سارتوريس ، رئيس البنك الجديد ، أجبره على شراء واحدة . أو بالأحرى ، أجبره رجل قصير النظر ، ميكانيكي ساحر يدعى بوفالو . ولم تكن سيارة جدي أول سيـــارة في جفرسون . وأضرب صفحاً عن ذكر سيارة مانفريد دي سبين الحمراء . مع أن دي سبين كان يقودها

يومياً في شوارع جفرسون منذ سنوات ، إذ لم يكن لها مكان في ذلك الوسط أكثر مما كان لمانفريد نفسه. كان كلاهما عازباً، وعلى هامش حياة المدنية، لا يصلحان لشيء ، حتى عندما كان مانفريد محافظ جفرسون . بل ان لون تلك السيارة القرمزي لم يكن موضع احتقار المدينة بقدر ما كان موضع إنكار مبهم.

لم تكن سيارة جدّي أول سيارة رأتها جفرسون، والعكس صحيح. بل لم تكن أول سيارة سكنت جفرسون. فقبل سنتين كانت إحدى السيارات قد قطعت الطريق كلها من ممفيس ، مجتازة مسافة ثمانين ميلاً في أقل من ثلاثة ايام . ثم هطل المطر وبقيت السيارة في جفرسون مدة أسبوعين ، في وقت قطعت فيه الكهرباء عن المدينة . فكما كان الاسطبل العمومي يعتمد كلياً على بون ، وبدونه تتوقف النقليات العامة ، كذلك كان السيد بوفالو الرجل الوحيد – من هنا إلى « ممفيس » – الذي يقدر أن يُبقي المحرك البخاري لمعمل الكهرباء دائراً ، ومنذ أن تبيّن أن السيارة لن تتجاوز المكان الذي بلغته ، على الأقل ذلك اليوم، أصبح السيد بوفالو وبون لا يفارقانها، مثل ظلين، ظل كبير وظل صغير – العملاق الذي تفوح منه رائحة النشادر وزيت السروج ، والرجل الضئيل الذي تلونه بقع الشحم والهباب ، بعينيه اللتين تشبهان ريشتي طائر أزرق سقطتا فوق كتلة صغيرة من الفحم ، لا يكاد وزنها يبلغ مئة رطل انكليزي ، مع ما في جيوبه من أدوات – ظلٌ ساكن يحدّق فيها مثل ثور جامد، والآخر يحلم بها ، بلطف، وحنوٍّ،

تمتد يده القائمة وتلمسها بعذوبة يد امرأة ، تداعبهـا ، تربت عليهـا ، ثم في اللحظة التالية يقوص حتى ردفيه خلف غطائها الأمامي .

أمطرت السماء طوال ذلك الليل . وفي الصباح التالي كانت ما تزال تمطر . وأخبر صاحب السيارة - ربمـا أخبره السيد بوفالو وأكد له كما يبدو - بأن الطرقات لن تكون سالكة قبل اسبوع أو عشرة أيام على الأقل ؛ وهو شيء غريب، لأن أحداً لم يره يبتعد عن معمل الكهرباء أو المخزن الصغير في ساحة بيته الخلفية ، ولم يعرف عنه انه مشى على الطرق مـا يكفي كي يتنبأ بحالتها. هكذا عاد صاحب السيارة الى ممفيس بالقطار ، تاركاً السيارة تحت الحفظ ، في ساحة بيت بوفالو دون غيره . ولم نستطع أن نتصور هذا: كيف استطاع السيد بوفالو الرقيق الوديع ، الغـامض الكلام ، المنقطع عن العالم باستمرار ، الذي يغطيه شحم المعمل ، الرجل الذاهل الذي يبدو كمن يمشي في نومه - كيف استطاع ، وبأية وسائل ، بأي تأثير مغنطيسي ، بأية موهبة لديه كانت مجهولة، استطاع أن يقنع الرجل الغريب بأن يترك لعبته الثمينة في حوزته .

لكنه اقتنع ، وعاد الى ممفيس . والآن عندما يطرأ عطل على الكهرباء في جفرسون ، يضطر شخص ما للذهاب سيراً على الاقدام ، أو على الحصان أو الدراجة ، الى بيت السيد بوفالو في طرف البلدة ، إذ ذاك يظهر عنـــد زاوية بيته من الساحة الخلفية زائغاً ، حالماً ، دونما استعجال ، وهو ما يزال

يمسح يديه . وفي اليوم الثالث اكتشف والدي أخيراً أين يكون بون (أو أين كان) خلال الوقت الذي يجب ان يكون في الاسطبل . ولكن بون نفسه كشف السر آنذاك ، حين أذاع الخبر بسرعة محمومة ثائرة . كان قد اشتبك مع السيد بوفالو بمعركة جسدية ، حين شهر السيد بوفالو – ذلك المعين الذي لا ينضب ، كما بدا ، من المفاجآت والمؤهلات – على بون مسدساً حقيقياً ، لا يداً ملطخة بالشحم والهباب .

هكذا روى بون الخبر . كانا – هو والسيد بوفالو – على وفاق تام ، وتفاهم فوري فيما يتعلق بترك السيارة بين يدي السيد بوفالو أثناء غياب صاحبها ، إذ تصور بون ان السيد بوفالو سيحل لغز تسييرها حالا فيمكنهما ان يتسللا بها في الظلام . لكن ما صدم بون وأثاره ، هو ان كل ما أراد السيد بوفالو ان يعرفه هو لماذا تسير . وقال بون في ذلك : « لقد خرّبها ... فككها قطعاً ، قطعاً ، ليرى ما بداخلها . لن يعيدها كما كانت عليه أبداً ! »

لكن بوفالو أعادها . ووقف هادئاً ملطخاً بالشحوم حالما بلطف ، عندما عاد صاحب السيارة قبل اسبوعين وأدارها ومضى بها . وبعد ذلك بسنة كان بوفالو قد صنع سيارته الخاصة ، بتركيب محرك ، وأجهزة سرعة وكل شيء ، في عربة ذات إطارات من المطاط . ومضت بعد ظهر ذلك اليوم وهي تقعقع برصانة ، واجتازت مساحة المدينة دون ان تسرع ، فأجفلت جياد عربة الكولونيل سارتوريس المشابهة لها وجمحت

ساحبة العربة التي كانت فارغة لحسن الحظ فحطمتها تقريباً .
وفي الليلة التالية دُوّن في سجلات جفرسون قانون ضدّ اي حادث تسببه عربة ميكانيكية ضمن حدود البلدة .

هكذا أرغم جدي على شراء سيارة وهو رئيس اقدم وأكبربنك في مقاطعة يوكنا باتاوفا ، والا خضع لسلطة رئيس بنك اصغر. اتفهم ما أعني؟ ليس اكبر او اصغر، من حيث المكانة الاجتماعية ولا تنافس ايضا، بل اصحاب بنوك اشبه ما يكونون رهبان كرسوا انفسهم لخدمة اسرار المال الخفية، التي يستحيل النفاذ اليها . وبالرغم من تشدد جدي ومقاومته التي لا تلين ، ورفضه الاعتراف بعصر الآلة ، فقد تسامح نوعاً ما بسبب ما يشبه كابوساً رؤياوياً عن مستقبل بلادنا العظيم الذي لا يحد والذي ستكون وحدة اقتصاده الاساسية كتلة صغيرة مكعبة لها اربع عجلات ومحرك .

وهكذا اشترى السيارة . ووجد بون فيها عروس أحلامه ، او الحب الأول لقلبه الساذج البريء . كانت من ماركة ونتون فلاير . (هذه كانت السيارة الأولى التي اقتنيناها ، قبل الوايت ستيمر التي اشتراها جدي بعد سنتين عندما اعلنت جدتي انها لم تعد تطيق رائحة البنزين .) وكان بإمكانك ان تدير محركها باليد من الأمام ، فلا تجازف بأكثر من كسر عظمة او عظمتين في ساعدك . كانت لها مصابيح على الغاز للسياقة في الليل ، وعندما كان المطر على وشك السقوط استطاع خمسة او ستة اشخاص ان يضعوا الغطاء فوقها وينزلوا

الستائر في عشر دقائق او خمس عشرة . كان جدي هو الذي جهزها بفانوس على الكاز ، وفأس جديدة وكتلة صغيرة من الاسلاك الشائكة المربوطة إلى بكرة، للسفر الى خارج حدود المدينة . بهذه المعدات كانت تستطيع الذهاب الى ابعد من ممفيس . وقد فعلت مرة كما سيجيئك الكلام . وكان لنا جميعاً – الجدين والأبوين ، والعمات وابناء العم والاولاد – لباس خاص لركوبها يتألف من وشاح وقبعةونظارتين وقفازين وثوب بلا شكل ولا لون مقفل عند العنق يدعى مشلح الغبار الذي سأتكلم عنه فيما بعد .

في تلك الأثناء كان السيد بوفالو قد علّم بون قيادة سيارته التي صنعها بيده، منذ مدةطويلة . لم يكن باستطاعتها السير في شوارع جفرسون ، بل انهما ، في الحقيقة ، لم يعودا يتخطيان بها حدود بوابة السيد بوفالو الامامية . فقد كانت هناك مساحة من الأرض المكشوفة خلف البيت عبّدها بون والسيد بوفالو فصارت سهلا يصلححلبة للقيادة.وهكذا، فحين ذهب بون والسيد واردوين ، امين صندوق بنك جدي (كان عازبا ، وواحداً من اشهر رجال بلدتنا . ففي مدى عشر سنوات ، وقف اشبيناً في ثلاثة عشر عرساً) إلى ممفيس بالقطار وجلبا السيارة (في أقل من يومين هذه المرة ، كاسرين الرقم القيامي) كان بون قد اصبح نقيب سواقي السيارات في جفرسون !

ثم ألقى جدي تلك السيارة ، مخيّباً حلم بون . فقد

اشتراها ، دافعاً ما سمّـاه « بون » كمية ضخمة من النقد ثمناً لها ، وتفرّس فيها مرة ، ثم منعهـا من التجول . كان – أي جدي – عاجزاً عن تنفيذ قراره هذا تنفيذاً كاملا ، بسبب الأمر المتعجرف الذي كان قد اصدره الكولونيل سارتوريس ، والذي لم يسمح جدي –وهو الأكبر منه سناً– ان يبقيه مرعي الاجراء ، مهما يكن رأيه الخاص بالعربات الآلية . والحقيقة ان هذا الرأي كان هو نفسه رأي الكولونيل سارتوريس . وحتى يوم وفاتها (حين اصبح هواء مقاطعة يوكناباتاوفا كلها مشبعاً بروائح البنزين ، وكانت لياليهـا لا سيما ايام السبت ، تضج باصوات الاصطدامات وزعيق الفرامل) لم يقرض أحد منهما فلساً لأي شخص اشتبه بأنه سيشتري به سيارة . كانت جريمة الكولونيل سارتوريس أنه أخذ المبـادرة ممن يتقدمه سناً ، في موضوع يوافق عليه كلاهما – وهو اقصاء السيارات عن جفرسون ، حتى قبل أن تصل اليهـا . أرأيت ؟ لقد اشترى جدي السيارة لا تحدياً لقرار الكولونيل سارتوريس ، بل لنقضه عامداً متعمداً .

وحتى قبل قانون سارتوريس هذا ، كان جدي قـد نقل العربة والجياد من ساحة البيت الخلفية الى الاسطبل العمومي، حيث تتمكن جدتي من طلبها تلفونياً بسهولة اكثر مما لو نادت بأعلى صوتها من النافذة الخلفية للطابق الثاني ، لأنهم كانوا ، في الاسطبل ، يجيبون على التلفون دائماً ، بعكس « ند » الذي لم يكن يجيب دائماً ، أكان في المطبخ أو الاسطبل ، أو حينما

يفترض ان يكون عندما تناديه جدتي . وفي الحقيقة كان غالباً ما يوجد في مكان ما على مرمى الصوت ، لأن احدى نساء البيت كانت زوجته . وعلى ذكر ند اقول انه كان حوذي جدي ، وكانت زوجته آنذاك (تزوج أربع مرات) « دلفين» طاهية جدتي . وكانت امي تناديه بالعم ند ، وتلح علينا ، نحن الأولاد (على ثلاثة منا، لأن آلكسندر لم يكن بعد قادراً على نداء أحد بأي اسم) ان نناديه كذلك . ولم يحرص سواها على هذا الامر ، حتى جدي ، الذي كان هو أيضاً من عائلة ماك كاسلين ، ولا ند نفسه ، حقاً ، وهو الذي لم يستحق هذا الاسم،بالرغم منانه عاش طويلاً حتىبدأ يشيب شعره على حدود رأسه الاصلع، ولا اقول يبيض" ، اذ انه لم يبيض" قط، ولا شاب بالفعل ، حين مات في الرابعة والسبعين من العمر ، دون ان يتغير فيه اي شيء ، ما عدا انه احتمل اربع زيجات متتالية . ولعله لم يشأ ان يدعى بـ « العم » ند ، مع انه من عائلة ماك كسلين ، وقـــد ولد في الساحة الخلفية لبيت ماك كاسلين عام ١٨٦٠ . كان ركيزة عائلتنا .

ورثناه بدورنا ، مع حكايته (التي لم يكن لها ما يدعمها أكثر من ند نفسه) بأن أمه كانت ابنة غير شرعية للوشيوس كوينتوس كاروذرس نفسه من جارية زنجية . ولم يَدَعْ ند أحداً منا ينسى انه، كابن العم ايزاك، حفيد لانكاستر الحقيقي، بينما لم نكن نحن، آل ادموندس وبريست – بل حتى أنا وأنت

وجدي الذين نحمل اسمه - لم نكن سوى أقرباء بعيدي الصلة به .

وهكذا فعندما وصل بون والسيد واردوين بالسيارة ، كان الكراج مهيأ لها ، وقد جددت ارضه وبابه ، ووُضع له قفل جديد حمله جدي بيده وهو يدور حول السيارة ببطء محدقاً فيها وكأنه يفحص محراثاً او حصادة او عربة (او زبوناً ايضاً) يعرض صاحبها رهناً بقاء قرض من المال . ثم أشار الى بون ان يقودها الى داخل الكراج (أوه ، نعم ، كنا آنذاك نعرف ان بيت السيارة يدعى هكذا ، حتى في عام ١٩٠٤ ، وحتى في مسيسيبي) .

وقال بون :

« الا تنوي ان تجربها قليلا ، على الاقل ؟ »

« كلا ، » أجاب جدي . فقادها بون الى الكراج وخرج منه وحده . كانت الدهشة تغمر وجهه اولاً ، ولكن بدت عليه فيما بعد آثار الرعدة والرعب . وقال جدي لبون :

« هل لها مفتاح ؟ »

« ماذا ؟ »

« مقبض ، زر ، شنكل . شيء تدار به ؟ »

ومدّ « بون » يده الى جيبه ببطء واخرج شيئاً وضعه في يد جدي . « اغلق الابواب » ، قال جدي ، ومشى وادخل القفل الجديد بنفسه واداره ووضع المفتاح في جيبه . وفي تلك اللحظة كان بون يخوض معركة مع نفسه . كان يجتاز أزمة .

كانت القضية يائسة . وراقبناه – أنا ، والسيد واردوين ، وجدتي ، وند ، ودلفين ، وكل شخص أبيض أو أسود كان يعبر الطريق ، عندما وصلت السيارة – وهو يربحها او ، على الاقل ، يربح بدايتها . وقال :

« سأعود بعد الغداء ، فتستطيع السيدة سارة (وهي جدتي) أن تجربها – حوالي الواحدة . أستطيع أن أبكر إذا كان ذلك الوقت متأخراً . »

فاجاب جدي : « سأرسل خبراً الى الاسطبل ».

ذلك ان العملية كانت مهمة ، لا مجـــرد تسلية . كانت معركة حياة او موت ، فاستعد لها كما تستعد الجيوش عند دخول المعـــارك فتهتم بامور التموين ونوع أرض المعركة ، وتأخـــذ بعين الاعتبار الاساليب الماكرة في الهجوم وتفاديه ، وفي طليعة ذلك كله ، الصبر وبعد النظر . استمر ذلك طوال الأيام الثلاثة الباقية حتى يوم السبت . وعاد بون الى الاسطبل العمومي . وبعد ظهر ذلك اليوم لم يبتعد بون كثيراً عن الهاتف ، رغم أنه تظاهر بعدم الاكتراث ، حتى انه قام بعمله ، أوهكذا ظنوا ، الى ان اكتشف والدي ان بون قد كلف لوستر من تلقاء نفسه أن يأخذ العربة وينتظر قطار بعد الظهر الذي يصل لحظة انصراف جدي من عمله . وعلى الرغم من ان المعركة كانت مـــا تزال دائرة تتطلب – بل تفرض – الانتباه الدائم والتحفز ، بدلاً من أن تمضي بقوة الاستمرار ، فقد كان بون لا يزال واثقاً من نفسه وكان

يقول : « بالطبع أرسلت لوستر . هذه المدينة تنمو على نحو سنحتاج معه ، عما قريب ، الى عربتين لملاقاة القطارات . وقد فكرت ، منذ زمن ، بلوستر ليكون السائق الثاني . لا تهتم . سأراقبه . »

لكن الهاتف لم يرن . وحوالي السادسة اعترف بون نفسه بانه لن يرن . لكن هذه كانت هدنة . لم يفقد بعد شيئاً .وفي الظلام كان يستطيع تحريك قواته في المعركة ! وفي الصباح التالي ، حوالي العاشرة ، دخل – دخلنا – البنك وكأننا تذكرنا فجأة . وقال لجدي : « اعطني المفاتيح . ان غبار «الميسيسيبي » ووحله ، فضلا عن وحل تنيسي وغبارها عالق بها . سآخذ انبوب الماء معي من الاسطبل اذا كان ند قد وضع الانبوب الثاني في غير محله . »

كان جدي ينظر الى بون بتأمل وهدوء ، كأنما كان بون صاحب عربة أو تبّاناً جاء يستدين منه خمسة عشر دولاراً . وقال : « لا أريد ان يبتل داخل بيت العربة . » لكن بون باراه في عدم الاكتراث ، بل بزّه فيه ، اذ كان اكثر منه استعداداً لإضاعة الوقت . وقال لجدي :

« تذكر قول الرجل ، إن المحرك يجب أن يدار كل يوم ، لا للذهاب الى مكان ما ، بل لمجرد حفظ الصمامات من الصدأ ، لأن جلب قطع غيارٍ جديدة من ممفيس أو من المعمل ذاته يكلف عشرين او خمسة وعشرين دولاراً . لا ألومك . كل ما أعرفه هو ما قاله لك ، وعليّ انا ان أصدقه . لكنك تستطيع

تحمّل الخسارة . أنت صاحب السيارة . اذا كنت تريد ان تصدأ فليس ذلك من شأن احد . ولو كانت حصاناً ، لكان امراً آخر . فانت ، حتى لو لم تدفع ثمنه مئة دولار ، كنت تأمرني ان انطنطه ليتريّض قليلا . »

ذلك ان جدي كان رجل اعمال بارعاً ، وكان بون يدرك ذلك : يدرك ان جدي لا يعرف متى يحجز وحسب ، بل متى يصالح ويلغي الحجز ايضاً .

ومدّ جدي يده الى جيبه وناول بون المفتاحين – مفتاح قفل الكراج ، والشيء الذي تدار به السيارة .

وقال لي بون : «تعال» . وفيما نحن نجتاز الشارع ، سمعنا جدتي وهي تنادي ند من نافـــذة الطابق الثاني . ثم سكتت عندما بلغنا البوابة. واذ عبرنا الساحة الخلفية لنجلب الانبوب، خرجت دلفين من باب المطبخ وقالت : « أين ند ؟ اننا نناديه من الصباح . هل هو في الاسطبل ؟ »

وقال لها بون :« طبعاً . وسوف اخبره لكن لا تتوقعي مجيئه ».

وكان ند هناك . كان هو واثنان من اخوتي ينظرون من خلال شقوق باب الكراج. اظن انالكسندر كان سيذهب هو ايضاً لو استطـــاع المشي . لا اعرف لماذا لم تفكر العمة كالي بهذا بعد . ثم وصل ألكسندر ، وجاءت امي عبر الشارع من البيت وهي تحمله .فلعل العمة كالي ما زالت تغسل حوائجه . وقال بون : « صباح الخير ، ايتها السيدة سارة »

وكانت جدتي قد جاءت آنذاك تتبعهــا دلفين . ثم جاءت سيدتان أخريان ، من الجيران ، وهمــا في قبعات النوم . لم يكن بون صاحب بنك ، او حتى تاجراً بارعاً ، ولكنه كان يقيم الدليل على انه محارب عصابات ممتاز . وتقدم بون وأدار القفل ، ثم فتح باب الكراج . وكان ند اول الداخلين .

« حسناً. » قال له بون، واضاف : « انت هنا منذالفجر توصوص عليها من خلال ذلك الشق . ما رأيك فيها ؟ »

فاجاب ند : « لا رأي لي فيها . كان باستطاعة بريست ان يشتري افضل جواد في يوكنا باتاوفا ، ثمنه مئتا دولار ، بثمن هذه السيارة » .

فقال بون : « ليس هنالك جواد بمئتي دولار في يوكنــا باتاوفا . فلو كان هنالك، فهذه السيارة تشتري عشرة جياد. اذهب وضع الانبوب في الحنفية . »

وقال لي ند ، دون ان ينظر حوله: «اذهب وضع الانبوب في الحنفية يا لوشيوس . » ثم ذهب الى باب السيارة وفتحه ، فاذا به المقعد الخلفي . لم تكن للمقاعد الأمامية أبواب في تلك الأيام . وقال ند : « تفضلي ايتها السيدة سارة ، وأنت، ايتهــا السيدة أليسون . اما دلفين ، فيمكن أن تنتظر مع الأولاد دورها في النزهة التالية».

وقال بون : « انت اذهب وضع الانبوب في الحنفية كما قلت لك . يجب أن أخرج من هنا قبل أن أفعل شيئاً بها . »

وقال ند : « لا احسب انك ستدفعهــا بيدك لتخرج .

أظننا نقدر أن نركب الى هناك . وسوف اقودها . لذلك ، فكلما اسرعت ببدء المسير ، اسرعت هي في سيرها . » وقهقه ضاحكاً وهو يقول : « تفضلي يا آنسة ساره . »

وقالت جدتي : « هل هي على ما يرام ، يا بون ؟ »

وقال بون : « نعم ، يا سيدتي . » فدخلت جدتي وأمي. وقبل أن يتمكن بون من اغلاق البـــاب كان ند يتصدر المقعد الأمامي .

وصاح بون : « اخرج من هنا . اذهب وقم بعملك إن كنت تعرف . »

وقال ند : « لن ألمس شيئاً قبل أن أعرف كيف. ومجرد الجلوس هنا لن يعلمني . هيا ادرها . »

وتوجه بون إلى مقعد قيادة السيارة وأدلر المفتاح . ثم عاد الى الأمام وأدار العفريت . وفي الدورة الثالثة علا هدير المحرك .

وصرخت جدتي به . وعلا صياح بون فوق صوت المحرك يقول : « كل شيء على ما يرام يا سيدة ساره ! » وركض عائداً الى المقود .

« لا يهمني . » قالت جدتي . واضافت: « ادخل بسرعة ! لقد أثار هذا أعصابي ! » فدخل بون واوقف هدير المحرك ، ثم سحب الفرامل . وفي الحال تحركت السيارة بهدوء وببطء إلى الوراء خارج الكراج ، الى الساحة في ضوء الشمس ، ثم توقفت .

وقهقه ند ضاحكاً .

وقالت جدتي : « كن حذراً يا بون . » وكنت ارى يدها تتشبث بركيزة السقف .

وقال بون : « نعم يا سيدتي . » وتحركت السيارة ثانية الى الخلف وبدأت تدور ثم تقدمت الى الإمام وهي مـا تزال تدور . وكانت يد جدتي مـا تزال تتشبث بالركيزة . وكان وجه أمي يبدو مثل وجه فتاة صغيرة. ومشت السيارة بهدوء وببطءعبر الساحة حتى غدت قبالة البوابة المؤدية الى الطريق نحو العالم ، وتوقفت ولم يقل بون شيئاً : كان فقط يجلس خلف المقود ، والمحرك يدور بهـدوء ودون قرقعة . وكان رأسه يستدير بما يكفي ان ترى جدتي وجهه . ربمـا لم يكن بون بارعاً في الأمور المالية مثل جدي . وكان في جفرسون من يعتقدون انه لم يحسن شيئاً . لكنه في هذا الامر، كان مهاوشاً ماهراً جداً .

وجلست جـــدتي نحو نصف دقيقة ، ثم اخرجت تنهدة طويلة وصرخت قائلة :

« لا . يجب ان ننتظر السيد بريست » . ربما لم ننتصر . لكن بون – وهو من جانبنا – لم يكتشف نقطة الضعف في جبهة العدو (جدي) وحسب، بل ان العدو نفسه قد يكتشف الضعف ، هذه الليلة ، وقت العشاء .

وقد اكتشف العدو ، في الواقع ، ان الموقف قد تبدل . فبعد ظهر يوم السبت التالي ، بعد اغلاق البنك ، وبعد ظهر

كل سبت تلا ، ثم بعد ظهر كل يوم من أيام الصيف مـــا عدا الايام المطيرة ، كان جدي يجلس على المقعد الأمامي قرب بون ونتناوب ، نحن البـاقين ، احتلال المقعد الخلفي – جدتي ، وأمي ، وأنا واخوتي الثلاثة مع العمة كالي التي ربتنا جميعاً ، كلا بدوره ، بمـــا في ذلك أبي ، ودلفين واقاربنا وجيراننا وصديقات امي وكنا في مشالح الغبار والنظارات ، نعبر شوارع جفرسون وضواحيها القريبة ، بما في ذلك العمة كالي ودلفين ، كل منهما بدورها ، ما عدا ند ، الذي ركبها مرة واحدة مدة دقيقة ، حين خرجت من الكراج ببطء ، ودقيقتين حين دارت وقطعت الساحة ، الى ان فقدت جدتي أعصابها وصرخت محتجة في وجه البوابة والعالم الخارجي . ولم يكرر ذلك وفي السبت التالي كان قد عرف ، وتقبّل – بل اقتنع بشكل ما – انه حتى لو عزم جدي على جعله السائق الرسمي للسيارة لما كان ليستطيع لمسها إلا على جثة بون . ومع انه كان يميل الى الاقرار بوجود السيارة ، فقد قام بينه وبين جدي نوع من التفاهم الضمني وهو : ان لا يتكلم ند عنهـــا باحتقار او استخفاف ، على ان يمتنع جدي ، مقابل ذلك ، عن ان يأمر ند بغسل السيارة او تلميعها كما كان يفعل للعربة – اذ كان كل من جدي وند يعرف ان ند سيرفض حتى وإن قبل بون . وهكذا رفض جدي ان يتيح لند الفرصة لكي يرفض علنـاً غسل السيارة قبل ان تتاح لبون الفرصة ايضاً لكي يرفض علناً السماح له بذلك .

كان حين انتقل بون - نُقل برضى الطرفين - من العمل النهاري في الاسطبل الى العمل الليلي . ولولا ذلك ، لما كانت مهنة الغسل من نصيبه بعد الآن . فتلك الطبقة الثرية في جفرسون ، أصدقاء أبي ومعارفه أو ربما أصدقاء الجياد فقط ، الذين كانوا يتخذون الاسطبل عنواناً ثابتاً لأعمالهم - اذا كانت لديهم أعمال وبريد - كانوا أقل غربة هناك من بون . كما لو انك اذا أردت ان ترى بون (أعني أبي) وارسلتني في طلبه، لوجدته يغسل السيارة أو يلمعها - كان يفعل ذلك حتى في الأسابيع الأولى مع أنها لا تكون قد غادرت الساحة منذ يوم السبت السابق ولن تغادره قبل السبت المقبل . فكان يخرجها من الكراج كل صباح فيغسلها بحنو ، من قمتها حتى عجلاتها ، ثم يجلس لحراستها حتى تجف .

وكان السيد بالوت يقول : « سيزيل عنها كل الدهان . هل يعرف السيد أنه يمرّر انبوب الماء فوقها خمس ساعات كل يوم ؟ »

وكان أبي يقول : « وماذا لو أزاله ؟ سيظل بون يجلس في الساحة طوال النهار يتأملها . »

فيقول السيد بالوت : « انقله الى العمل الليلي . حينئذٍ يمكنه أن يفعل ما يشاء بنهاره ويتمكن جون بويل من الذهاب الى البيت والنوم في الفراش كل ليلة ، على سبيل التغيير . »

ويجيب أبي : « نقلته . سأبلغه حالما أجد من يذهب الى

الكراج ليخبره . »

كان هنالك فراش من القش في غرفة السروج ، وكان جون بويل ، حتى الآن ، يمضي الليل عليه ، هو أو أحد السواقين أو السواس ، بناء على طلبه . وهيأ والدي سريراً نقالا وفراشاً ووضعهما في غرفة المكتب نفسها، حيث يستطيع بون أن ينام ، وهذا ما كان يحتاج اليه، ما دام قد أصبح حراً في تمضيته النهار كله في ساحة جـــدي ، يغسل السيارة أو يتأملها فقط .

هكذا صرنا نصعد الى السيارة بالتناوب فتحمل منا قدر ما يتسع له المقعد الخلفي،ونجتاز ساحة البلدة بعد ظهر كل يوم إلى الضواحي . كان جدي قــد جهّز السيارة بفرمل اضافي للطوارىء ، فصار جزءاً لا يتجزأ من أجهزة السيارة ، تماماً كالمحرك الذي يديرها .

وكنا دائمـاً نعبر ساحة البلدة اولا . لعلك فكرت أن جدي ، حالما اشترى السيارة ، كان يفعل ما كنت تفعل ، وانه اشترى السيارة لتلك الغـاية فقط : يكمن بانتظار مرور الكولونيل سارتوريس في عربته ثم يطلع له فجأة ليعلمه كيف يصدر أوامر تحدد حقوق الآخرين وامتيازاتهم دون ان يستشير من كانوا يتقدمون عليه جاهـاً ومكانة . لكن جدي لم يفعل هذا. وتحققنا أخيراً انه لم يكن مهتماً بالكولونيل سارتوريس: كان مهتماً بالجياد ، والعربات . لأنه كما قلت لك كان رجلا بعيد النظر ، رجلا قادراً على الرؤيا . وكانت جدتي تجلس

متوترة جامدة تتشبث بركيزة السقف ولا تدعو جدي بالسيد بريست على عادتها منذ ان عرفناها ، بـل تدعوه باسمه الذي يناديه به الناس كأنها ليست قريبة له . وحـــين كنا نلتقي بجواد أو عربة خيـــل ، كان سائقهـا يشد لجام الجواد ويسحبه ليفسح لنـا الطريق . وأحياناً كانت الجياد تجفل وتقف على قوائمهـــا الخلفية ، فتصرخ جدتي : لوشيوس ، لوشيوس ! فيقول جدي (إذا كان سائق العربة رجلا وكانت خالية من النساء والأولاد ولا مقطورة شحن فيهـــا) يقول لبون بهدوء :

« لا تتوقف . تابع سيرك . لكن خفف السرعة الآن . »

أما حين يكون زمام الخيل في يد امرأة ، فكان يأمر بون بالتوقف ، فينزل هو نفسه ليكلم الجواد المذعور بهدوء حتى يقبض على زمامه ويقود العربة بعيداً ثم يرفع قبعته للسيدة ويعود الى المقعد الأمامي في السيارة ، حينئذٍ فقط يجاوب جدتي : « يجب ان نعوّدهم على ذلك . من يدري ؟ قد تأتي إلى جفرسون سيارة أخرى في السنوات العشر أو الخمس عشرة التالية ! »

الحقيقة أن ذلك الحلم الذي صنعه بوفالو بيده في ساحة بيته الخلفية منذ سنتين، كاد أن يشفي جدي من عادة لازمته منذ كان في التاسعة عشرة من عمره وهي مضغ التبغ. فعندما أدار رأسه للمرة الأولى ليبصق خارج السيارة المنطلقة ، لم نكن نحن الذين نجلس في المقعد الخلفي نعرف ما سيحدث

إلا بعد فوات الاوان . اذ كيف كنا سنعرف ؟ لم يكن أحد منا قد ركب في سيارة من قبل مسافة أطول مما بين الكراج وبوابة الساحة (تلك كانت الرحلة الأولى) ، عدا أننا كنا نسير بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة (وهذا أمر آخر . فعندما كنا نقطع عشرة أميال في الساعة كان بون يقول اننا نقطع عشرين ؛ وعن العشرين يقول اربعين . ثم اكتشفنا طريقاً قصيرة منبسطة طولها نصف ميل ، على بعد اميال قليلة من المدينة، حيث يمكن للسيارة ان تنطلق بسرعة خمسة وعشرين . وقد سمعته يقول لجمع من الناس في ساحة البلدة إن السيارة تقطع ستين ميلا في الساعة . كان ذلك قبل أن يعرف الشيء الذي على اللوحة والذي يبدو مثل عداد تجاريّ هو في الحقيقة مؤشر السرعة) ، فكيف كان يمكن ان نعرف ؟ ثم ان ذلك لم يكن أن يحدث أيّ فارق بالنسبة لأي منا . فقد كنا جميعاً نضع نظاراتنا ومشالح الغبار . وحتى حين تكون المشالح جديدة ، لم يكن هناك من سبب يدعو لعدم تعريضها لتتقي البقع او اي شيء غير الغبار . ربما لأن جدتي كانت تجلس إلى جهة اليسار ، خلف جدي مباشرة . وفي تلك الايام كانت السيارات تدار من جهة اليمين كالعربات ، حتى هنري فورد ، الرجل الذي كان بعيد النظر مثل جدي ، لم يخطر بباله ان المقود يجب ان يكون الى ناحية اليمين .

وحين قالت جدتي لبون : « ارقف السيارة » ، لم تكن

ثائرة بقدر ما كان غضبها بارداً خفياً ، وبقدر ما كانت مغتاظة ومصدومة . كانت قد تجاوزت الخمسين (عندما تزوجها جدي كانت في الخامسة عشرة) وخلال اعوامها الخمسين لم تكن تحلم ان شخصاً سيبصق في وجهها ، فكيف بزوجها نفسه . كما لم تكن تعتقد ان بون يمكن ان يبلغ منعطفاً دون ان يضغط على الزمور . فلم ترفع يدها لتمسح البصقة ، بل قالت دون ان توجه الكلام الى أحد : « خذني الى البيت » .

وصاح جدي : « مهلك ، يا ساره ، مهلك ! » وقذف التبغ خارجاً وأخرج المنديل من جيبه الآخر . لكن جدتي لم تتناوله . كان بون قد نزل من السيارة وسار نحو بيت قريب وأتى بوعاء ماء مع صابون ومنشفة . لكن جدتي لم تقبل ذلك ايضاً . وصاحت به : « لا تلمسني ! »

وهكذا مضينا ، وقد جفت البقعة البنية التي سرحت من نظارة جدتي الى خدها . وراحت امي تعرض بإلحاح ان تبصق في منديلها لتبللها وتمسحها . وقالت جدتي : « اتركيني يا أليسون ! »

مع امي كانت المسألة مختلفة . لم تكن تمانع إن مضغ جدي التبغ في السيارة . ربما كانت السيارة السبب . وشيئاً بعد شيء اصبحت النزهات تقتصر علينا ، وعلى امي ، والعمة كالي ، وولد أو اثنين من اولاد الجيران . كانت امي تجلس في المقعد الخلفي وقد تضرج وجهها وتألق بالحماس كوجه فتاة

صغيرة . لانها كانت قد اخترعت درعاً يدوياً ذا قبضة مثل مروحة كبيرة ، خفيفا الى درجة تتيح لها ان ترفعه قبالتنا بأسرع مما يدير جدي رأسه . هكذا صار بامكانه ان يمضغ . فقد كانت امي دائماً متأهبة لرفع الحاجز . والحقيقة اننا جميعا صرنا سريعين لدرجة انه قبل ان يعرف جدي انه سيدير رأسه الى اليسار ليبصق ، يكون الحاجز قد ارتفع ونكون نحن ركاب المقعد الخلفي قد ملنا الى اليمين وكأننا مشدودون بخيط واحد. كانت سرعتنا آنذاك عشرين او خمسا وعشرين ميلاً في الساعة ، لانه صار لجفرسون، ذلك الصيف، سيارتان إضافيتان. كأنما كانت السيارات هي التي تعبّد الطرق بنفسها قبل ان تعبّدها قوة المال الذي تمثله .

وقال جدي : « بعد خمس وعشرين سنة لن تكون في المقاطعة طريق غير صالحة لمرور السيارات في اي طقس . »

وسألت أمي : « ألن يكلف ذلك مال كثيراً ، يا بابا ؟ »

فأجاب جدي : « سيصدر معبدو الطرق سندات . وسيشتريها البنك . »

وسألت امي : « بنكنا ؟ » « بنكنا يشتري سندات السيارات ؟ »

وقال جدي : « نعم ، سنشتريها . »

« لكن ماذا عنا ؟ أقصد موري . »

« سيحتفظ بعمله في الاسطبل . انما سيكون له اسم آخر

ربما كاراج بريست ، او شركة بريست للمحركات . سيدفع الناس اي ثمن للركوب والحركة. بل سيعملون لذلك . انظري الى الدرجات . انظري الى بون . لا نعرف لهذا سبباً ! »

ثم جاء أيار التالي ، ومـــات جدي الآخر في خليج سان لويس .

الفصل الثالث

كان أيضاً يوم سبت. وكان ، في الواقع ، السبت التالي . كان لودوس سيعود الى تقاضي أجرته مساء كل سبت . لعله قد كف عن استمارة البغال . كانت الساعة تقارب الثامنة . ولم أكن قد بلغت منتصف الطريق إلى الساحة ومعي فواتير الشحن وكيس الخيش الذي أضع فيه النقود .كنت قد انتهيت من قسم «تموين المزارعين» عندما دخل بون مسرعاً ، أكثر من عادته . كان يجب أن أشك في الحال . لا ، كان يجب ان أعرف فوراً . إذ اني عرفت بون طوال حياتي ، عدا مراقبتي له مدة سنة مع تلك السيارة . وتقدم بون الى كيس النقود وسحبه من يدي قبل ان أتمكن من شد قبضتي عليه، وقال لي: « اتركه . اتركه وتعال . »

« على مهلك ! »

« قلت اتركه . خلـّصنا . أسرع . عليهم أن يبلغوا الثلاثة والعشرين . »

قال ذلك وهو يستدير . فقد تجاهل كل شيء عن الفواتير غير المدفوعة . كانت ، في نظره ، مجرد أوراق تملك شركة سكة الحديد الكثير منهـــا . لكن الكيس كان يحتوي على نقود .

وقلت : « من الذي سيبلغ الثالثة والعشرين ؟ كان الرقم الثالث والعشرون رقم قطار الصباح الذي يتجه جنوباً. أوه، نعم ، كان لجفرسون قطارات ركاب آنذاك ، وكان عددها كبيراً بحيث اقتضى ترقيمها للتمييز بينها .

« يا للشيطان ! » قال بون . « كيف أقدر أن أنقل لك الخبر بلطف وانت ترفض أن تصغي؟ مات جدك الليلة الماضية. يجب ان نعجّل . . »

فصرخت : « لم يمت . كان عند الردهــة الامامية هذا الصباح عندما مررنا . . »

كان هناك فعلا . رأيناه أنا وأبي . كان يقرأ الصحيفة او يقف هناك او يجلس كعادته كل صباح، ينتظر حلول الوقت كي يذهب الى البنك .

وقال بون : « أوه ، ألا تعرف الفرق بين خليج سان لويس وموبيل ؟ كان هذا بخلافه . كان خليج سان لويس يبعد ثلاثمئة ميل. ولم أكن قد رأيت جدي ليسيب إلا مرتين في عيد الميـــلاد في جفرسون ، حين ذهبنا ثلاث مرات في

الصيف . كان مريضا منذ مدة طويلة. فذهبنا -نحن وامي- إلى هناك في الصيف لنراه ينام في فراشه الأخير حتى ولو لم نعرف آنذاك . أقول «لو» وأقصد امي . ذلك ان العجوز حين يمرض يكون قد كف عن الحياة . فالموت الفعلي يريح الجو ، ويسمح بإزاحة شيء كان منتهيا .

وقال بون : « طيب ، طيب . ما عليك إلا ان تأتي . جاكسون موبيل ، نيو اورليانز – كل ما اعرف عنها انها هناك فيمكان ما . وحيثما كانت، عليهم ان يلحقوا بالقطار.» كان على اسم أورليانز الذي لم يهمل ذكره عمداً ، بقدر ما دخل سهواً في محتوى عبارته ، ان ينبىء بكل شيء ، ويكشف لي ما عزم عليه. كان على محاولته الاخيرة لإغرائي ان تساعدني على ذلك . لكنني ربما كنت ما أزال تحت هول الصدمة ، كما انني لم اكن اعرف في تلك اللحظة ما يعرفه بون . لذلك ذهبنا بسرعة ـ وكنت اهرول حتى أتمكن من لحاقه ـ سالكين أقصر طريق عبر الساحة ، حتى وصلنا إلى البيت .

كان هناك هرج ومرج ، ولم يكن قد بقي على موعد القطار الا ساعتان. وهكذا كانت امي منهمكة لدرجةلا تجد فيها متسعاً للندب او الحزن : كان وجهها شاحبا ، عليهعلائم التصميم ، مؤثراً . كنت الآن أعرف ما قاله لي بون مرتين : إن جدي وجدتي ذاهبان هما ايضا لدفن جدي ليسيب . فقد كان هو وجدي زميلين في غرفة واحدة ، وفي صف واحد

في الجامعة . وكان كل منهما اشبين الآخر ، وهو ما يحتمل ان تكون له علاقة باختيار امي وابي ، واحدهما الآخر ، من الناس قاطبة. وقد عاشت جدتي، وجدتي ليسيب ، متباعدتين بما يكفي حتى تستمر الاولى في معاملة وحيدة الثانية بلباقة وعطف . ثم أن ألناس في تلك الأيام كانوا ينظرون إلى طقوس الجنازة بجد . ولا اقول الموت : الموت كان الاليف الدائم . ما من عائلة إلا كتب تاريخها على شاهدة القبر بعبارات تذكارية موجزة الى درجة لا تتسع معها للاسم - هذا ما لم تكن الأم ترقد هي ايضا في ذلك القبر نفسه ، وهو ما يحصل اكثر الاحيان . هذا عدا الازواج والاعمام والعمات في اعوامهم العشرين او الثلاثين او الاربعين ، والجدود والاعمام العاقرين والعمات العوانس اللواتي متن فوق السرير الذي ولدن فيه .

هكذا كان جدي وجدتي ذاهبين هما ايضاً الى الجنازة . وهو ما يعني اننا - لعدم وجود اقارب لنا في البلدة - سنرسل الى مزرعة ابن العم زاكارى ادموند ، التي تبعد سبعة عشر ميلا ، ونبقى هناك حتى يعود أبوانا . ويعني ذلك ان امي وابي سيتغيبان اربعة ايام ، كما يعني ان جدي وجدتي لن يعودا حتى بعد اربعة ايام . لان جدي لم يغادر جفرسون مرة ، حتى ولو كان ذاهبا الى ممفيس ، دون ان يمضي يومين او ثلاثة في نيو اورليانز ذاهبا كان ام راجعا . وهذه المرة ربما اصطحب امي وابي ايضا . كان ما اخبرني عنه بون

مرتين باطناب ، وهو يكاد لا يصدق كلامه ، يعني ان صاحب السيارة وكل من له سلطة عليه ، سيكونون على بعد ثلاثمئة ميل عنها مدة أربعة أيام أو اسبوع . كانت جميع محاولاته الخرقاء لاغرائي وإفسادي تؤيد ذلك . حتى انه لم يكن يتوسل إلي . إذ كان بمكن ان يأخذ السيارة وحده ، وكان سيأخذها فعلاً لو وجدني غير قابل للافساد ، بالرغم من علمه بأنه ذات يوم سيعيدها او يعود بمفرده كي يواجه متاعب اقل مما سيواجه لو قبضت عليه شرطة جدي. لان العودة محتمة . اذ اين يمكنه ان يذهب ، وهو لا يعرف مكانا آخر ، وهو الذي لا تعني له اسماء جفرسون ، وماك كاسلن ، ودي سبين وكومبسون ، بيته وحسب ، بل الأب والأم ايضا . لكن طيف فكرة هزيلة،او بارقة فطنة عذراء ومنطقية، أقنعته بأن يجربني أولاً ليأخذني كرهينة . ولم يكن بحاجة الى امتحاني اولاً . اذ عندما يتحدث الكبار عن براءة الاولاد،لا يعرفون ماذا يعنون بالفعل . ولو احرجتهم لتقدموا خطوة وقالوا : اذن هو الجهل . الولد ليس بريئا ولا جاهلا . ما من جريمة لم يتصورها صبي في الحادية عشرة منذ مدة بعيدة . كل براءته في انه لم يكبر بعد بحيث يشتهي ثمارها . وهذا ليس براءة بل قضية شهية.وكل جهله هو في انه لا يعرف كيف يرتكبها.

لكن بون لم يكن يعرف هذا . كان عليه أن يغريني . وكان امامه وقت قصير : منذ رحيل القطار حتى الغروب. كان بمكن ان يبدأ في اي وقت ، في الغد ، او بعد الغد، او

اي يوم بما في ذلك يوم الاربعاء . لكن اليوم ، الآن ، كان موعده المفضل، إذ كانت كل جفرسون قد رأت السيارة تسير ويسودها جو الرحيل . كأنما كانت الآلهة نفسها هي التي منحته هذه الساعات الحرة بين الحادية عشرة والغروب . وجاءت السيارة وفيها جدي وجدتي ، وصندوق الدجاج المقلي والبيض المسلوق والكعك للغداء ، لانه لن تكون هناك عربة للغداء حتى يغيروا القطار ويقصدوا المكان المعين في الساعة الواحدة.وكانت جدتي وامي تعرفان جدي وابي جيداً .وهما لذلك يعرفان انهما لن ينتظرا حتى الواحدة ليتناولا الغداء ، ايا كان الميت . لا : جدتي ايضا ، لو كان المصاب شخصا آخر غير امي . لا ، هذا ايضا خطأ . كان افق جدتي اوسع من افق كنتها . فلعل كل ما كانت امي تحتاج اليه هو ان تكون انثى. فليس الرجال هم الذين يقفزون في وجه الموت ـ إنهم يقاومون ، يحاولون ان يردوا الضربات فتعتصر ادمغتهم بنتيجة ذلك ـ بينما النساء يطوقنه ، يغلفنه بمعاهدة عدم مقاومة مثل حشية القطن او نسيج العنكبوت ، بعد ان ينتزعن منه الابرة السامة ويصبح بلا اذى ، لا يُحوّل الى الحجم المناسب ويصبح قابلا للاستعمال فقط، بل يصبح مفيداً ايضا كمازب مفلس او عازبة مستعدة دائما ان تملأ المكان الفارغ او ترافق الضيف الزائد الى المائدة للعشاء .

اطبقت قبضاتها على قضبان الحاجز، وكان صن توماس قد رافق امي وابي الى الشارع ثم تبعناهما جميعا ، امي في

وشاحهما الاسود وابي بعصابة ذراعه السوداء ، ونحن وراءهما مع العمة كالي التي تحمل الكسندر. وقالت امي : «الى اللقاء» الى اللقاء» وهي تقبلنا من فوق الوشاح ، ورائحتها كالمعتاد ، لكن يخالطها شيء اسود ، مثل الوشاح الرقيق الذي لم يكن يخفي في الحقيقة شيئاً ، مثل تلك البرقية التي جاءت عبر الأسلاك النحاسية مسافة ثلاثمئة ميل من خليج سان لويس . أوه ، نعم ، شممت رائحتها أيضاً عندما قبلتني قائلة : « انت الولد الأكبر» الرجل . يجب ان تساعد العمة كالي على الآخرين، فلا يزعجون ابنة العم لويزا . » وما كدت ادخل السيارة وأجلس قرب جدتي حتى قال بون :

«يجب أن أملأ الخزّان للرحلة إلى ماك كاسلين بعد الغداء. وفكرت أن لوشيوس يقدر أن يرافقني ويساعدني حين العودة من المحطة . »

أرأيت كم كانت ستمر بسهولة ؟ كانت سهلة جداً ، إلى درجة تشعرك ببعض الخجل . كأنما كانت أوراق الفضيلة والاستقامة تقف ضد جدي وجدتي وأمي وأبي . حسناً : ضدي أنا أيضاً . حتى كون جفرسون لم تعرف السيارات إلا منذ سنتين أو ثلاث ، ساعد بون – حسناً ساعدنا . كان لدى السيد رانسويل ، وكيل شركة النفط الذي زوّد كل الدكاكين في مقاطعة يوكنا باتاوفا من خزاناته على الخط الفرعي خلال السنتين الأخيرتين – كان لديه خزانات بنزين خاص، ومضخة وزنجي ليضخ منها . وكان كل ما على بون ، أو أي شخص

آخر يريد بنزيناً، أن يفعله هو أن يقود السيارة ويتوقف وينزل فيرفع الزنجي المقعد الامامي ويقيس كمية البنزين بانبوبه المعقوف ، ثم يملأ الخزان ويقبض النقود أو (اذا لم يكن رانسويل موجوداً) يدعك تكتب اسمك بنفسك وعدد الجالونات التي اخذتها على دفتر حسابات ملطخ بالشحم .

لكن مع أن جدي كان يملك السيارة منذ سنة تقريباً ، لم تؤاته الجرأة هو أو جدتي (أو لم يدفعهما الفضول) على استفهام بون أو تحديه .

هكذا وقفنا هو وأنا على الشرفة . ولوحت لنا امي من النافذة عندما تحرك القطار . الآن جاء وقت العمل . كان عليه ان يقول شيئاً ، ان يبدأ . لقد استعد لفرض سيطرته والقبض عليّ ، على الأقل حتى تبدأ العمة كالي تتساءل عني كما أتناول غدائي . اعني لم يكن بون يعرف انه ليس مضطراً لأن يقول شيئاً او يفعل سوى اخباري الى اين كنا ذاهبين . ولم يكن يعرف شيئاً عن الكائنات البشرية ، ويظهر انه نسي ما عرفه ولا شك ، يوماً عن الأولاد .

لم يكن بون نفسه يعرف كيف يبدأ . كان قد صلى طلباً للحظ ، وسرعان ما تحقق طلبه ، حتى انه لم يعرف ماذا يفعل بما حصل عليه . لا بد أنك سمعت بأن الحظ صاحب نزوات ، لا يمنع أبداً بل يعطي خيراً او شراً : يعطيك من الخير اكثر مما تستطيع التصرف به . هكذا كانت الحال مع بون .

ولم اساعده . وبذلك انتقمت . حسناً ، انتقمت ممن ؟ ليس من بون طبعاً بل من نفسي ، من خجلي ، او ربما من امي وأبي اللذين تركاني للعار . او ربمـــا من جدي الذي أفسحت سيارته للعار طريقاً ، من يدري ؟ ربما من السيد بوفالو نفسه — ذلك المأخوذ المفتون الذي بدأ المسألة كلها منذ سنتين بريشتين. لكنني شعرت بالأسف على بون لان وقته كان قصيراً . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ، والعمة كالي تنتظر عودتي خلال دقائق ، ليس لأنهـــا تعرف ان العودة الى البيت لا تستغرق اكثر من عشر دقائق بعد ان سمعت صفير القطار رقم ٢٣ يغيب في النفق ، بل لانها كانت تنتظر بفارغ الصبر حتى تطعمنا وتأخذنا الى ماك كاسلن . لقد وُلدت في الريف ومــا زالت تفضله . كان بون يتجنب النظر إلي . وقال : « ثلاثمئة ميـــل . لحسن الحظ ان احدهم اخترع القطار . لو كانوا سيذهبون في عربة بغال، كما اعتاد الناس من قبل، لما وصلوا في عشرة ايام ، هذا عدا عشرة أخرى للعودة . »

« ابي قال أربعة ايام ! »

« صحيح ، هكذا قال ؟ ربما أمامنا أربعة أيام لنعود إلى البيت ، لكن هذا لا يعطينا الوقت كله . »

وعدنا الى السيارة وصعدنا إليها . لكنه لم يدرها . وقال بون : « ربما حين يعود بوس ، بعد أربعة أيام، سيدعني أعلمك قيـــادة هذه السيارة . لقد كبرت كفاية . ثم انك تعرف قيادتها . هل فكرت في ذلك ؟ »

« لا ، لأنه لن يدعني . »

« حسناً لا تكن عجولاً . أمامك أربعة أيام لتغير رأيه . مع ان تخميني هو أنه سيتغيب عشرة . »

ولم يكن بون حتى الآن ، قد أتى بحركة ليدير السيارة . واضاف قائلا : « عشرة أيام ، قال ابوك ؟ كم تتصور أن هذه السيارة تقطع في عشرة أيام ؟ »

« أبي قال اربعة . »

« حسناً ، كم تقطع في أربعة أيام ؟ »

« لا ادري . ما من أحد هنا يعلم فيخبرني » .

« حسناً » .

قال ذلك وأدار السيارة فجأة وتراجع بها ثم انعطف محولاً اتجاهها ، ثم انطلق بسرعة في غير اتجاه الساحة او مضخة راونسويل للبنزين، فقلت :

« حسبت ان علينا ان نتزود بالبنزين » .

كنا ننطلق بسرعة . فقال بون : « غيرت رأيي . سنفعل ذلك قبل ان نذهب الى ماك كاسلن بعد الغداء . حينئذ لن يتبخر معظمه ونحن واقفون . » كنا الآن في سهل ، نمر بسرعة بين أكواخ الزنوج وحقول الخضراوات وأحواش الدجاج فتقفز الكلاب والدجاج مذعورة وتبتعد قبل وصول الغبار . وقطعنا السهل الى حقل مهجور فسيح بدت فيه آثار عجلات لكن دون إطارات . كانت عجلات سيارة السيد بوفالو التي ركبها بنفسه والتي عزلها قانون الكولونيل سارتوريس في هذا

المكان منذ سنتين ، حيث تعلم بون قيادة السيارة . ولم اكن بعد فهمت ، حتى أوقف بون السيارة وقال لي : « انتقل الى هنا » .

وهكذا تأخرت عن الغداء . كانت العمة كالي واقفة على الشرفة الأمامية تحمل الكسندر . وبدأت تصيح بي وببون قبل ان يوقف السيارة وينزلني . لقد غلبني بون في معركة عادلة. ويبدو انه لم ينس كل ما عرفه في حداثته عن الاولاد. أعرف الآن اكثر بالطبع، بل كنت اعرف آنذاك انسقوطي وسقوط بون لم يكونا فجائيين وحسب ، بل متواقتين ايضاً . لكنني فضلت الاعتقاد أن بون غلبني . على اية حال ، هذا ما قلته لنفسي . كنت وأنا متحصّن خلف سور الاستقامة المنيع الذي اقترن بالاسم الذي أحمله ، المرسوم على هيئة فروسية أجدادي الذكور كما ورثتها — لا ، كما اورثني اياها أبي ، وكما دعمتها أمي وجعلتها نافذة المفعول وافهمتني انها معرضة لان يشوهها العار ، بكل بساطة كنت أمتحن بون. لم اكن أجرب فضيلتي بل أمتحن مقدرة بون على نفسها ، ولبراءتي ، كنت شديد الثقة بدرع هذه البراءة ، فقد توقعت بل طلبت اكثر مما كان ذلك الرجل قادراً على تحمله . اقول هذا لا بلهجة النصح ، بل بنبرة التصميم : فإنني وقد لاحظت كم يشك المحامون وممارسو الفضيلة بمناعة الفضيلة كدرع ، واضعين ثقتهم وأمانتهم ليس في الفضيلة بل في الاله او الآلهة المسؤولة عن الفضيلة ، هكذا باعتبار الفضيلة كأنها ولاء لإله

الآلهة ، يصبح من واجب الالهة ، اما ان تبعد التجربة او ان تقف بينها . وهذا يوضح الكثير . إذ يبدو لي ان الالهة المسؤولة عن الفضيلة مسؤولة عن الحظ ، إن لم يكن عن الطيش ايضاً .

هكذا غلبني بون في معركة عادلة ، مستعملا القفازات كما يليق بالسيد المهذب . فعندما أوقف السيارة وقال لي : « انتقل » ، حسبت انني عرفت قصده . كنا قد فعلنا ذلك أربع أو خمس مرات من قبل في حوش جدي ، فكنت أجلس في حضن بون وأمسك بالمقود وأوجه السيارة بينما يدعها هو تتحرك ببطء ، عابرة الحوش . هكذا كنت مستعداً له . كنت متحفزاً ، بل كنت قد بدأت أرد الضربة فاتحاً فمي لأقول : « الحر شديد ، والجلوس في الحضن مزعج اليوم . ثم انه من الأفضل أن نعود الى البيت» ، لكنني رأيته يغادر السيارة من جهته وهو ما يزال يتكلم ، ويده على المقود والمحرك لا يزال يهدر . وبقيت ثانية أو ثانيتين عاجزاً عن تصديق ذلك لكنه قال لي : « عجل ، ستخرج العمة كالي في أية لحظة ، حاملة الطفل تحت ذراعها وهي تصرخ » .

هكذا انتقلت الى المقود ، وبون بجانبي ، فوقي ، أمامي احدى يديه على يدي لتشد مغيّر السرعة ، والثانية على يدي لتضبط مفتاح البنزين فتحركنا الى الامام قليلا ، ثم الى الوراء ، ووهج الشمس في عيوننا ، متوترين ، نافدي الصبر ، غارقين مأخوذين، خارج الزمان ، فوق الزمان ، غير متأثرين

بالزمان الى ان دقت ساعة مبنى المحكمة معلنة انقضاء نصف ساعة على الظهر ، فنبهتنا ، وأعادتنا إلى عالم الخداع القاسي .

وقال بون : « حسناً ، اسرع الآن . » قال ذلك دون ان ينتظر ، رافعاً إياي كما فعل تحت المقود . كانت السيارة تتراجع مسرعة عبر الحقل باتجاه البيت . وكنا الآن نتكلم كلام رجل لرجل ، ندّين في الجريمة ، ومتحدين طبعاً ، ولكن دون أن نتساوى بعد في الفعالية بسبب براءتي . وهممت بأن أقول ماذا أفعل الآن ؟ يجب ان تخبرني . ولكن بون سبقني الى الكلام فصرنا في منزلة واحدة. قال : «هل تصورت ماذا سنفعل ؟ ليس امامنا وقت طويل . »

قلت : « حسناً ، هيا . ارجع الى البيت قبل ان تبدأ العمة كالي بالصياح . » أرأيت ما أعنيه عن الفضيلة ؟ سمعت الناس – أولعلك ستسمعهم – يتكلمون عن الشيطان ، أو عن جيل شرير. لا وجود لأشياء كهذه . فليست هناك مرحلة من التاريخ او جيل من البشر كبُر الى درجة تؤهله لحمل اللافضيلة في اية لحظة معينة ، اكثر مما يستطيع استيعاب الهواء في تلك اللحظة . كل ما يستطيعون فعله هو ان يأملوا بأن يكونوا ماوثين بأقل قدر ممكن خلال مرورهم فيها . إذ مما يدعو الى الرثاء ان الفضيلة لا تستطيع ان تدافع عن نفسها كما تفعل اللافضيلة . ذلك ان الجزء الذي تقدمه الفضيلة بالمقابل ليس غير الفضيلة الباردة التي هي بلا طعم ولا رائحة: هذا دون أن تقارن مع المكافآت البراقة الخطيئة واللذة بل

المهارة العارفة بكل شيء - تلك المقدرة الهائلة التي لا تصدق على الاختراع والتخيل - حتى ان خطوات الطفولة المبعثرة تمشي بثبات في ممراتها المفروشة بالورد . لأنني ، أوه أجل ، نضجت بشكل مريع منذ أن دقت الساعة لدقيقتين خلتا . فقد اوصلتني ملاحظاتي الى انه، باستثناء بعض الحالات الخاصة التي يمكن أن توصف بأنها حالات عدم نضج حادة ، باستثناء ذلك فإن الاولاد كالشعراء يكذبون للمتعة أكثر مما يكذبون للمنفعة . اوهكذا كنت اتصور آنذاك ، ما عدا بعض الاستثناءات التي تتعلق بالدفاع عن النفس ضد الكائنات الأكبر مني (والديّ) والأقوى ، لا غير . على الأقل ليس الآن كنت منجرفاً مثل بون . وفي الخطوة التالية ، كنت اكثر مسؤولية . لانني ادركت - كلا - عرفت . كان ذلك واضحاً. بون نفسه اعترف به. كنت اذكى منه. لقد احسست بتلك الشعلة المحمومة الظافرة التي لا بد ان « فاوست » نفسه قد عاشها : بأنني كنت القائد ، كنت الرئيس ، والسيد ، بيننا نحن الهالكين اللذين تجاوزنا نقطة الرجوع .

كانت العمة « كالي » واقفة على الشرفة الامامية ، حاملة الكسندر. وهي تصرخ. فقلت لها: «اهدأي ! أليس الغداء جاهزاً؟ تعطلت السيارة . أصلحها بون. ولم يُتح لنا الوقت كي نزودها بالبنزين . لذا عليّ ان آكل بسرعة وأعود لأساعده على ملء الخزان» . وذهبتُ الى غرفة الطعام . كان الغداء على المائدة . كان ليسيب وموري يا كلان، وقد ألبستها العمة كاي ألبستها

كما لو كانا ذاهبين الى ممفيس ولن يبتعدا اكثر من سبعة عشر ميلاً لقضاء أربعة ايام عند ابن العم زاك . ولا اعرف سبباً لذلك ، ان لم تكن بحاجة الى اشغال وقتها بأي شيء ، بين وقت رحيل امي وابي ووقت الغداء . لان موري والكسندر يحب ان يناما وقت القيلولة . وكان موري سيوسخ ثيابه فتضطر ان تغسل وجهه وتُلبسه ثانية .

انتهيت قبلها ورجعت اجتاز الشارع الى ساحة بيت جدي . (كانت العمة كالي ما تزال تصرخ في البيت ، لكن بصوت غير مرتفع . انما مــاذا كانت تستطيع ان تفعل وهي وحيدة وزنجية امام اللأفضيلة ؟) . ربما كان ند قد ذهب الى المدينة حالما تحركت السيارة . وربما كان سيعود ليتغدى . كان قد عاد . ووقفنا في الساحة الخلفية . وغمزني . كانت لعيني ند ، في بعض الاحيان ، بل معظم الوقت ، نظرة حمراء ، كنظرة الثعلب . قال لي : « لم لا تبقى هنا ؟ »

فقلت : « وعدت بعض الرفــاق بأن نهرب غداً ونجرب مكاناً جديداً للصيد يعرفه أحدهم . »

فغمزني ند قائلا : « إذن تنوي ان ترافق بون هوجانبك الى ماك كاسلن ، ثم تعود معه . انما عليك ان تجد قصة تخبرها للآنسة لويزا كي تدعك ترجع . وهكذا فأنت بحاجة اليّ كي استر الامر لك . »

فقلت : «كلا . لا اريد منك شيئاً . اخبرك فقط لتعرف اين اكون فلا يلومونك . بل انني لن ازعجك . سأبقى عند

ابن العم آيك » .

قبل ان يولد الباقون (اعني أخوتي) كانت امي تتركني عند ند ودلفين حين تتغيب هي وأبي ، وحين يتغيب جدي وجدتي. وأحياناً كنت انام في بيتهما الليل كله ، لمجرد التسلية. كنت أقدر ان افعل ذلك الآن ، لو ان المسألة تنطلي عليهم . لكن ابن العم آيك كان يعيش في غرفة واحدة فوق حانوته . لو ان ند (او اي شخص آخر ممن يهمهم الامر) سأله عما اذا كنت عنده ليلة السبت ، فما كان ليسأله قبل الاثنين . وكنت قد قررت بألا افكر في الاثنين ،أرأيت ؟ لو ان الناس لا يمتنعون عنالتفكير في الاثنين التالي، لما كانت الفضيلة تعاني هذا الجفاء والجمود .

وقال ند :« فهمت . لا تريد مني شيئاً . تقول هذا لكبر قلبك ، ولتوفر عليّ الانزعاج والقلق عليك وعلى كل من يريد أن يعرف السبب في هدم بقائك في ماك كاسلن، حيث أوصاك ابوكبالبقاء. »ثم غمزني مقهقهاً ، فقلت: « حسنا أخبر أبيانني ذهبت الى الصيد يوم الأحد ، أثناء غيابه . الحسبني اهتم ؟ »

فقال : « لا أريد ان أخبر أحداً بأي شيء عنك . لست انا المسؤول عنك ، بل العمة كالي ، حتى تعود أمك . هذا اذا لم يصبح السيد آيك مسؤولا عنك الليلة ، كما قلت . » وغمزني قائلا : « متى يأتي بون هوجانبك لأخذك ؟ »

« قريباً . ثم الأفضل لك ألا تدع أبي أو بوس يسمعانك تدعوه بون هوجانبك . »

« دعوته سيداً مرات عديدة ، كافية ليصبح هذا اللقب حقيقة . وذلك بغض النظر عما اذا كان يستحقه ام لا » . ثم قهقه ضاحكاً كعادته .

أرأيت ؟ كنت أبذل اقصى ما يمكنني . المشكلة الوحيدة كانت في وسائلي . البراءة والجهـل : لم تكن تنقصني القوة والمعرفة وحسب ، بـــل الوقت . عندما تمنحك الاقدار او الآلهة – حسنا، اللافضيلة – الفرص، فإن اقل ما تستطيعه لك هو ان تمنحك المجال . لكن على الاقل كنت تستطيع ان تعثر على ابن العم آيك بسهولة ايام السبت . فقد قال لي : «من كل بد . تعال وابقَ عندي الليلة . قد تذهب للصيد غداً – فقط لا تخبر أباك » .

وقلت له : « كلا سيدي . لن ابقى عندك الليلة . سأبقى عند ند ودلفين كما كنت افعل دائماً . فقط أردت ان اخبرك اين اكون ، ما دامت أمي غائبة ، ولا استطيع اخبارها ، اعني استئذانها . » أرأيت انني فعلت اقصى جهدي في حدود ما كنت اعرفه ؟

ليس لأنني كنت عديم الثقة بنجاحي التام . كان يبدو لي ان اللافضيلة تضيع في اختبـاري الوقت الذي كان ضرورياً لغايات اعظم . عدت الى البيت دون ان اركض : يجب الا يراني جفرسون أركض . لكن باسرع ما يمكنني دونما ركض . لم اجرؤ على ترك بون وحيداً دون ظهير امام العمة كالي .

وصلت في الوقت المناسب . الحقيقة ان بون والسيارة هما

اللذان تأخرا. وكانت العمة كالي قد ألبست موري وألكسندر من جديد. وكانت قيلولتهما تلك أقصر قيلولة في سجل بيتنا. ند أيضاً كان هناك ، حيث لم يكن له عمل . لا ، هذا غير صحيح . أعني، وجوده هناك كان خطأ كلياً . إذ انه يكون عادة حيث يؤدي لجدي او جدتي اعمالاً نافعة خارج المدينة . كان يحمل الامتعة : سلة القصب التي تحوي حوائج الكسندر وحوائج اخرى : البقج التي تضم ثيابي وثياب ليسيب وموري لأربعة ايام ، وصرة العمة كالي . وقد رمى هذه الامتعة عند البوابة ، دون عناية ، قائلا للعمة كالي « الافضل لك ان تجلسي وتريحي قدميـك . بون هو جانبك كسر تلك الآلة وهو في مكان ما يحاول ان يصلحها . اذا كنت تريدين حقاً ان تصلي الى ماك كاسلن قبل وقت العشاء ، تلفني السيد بالوت في الاسطبل كي يرسل صن توماس بالعربة ، وسأوصلك على احسن حال . »

وبعد فترة ، بدا كأن ند على حق . اذ بلغت الساعة الواحدة والنصف (وهو الوقت الذي كان يجب ان يمضيه الكسندر وموري في النوم) ولم يبد لبون اثر . كان يمكن موري والكسندر ان يناما نصف ساعة اخرى . وظل ند يقول : قلت لك هذا . » ويكرره مرات عديدة حتى ان العمة كالي كفت عن الصراخ في وجه بون ، وبدأت تصرخ في وجه ند نفسه ، فذهب وجلس تحت المريشة . كانت على وشك ان ترسلني للبحث عن بون وعن السيارة حين وصل .

وعندما رأيته اعتراني ذعر هائل . كان قد بدّل ثيابه . اعني حلق ذقنه ولبس قميصاً ليس ابيض تماماً بل نظيف ، مع باقة وربطة عنق . ولم اشك انه كان يحمل معطفاً عندما نزل من السيارة ليُركبنا فيها، وكانت بقجته الموضوعة على ارض السيارة اول ما رأته العمة كالي حين وصلت . وكان الشيء الذي اثار فيّ الرعب والغضب ، ايضاً (ليس على بون ، كما اكتشفت ذلك فوراً) على نفسي ، انا الذي كنت اقدر ان اعرف هذا واتوقعه لانني كنت ادرك طوال حياتي ان من يتعامل مع بون ، فانما يتعامل مع صبي ، وانه لم يكن عليه ان يقف في وجهه وحسب ، بل ان يتوقع اهواءه الجامحة غير المنتظرة . ولم يكن السبب افتقار بون الى الحس السليم ، بل فشلي المخجل في ان اتحسّب او افترض انه يفتقر الى ذلك ، فأقول او اصرخ منادياً ايـاً قد تتهمه في مثل هذه الحالة : « الا ترى ان عمري ليس سوى احدى عشرة سنة ؟ كيف تتوقع مني ان افعل هذا كله ، وانا لا اتجاوز الحادية عشرة ؟ الا ترى انك تحملني اكثر مما استطيع ان احمل ؟» ولكن في اللحظة التالية تحوّل غضبي الى بون ايضاً : ليس لأن غباوته قد قضت على رحلتنا الى ممفيس (صحيح، ممفيس، كوجهة سير لنا لم تُذكر قط، لم اذكرها لك ، ولم اذكرها بيني وبين بون. ولماذا نذكرها ؟ إذ اين يمكن الذهاب ان لم يكن الى ممفيس ؟ وقد تفكر او تخشى بعض المخلوقات المسنّة ، على فراش الموت ، من رحلة ابعد ، لكن ليس انا وبون . والحقيقة انني كنت اتمنى في

هذه اللحظة ، لو انني لم اسمع بمفيس او بون او السيارات — كنت الآن في جانب الكولونيل سارتوريس ، اتمنى لو امحى السيد بوفالو وحلمه عن وجه الارض) .

لقد غضبت على بون لانه هدم بضربة صبيانية واحدة اكاذيبي المتهافتة ، المخلوطة ، المذعورة ، ووعودي الزائفة ، فاضحاً ادعاءاتي التي بادلت بها روحي —كلّا، لعنتها بها—. هذا أو ربما تمريض أسمال الروح التي لا قيمة لها والتي كنت سخيفاً حين اعتقدت أن الشيطان سيدفع أي شيء كي يحصل عليها ، كمن تفقد عذريتها بسبب صدفة عاثرة وقعت دون انتباه ، وليس سعياً وراء اللذة ، أو الخطيئة . لكن حتى الغضب كان قد ذهب . لم يبق شيء ، لا شيء . ولم أكن أريد ان أذهب إلى أي مكان ، او أوجد في أي مكان . لو كنت مضطراً ان أكون اي شيء ، لتمنيت ان أكون فعلا مضى . قلت ، وكنت اعتقد ذلك (اعرف انني كنت اعتقد ذلك لأنني قلته ألف مرة منذ ذلك الحين ومـا زلت اعتقد ذلك وآمل ان اقوله آلاف المرات الاخرى في حياتي واتحدى اي شخص كي يقول انني لن اعتقد ذلك) « لن اكذب ثانيـة . الكذب يسبب متاعب كبيرة . تصبح اشبه بمن يشك ريشة من جهة الرأس في صحن رمـل . لن تكون لذلك نهاية . لن تحظى بالراحة ابداً . ولا تنتهي من ذلك . ولا تستهلك الرمل ابداً لكي تكف عن المحاولة . »

لكن لم يحصل شيء . نزل بون دون معطف . كان نـد

يحمل بقجنا وسلالنا وصررنا في السيارة . وقهقه قائلاً : «هيا أدرها كي تتمكن من تعطيلها وتجد الوقت لاصلاحها وتعود الى المدينة قبل الظلام » . ثم وجه الكلام الى بون قائلا: « هل ستعود الى المدينة قبل ان تذهب ؟ »

حينئذ قال بون : « اذهب الى اين ؟ »

« تذهب للعشاء – اين يذهب اي عـــاقل عند غروب الشمس ؟ »

«فكر بعشائك انت . انـه العشاء الوحيد الذي يجب ان تهتم بأمره . »

دخلنا ، وتحركنا ، انا على المقعد الامـــامي مع بون ، والآخرون في المقعد الخلفي . واجتزنا الساحة المزدحمة كعادتها بعد ظهر السبت ، ثم اصبحنا خارج المدينة . كنـا نستطيع ان ننتهي الى المفرق المؤدي الى بيت ابن العم زاك ، وكان يحتمل ان نذهب في الاتجاهالخاطىء. وحتى لو كنا في الاتجاه الصحيح ، فلم نكن بعد على شيء من الحرية ، ما دامت العمة كالي وليسيب وموري والكسندر ما زالوا معنا في المقعد الخلفي ، كنا متحررين من ند الذي كان حيث لا يتوقع احد ان يكون، سائلا . « هل ستعود إلى المدينة اولاً؟». ولم ينظر بون إلي قط ، ولم انظر انا اليه . ولم يكلمني كذلك ؛ قد يكون شعر انه أفزعني بقميصه النظيف وياقته وربطة عنقه وحلاقته في منتصف النهـار وكل مظاهر السفر ، الرحيل ، الابتعاد ، الانفصال . وشعر انني لم أكن مذعوراً فقط ، بل

غاضباً لكوني عرضة للذعر . ورحنا نسير في طريق متوهجة تمتد سبعة عشر ميلا ، كان يجب ان نقرر خلالها شيئاً ؛ رحنا نسير في الطريق التي تضيئها شمس أيار ، وغبارنا يتطاير خلفنا ويحوم إلا اذا خففنا من سرعتنا عنـد جسر أو أرض مرملة . كانت الاميال السبعة عشر تتناقص بسرعة متزايدة، بينما كان يجب أن نفعل شيئاً ، أن نقرر شيئـاً بسرعة ، بسرعة . ولم أكن بعد أعرف ما هو نوع القرار ، ربمـا كان شيئاً يقال ، صوتاً ، ضجة ، صوتاً بشرياً، ما دام أن الثمن الذي سننتزعه منك اللاافضلية لن يكون من نوع الصمت والوحشة والوحدة . ولكن بون حاول على الأقل . ربما كان أيُّ خرق للصمت مفضلاً لديه مهما كان سخيفاً أو ساقطاً سلفاً . لا، كانت القضية أكثر من هذا. كان أمامنا أقل من نصف المسافة ويجب ان نفعل شيئاً ، ان نبدأ بعمل شيء :

« الطرقات أصبحت ممتازة الآن ، وفي كل مكان ، حتى أبعد من مقاطعة يوكنا باتاوفا . لا يمكن الانسان أن ينتظر طرقاً أفضل من هذه للرحلات البعيدة . كم تظنون ان هـذه السيارة تقطع من الآن حتى الغروب ؟ » . أرأيت ؟ لم يكن يوجه الكلام الى احد ، شأن الذي يمد يده فوق سطح المياه بحركة يائسة وهو يغرق آملا ان يجد قشة يتمسك بهـا . ولم يجد شيئاً :

« لا أعرف » قالت العـمة كالي من المقعد الخلفي وهي تحمل ألكسندر الذي نام منـذ ان غادرنا المدينة ولم يبق

مستيقظاً مسافة ميــــل ، فكيف بسبعة عشر ميلا . » ولن تعرفي ذلك ما لم تنعمي النظر فيه وانت جالسة على ذلك المقعد الخلفي في سيارة مزروبة في حوش بوص . »

وعندما قاربنا الوصول ، قال بون : « إذن تريد » من زاوية فمه رافعاً صوته بقدر ما يمكنني سماعه فقط ، مسدداً الكلام الى اذني كأنه مسدس أو سهم أو حفنة رمل ترشق على نافذة مغلقة .

– « اسكت ، » قلت متكلماً على طريقته . كان الحــل البسيط ، الجبان ، ان اطلب منه التوقف فجأة ، وعندمــا يتوقف اقفز من السيارة تاركاً للعمة كالي الخيار بين ان تترك الكسندر مع بون وتركض محاولة اللحاق بي في الأحراج ، وبين ان تبقى مع الكسندر وتلاحقني بصراخهــا فقط . اعني ان تدع بون يقودهم ويوصلهم الى البيت ويتركهم هنــــاك ، فأثب انا ثانية من جانب الطريق الى السيارة عندما يمر بون راجعاً الى المدينة او في أي اتجــــاه آخر يبعدنا عن كل من يفتقدني وله سلطة عليّ . إنها طريقة الجبن فلم لم اتبعهــا ، وانا الذي صرت ضالاً كاذباً ، انا الذي لعنتُ بسبب خداعي ، لمَ لم اذهب الى نهاية الشوط وأصبح جباناً ايضاً وأغدو غير قابل للاصلاح او الشفاء كفاوست ، فيجبر مجد الانحطاط سيدي الجديد على احترام كالي وإن استخف بصغر جسمي . لكنني لم أفعل . فما كان ذلك ليثمر . يجب ان يكون واحد منا على الأقل عملياً . لنفرض اننا ، انا وبون ، تمكنا من الذهاب قبل

ان يتاح لابنة العم لويزا ان ترسل الخبر الى الحقل حيث يكون ابن العم زاك هناك في الساعة الثالثة بعد الظهر، وقت الزرع. ولنفرض ان ابن العم زاك عجز عن اللحاق بنا على جواده المسرج : ما كان سيفعل هذا ، بل كان سيمتطي جواده ويتجه توا الى المدينة ، وبعد ان يجتمع بند وابن العم آيك ، كل على حدة ، مدة دقيقة واحدة ، يعرف جيداً ما يفعل ، وسيفعله مستعينا بالهاتف وبالشرطة .

وصلنا . وخرجت وفتحت البوابة (لم يتغير المكان منذ أيام لوشيوس كوينتوس كاروزرس . وقد وضع ابن عمك الحالي كاروزرس حرساً على أبقاره، فصار بمقدور السيارات أن تمر، إنما ليس ذوات الحوافر .) وعبرنا الطريق الى البيت (كان ما يزال هناك، ذلك البيت المبني من الاخشاب المطلية بالطين، والذي نصفه مسكن والنصف الثاني حصن بناه لوشيوس عندما عبر الجبال من ولاية كارولينا عام ١٨١٣ مع عبيده وكلاب صيد الثعالب . كان ما يزال قائماً هناك مغموراً بألواح الخشب وبزخارف خشبية توضع عادة على المراكب ، كانت قد أضافتها النساء اللواتي تزوجهن رجال آل ادموندس) .

وسمعت ابنة العم لويزا وكلُّ من كان هناك هدير سيارتنا يقترب (باستثناء ابن العم زاك الذي ربما كان قد شاهدنا عن ظهر جواده) فتجمهروا جميعاً على شرفة البيت الأمامية وعلى الدرج وفي الساحة حين وصلنا وتوقفنا .

وقال بون « حسناً » من زاوية فمه ، واضاف

قائلاً : « تفضّل ! » وهكذا كان . لم يعد هناك متسع من الوقت ،ناهيك بعدم وجود انفراد، كي يعرف فكرة ولو غامضة عن ما كان يحرص اشد الحرص على معرفته . ذلك أننا كنا – هو وأنا – حديثي عهد في هذا الشأن . كنا أقل خبرة من الهواة : بريئين كل البراءة في شؤون سرقة السيارات ، حتى أن أحداً منا لم يصف العملية بالسرقة ، لأننا كنا ننوي إعادتها سالمة ، حتى لو تركنا الناس والعالم (الذي كان جفرسون) حتى لو تركونا وشأننا ولم يفتقدونا .

كان وضعي اسوأ من وضعه . كان كلٌّ منا مستميتاً ، لكنني كنت أكثر منه استعجالا ، إذ كان عليّ ان أفعل شيئاً ، بسرعة ، وفي مدى دقائق ، بينما كان كل ما عليه ان يفعله هو ان يجلس في سيارته شابكاً أصابع يديه . ولم أعرف ماذا أفعل . كنت قد لفّقت من الاكاذيب أكثر مما تصورت ان خيالي يستطيع . وقد نجحت باقناع الآخرين بصدقها ، او على الاقل باحتمال وقوعها ، مما ملأني بالدهشة ان لم أقل بالرعب : كنت في موقف الزنجي الذي قال : « انا هنا يا إلهي. فاذا كنتَ تريد خلاصي فهذه هي أفضل فرصة تراني فيها واقفاً هنا محدّقاً فيك . » لقد أطلقتُ آخرَ سهامي ، وكذلك بون . إذا كانت اللافضيلة ما تزال راغبة في أي منا ، فقد كانت هذه فرصتها .

وقد فعلَتْ. كانت تتلبس ابنَ العم زاكاري ادموندس . لقد خرج من الباب الأمامي في تلك اللحظة ، وفي اللحظة

ذاتها رأيت في الساحة صبياً زنجياً يمسك بلجام جواده. أفهمت ما أعني ؟ ابن العم زاكاري ادموندس الذي لا تراه جفرسون في ايام الأسبوع، منذ ان يبدأ العمل في الأرض في اوائل آذار حتى يتوقف في تموز – ابن العم زاكاري نفسه ذهب الى المدينة هذا الصباح (لسبب ضروري يتعلق بالطاحون)وتوقف في مخزن ابن العم آيك بعد خروجي منه بدقائق. فقد طابقت اللافضيلة بين الوقت الذي حلت فيه بون على ان يحلق ويبدل قميصه ، وبين الوقت الذي يحتاج اليه ابن العم زاك كي يعود الى البيت على جواده وينزل عن ظهره عند العتبة ، لحظة سمعوا هناك هدير سيارتنا . وقال لي : « ماذا تفعل هنا ؟ آيك اخبرني انك ستبقى في المدينة الليلة ، وسيأخذك لصيد السمك غداً . »

وطبعاً بدأت العمة كالي تصرخ ، لذلك لم أكن بحاجة إلى ان اقول شيئا ، حتى لو كنت اعرف ما يجب أن يقال . « صيد السمك يوم الأحد ؟ لو سمع ابوه هذا ، لقفز من القطار هذه اللحظة ، حتى دون ان يرسل برقية ! وأمه أيضاً . الآنسة أليسون لم تقل له ان يبقى في البلدة مع السيد آيك ، أو أي شخص آخر ! وانما قالت له أن يأتي معي إلى هنا هو وهؤلاء الاولاد ، وإذا لم يكن سلوكه كما يجب ، علّمه السيد زاك كيف يكون السلوك . . »

وقال ابن العم زاك : « حسناً حسناً . كفي عن الصراخ

لحظة . لا أستطيع سماعه . ربما غيّر رأيه . هل غيّرت رأيك ؟»

« فقلت : سيدي ؟ نعم سيدي . أعني ، كلا سيدي ! »

« حسنا ، اختر لنفسك . هل تبقى هنا أم تعود مع بون ؟ »

« نعم ، سيدي ، اعود. قال لي ابن العم آيك ان اسألك إذا كنت استطيع العودة . » واخذت العمة كالي تصرخ ثانية (الحقيقة انها لم تكف عن الصراخ إلا لتأخذ نفسا طويلا ، إطاعة لأمر ابن العم زاك) . وانتهى الامر عند حد الصراخ ، فيما كان ابن العم زاك يأمرها قائلا : « اسكتي ، اسكتي . لا اقدر ان اسمع صوتي . إذا لم يحضره آيك غداً ، ارسلت في طلبه يوم الاثنين . » وعدت إلى السيارة ، وكان بون قد ادار المحرك .

وقال بون : « ويحي » دون ان يرفع صوته ، وباحترام كلي يخالطه بعض الخوف .

وقلت : « هيا . لنخرج من هنا . » ومضينا مسرعين باتجاه البوابة . وقال بون :

« لعلنا نضيع وقتنا بانفاقه على رحلة في سيارة . ربما يجب ان استخدمك في شيء يكون فيه نفع مادي . »

وقلت له : « ما عليك الا ان تتابع سيرك » . إذ كيف كنت استطيع ان اقول له :

« لقد اسقمني الكذب ، والاضطرار الى الكذب ؟ »

لأنني عرفت ، ادركت ان ما لفقناه من اكاذيب ليس سوى بداية ، وانه لن يكون آخر الأكاذيب .

وعدنا الى المدينة ، منطلقين هذه المرة بسرعة ، دون ان يسمح لنا بمشاهدة مناظر الطريق . كانت الساعـــة حوالي الخامسة . وتكلم بون بجدة والحاح قائلاً : « يجب ان نوقفها لفترة . رأوني انقلكم الى مـــاك كاسلن ، وسيرونني اعود وإياك وحيدين . لذلك يتوقعون ان يرونني اعيد السيارة الى حظيرة بوص ثم يجب ان يرونا ، انا وانت ، مفترقين ، نتمشى كأنما لم يحدث شيء » . ولكن كيف كان لي ان اقول له : « لا . لنذهب الآن . إذا كان عليّ ان اكذب بعـد ، فليكن ذلك على الغرباء ! » وكان بون مـــا يزال يتكلم : « - سيارة . ماذا قال عما إذا كنـا سنرجع الى المدينة قبل ذهابنا ؟ »

« ماذا ؟ من قال ؟ »

« ند . هناك قبل ان نغادر المدينة . »

« لا أذكر . ماذا عن السيارة ؟ »

« اين نتركها . بينما اقوم بجولة حول الساحة ، تذهب انت الى البيت وتأتي بقميص نظيف او اي شيء آخر تحتاج اليه . عليّ ان أنزل كل الحوائج في ماك كاسلن. حوائجك ايضا . وذلك خشية ان يتدخل شخص فضولي يكون واقفا بالصدفة ، كما يحصل غالبا . » وكان كلانا يعرف من يعني بهذا الشخص .

« لم لا تستطيع ان تضعها في الكراج ؟ »

« المفتاح ليس معي . ليس سوى القفل . بوص اخذ المفتاح مني هذا الصباح وفتح القفل واعطى المفتـاح للسيد بالوت ليحتفظ به حين عودته . والمفروض ان أدخل السيارة حالما اعود من ماك كاسلن واغلق القفل عليهـا . وسيبرق بوص إلى السيد بالوت عن القطـار الذي سيأتي فيه كي يفتح الباب واستطيع ان استقبله . »

« إذن يجب ان نخاطر ! »

« نعم ، سنضطر للمخاطرة . ربما بغياب بوص والسيدة سارة . حتى دلفين ذاتها لن تراه ثانية قبل الاثنين . » وهكذا جازفنا. فأوصل بون السيارة الى الكراج وأخذ صرّته ومعطفه من عّلية البيت ، حيث كان قـد خبأهما . ثم مد يده ثانية واخرج مشمعا ملفوفا ووضع صرّته ومعطفه في داخله، وألقى بهذه كلها على مقعد السيارة الخلفي . وكانت تنكة البنزين جاهزة : كانت تنكة جديدة تتسع لخمسة جـالونات أوصى عليها جدي عند السنكري الذي كان يصنع له عدة العمل ، وقد صنعها بحيث يحول دون تسرب الرائحة منها ، لأن جدتي لم تكن تحب رائحة البنزين . ولكننا لم نستعمل التنكة قبل الآن لان السيارة لم تبتعد هذه المسافة من قبل . اما القمع ومصفاة البنزين فقد كانا فيصندوق العدة معادوات الاطارات والعفريت والمفاتيح الانـكليزية ، وهي عدة تأتي مع السيارة من المعمل ، ثم الفانوس والفأس والجرفة والاسلاك الشائكة والبكرة وادواتها ، وهي التي أضافها جدي مع دلو الصفيح

لملء خزان التبريد بالماء عندما نمرّ قرب ساقية او بئر . وقد وضع التنكة في مؤخرة السيارة وهي مملوءة (ربما كان هذا هو السبب الذي جعله يتأخر في المجيء الينا) وفتح المشمع دون ان يفلشه ، ثم لمه ووضعه في المؤخرة ، فبـانت كل محتوياته وكأنها جزء من المشمع نفسه . ثم قال : « سندخل حوائجك بالطريقة نفسها . حينئذٍ ستبدو جزءاً من المشمع الذي يظهر وكأن صاحبه تكاسل عن طيه . أفضل ما تفعله هو ان تذهب الى البيت وتحضر قميصا نظيفا وتعود الى هنا للحال وتنتظر . لن أتأخر . سأتجول حول الساحـة فيراني آيك ، إذ ربمـا أراد أن يعود الى طرح الاسئلة من جديد . بعد ذلك نذهب . »

وأغلقنا الباب . وبدأ بون يعلـّق القفل المفتوح في الرزّة. فصرخت : « لا . » ولم أستطع ان أذكر السبب . كنت قد نضجت بسرعة هائلة في الشر : « ضعه في جيبك . »

لكنه عرف السبب . فقال: «أصبت . لقد فعلنا المستحيل لكي لا نسمح لاحد أن يمر بالصدفة ويقفله متصوراً أنني نسيت إقفاله . »

وذهبت الى البيت . كان في الجهة المقابلة من الشارع . وكان خاليا، وغير مقفل طبعا ، إذ لم يكن احد في جفرسون يقفل بيته في تلك الأيام الآمنة . كانت الساعة بعد الخامسة بقليل، لكن النهار كان قد انتهى، اما البيت الخالي الصامت فلم يكن خامداً مطلقا بل كان مسكونـا بحضور كائنات حبست

أنفاسها. وفجأة تمنيت حضور امي، لم أعد أريد حريقي، أردت ان ارجع، ان اقلع عن هذا، ان اكون آمنا ، وانجو من هذا النوع من التصميم واتخاذ القرارات. إنما كان الوقت قد فات الآن، اذ كنت قد اخترت، قد انتخبت. وإذا كنت قد بعت روحي للشيطان بأكلة عدس فالأحرى بي ان أحصّل هذا العدس وآكله: ألم يذكرني بون نفسه بذلك ، منذ هنيهة ، وكأنه قد تنبأ بلحظة الضعف والتردد هذه التي ستنتابني في البيت الخالي ، محذراً : « لقد تورطنا كثيراً كي لا نتيح لاي شيء ان يوقفنا عما نوينا عمله .»

كانت ثيابي المكونة من القمصان الجديدة ، والبنطلونات ، والجوارب ، وفرشاة الاسنان ، قد اصبحت في ماك كاسلن . طبعا ، كان في دولاب ملابسي المزيد منها ، باستثناء فرشاة الاسنان التي لم يكن احد يهتم بأمرها في غيـــاب امي ، لا العمة كالي ولا ابنة العم لويزا . لكنني لم آخذ أية ملابس ، ليس لأنني نسيت ، بل لأنني لم أنو ان افعل ذلــك قط . ودخلت البيت ووقفت داخل البـــاب مدة تكفي كي اثبت لنفسي انني ، بيني وبين بون ، لم اكن انا الذي عجزت عن القيام بالواجب . ثم عدت اقطع الشارع واعبر ساحـــة بيت جدي الى الحوش. لم اكن انا الذي عجزت عن القيام بالواجب ثم عدت أقطع الشارع وأعبر ساحة بيت جدي الى الحوش . لم يكن بون هو الذي قصّر بواجبه ، إذ سمعت المحرك يهدر يهدوء قبل ان ابلغ الكراج . وكان بون خلف المقود، فقال: « اين قميصك النظيف ؟ لا بأس . سأشتري لك واحداً في

ممفيس . هيا ، يمكننا ان نتحرك الآن . » وأخرج السيارة .
كان القفل المفتوح معلقا في الرزة . وناداني : « تعال . لا
تتوقف لاقفاله فنؤخرنا . »

فقلت : « لا . » دون ان استطيع ، هذه المرة ايضا ،
ان اوضح السبب : إذ باغلاق الباب وإطباق القفل قد يبدو
كأن السيارة سالمة في الداخل . وهكذا كانت المسألة كلها
تبدو لي كأنها مجرد حلم سأصحو منه غداً ، او ربما الآن ،
او في اللحظة التالية ، واعود آمنا وانجو . فاغلقت الباب
واطبقت القفل وفتحت البوابة لبون كي يخرج ، ثم صعدت
الى السيارة وهي تسير – اذ انها لم تتوقف تماما . ثم قلت
لبون : « اذا ذهبنا من الطريق الخلفية ، نتجنّب المرور في
الساحة . » فأجاب :

« فات الوقت الآن . كل ما يمكنهم فعله هو الصراخ . »
لكن احداً لم يصرخ . حتى وإن كنا قد قطعنا الساحة ،
فلم يكن الوقت قد فات بعد . الخطوة التي لا تقبل التراجع
كانت ما تزال امامنا على بعد ميل حيث تتفرع الطريق الى
ماك كاسلن من طريق ممفيس. هناك كنت استطيع أن اقول:
« توقّفْ . انزلني . » وكان سيمتثل لي . او اقول :
« ارجعني الى ماك كاسلن » . واعرف انه كان سيفعل ذلك
ايضا . ثم ادركت فجأة انني لو قلت له : « ارجع . سآخذ
المفتاح من السيد بالوت ، وسنرجع السيارة الى حظيرتها حيث
يعتقد بوص أنها موجودة الآن . » كان سيفعل ذلك . بل

اكثر من هذا : كان يريدني ان افعل ذلك . كان يتوسل إلي بصمت ان افعل . كان كلانا مذهولاً ليس من جرأته منفرداً، بل من طيشنا المشترك المتبادل . وكان بون يعرف انه لا يملك القوة لتحمّل هذا ، لذلك طرح نفسه عليّ معتمداً على قوتي واستقامتي . أرأيت ما اخبرتك عن اللافضيلة ؟ لو ان الامور انعكست وكنت انا الذي يرجو بون بصمت كي يعود ، كنت ساعتمد على عنصري الفضيلة والشفقة عنده ، وهو ما كان معدوما لديه . لذلك لم اقل شيئا . حتى مفرق الطريق ، اليد الضعيفة العاجزة التي حسبت انها ستمتد وتخلصني، مرّت بنا سريعا ثم اختفت الى غير رجعة. فقلت بيني وبين نفسي: حسناً ، ها قد جئت . ولعل بون سمع ذلك ، على اية حال فقد تركنا جفرسون وراءنا . كان الشيطان سيدافع عن نفسه في اليومين التاليين على الاقل . اذ همس في آذاننا قائلا : « ليس امامنا ما نقلق له سوى وادي الجحيم الذي سنعبره غداً . اما وادي الأعاصير فليس مهماً » .

« من قال انه مهم ؟ » كان وادي الاعاصير يبعد اربعة اميال عن البلدة . وكنا ، طوال حياتنا ، نعبره بسرعة دون ان نعرف اسمه . لكن الذين كانوا يعبرونه آنذاك كانوا يعرفونه . كان هناك جسر خشبي يقوم فوق الساقية ، لكن الاماكن المجاورة له كانت، حتى في اوج الصيف ، بمثابة حفر عميقة مملوءة بالوحول . وقال بون :

« هذا مـــا أقوله لك . لم يكن شيئا مهماً . عبرناه انا

والسيد ووردوين في العام الماضي ، حتى دون ان نستعمل البكرة وادواتها ، بل بالفأس والجرفة اللتين استعارهما السيد ووردوين من بيت على مقربة نصف ميل . ومـا اظن انه أرجعهما . ولكن ، لحسن الحظ ، جاء صاحبهما في اليوم التالي وأخذهما . »

كان على حق. فقد عبرنا الحفرة الأولى ووصلنا الى الجسر، لكن الحفرة الثانية أوقفتنا . فترنحت السيارة مرة ، مرتين ، ثم مالت وتوقفت وجمدت في مكانها . فلم يضع بون الوقت ، اذ خلع حذاءه (نسيت ان أقول بانه قد لمّمه أيضاً) وطوى بنطلونه ونزل في الوحل ، صائحـاً بي : « انتقل إلى هنا . أدرْ اقصى السرعة وانطلِقْ حين أقولُ لك . هيـا . انت تعرف كيف تقودها الآن . علـّمتك هذا الصباح .» وجلست أمام المقود . ولم يستعمل البكرة وأدواتها ، بل قـال : « لا أحتاج إليها . يستغرق إخراجها واعادتها وقتاً طويلا وليس أمامنا وقت .» ولم يحتج إليها: كان هناك سياج قرب الطريق، فاقتلع القضيب العلوي ، وركبناه في الوحل والمـاء ، ودفع قضيب السياج تحت محور العجلات وقال : « الآن ، اضغط على دواسة البنزين ! » ورفع السيارة الى الأعلى ودفعهـا الى الأمام حتى أوصلها الى الارض الجافة ثانية صارخـاً بي : « أقفلها ! أقفلها ! » ففعلت ذلك ، فصعد وأزاحني جانباً وجلس أمـام المقود ، ولم يتوقف كي يرخي ساقي بنطلونه الملوثتين بالوحل .

كانت الشمس تشارف المغيب الآن . وكان الظلام سيحلّ قبل ان نصل الى بالبنوز، حيث يمكننا تمضية الليل . وانطلقنا بأقصى السرعة ، ونحن نمر قرب بيت ويوت ، وهم اسرة من أصدقائنا ، كان أبي قد اخذني لصيد الطيور في جوارهم ، في عيد الميلاد الماضي . كانت تبعد ثمانية اميال عن جفرسون، ولكن ما يزال بينها وبين النهر أربعة اميال . ومضينا . كان القمر سيطلع بعد قليل ، لأن مصابيح الكاز الأمامية كانت تصلح لتعرّف الناس بقدومك، اكثر مما تصلح لاضاءة الطريق أمامك . وفجأة قال بون : « ما هذه الرائحة ؟ أهي منك؟» وقبل ان اتمكن من النكران ، كان قد ضغط على الفرامل وتوقف لحظة ، ثم استدار الى الوراء ومدّ يده وقذف كتلة المشمع المتكورة الى مؤخرة السيارة وهنا نهض ند من أرض السيارة . كان يرتدي بزة سوداء مع قبعة وقميص أبيض دون ياقة أو ربطة عنق ، وهو ما كان يلبسه ايام الآحاد . وكان يحمل بيده شنطة صغيرة (تدعونها اليوم حقيبة او محفظة) كانت للوشيوس ماك كاسلن ، قبل ان يولد أبي

لا أعرف ماذا كان يضع فيها في المناسبات الأخرى . كل ما رأيته فيها هو الكتاب المقدس (منذ ايام جدة جدته) ولم يكن يحسن قراءته . كما كان فيها زجاجة تحوي ملعقتين من الوسكي .

وصاح بون : « ما هذا ؟ »

فأجاب ند مقهقهاً كعادته : «وانا ايضاً اريد ان اذهب في رحلة ! »

الفصل الرابع

وقال ند : « لي الحق ان اقوم برحلة ، مثلك وقبل لوشيوس وأكثر . هذه السيارة تخص بوص . وما لوشيوس سوى حفيده ، اما انت فلا قرابة لك به قط . »

وقال بون: « حسناً ، حسناً . ما اعنيه هو انك استلقيت تحت ذلك الغطـاء طوال الوقت وتركتني اغوص في الوحل وأرفع السيارة وحدي . »

وقال ند : « كان الحر شديداً تحته أيضاً . لا أعرف كيف تحملته . هذا فضلا عن اضطراري لتفادي تحطيم رأسي بهذه التنكة ، كلما كنت تخضخضنا ، ثم انتظاري حتى يدخل البنزين ، او اياً كان الاسم الذي تدعوه به ، حيث يمكن ان يشتعل . ماذا كنت تريدني ان افعل ؟ كنـا على بعد اربعة اميال من البلدة . كنت ستجبرني على العودة ال البيت ماشياً »

فقال بون: « نبعد الآن عشرة اميال، فما الذي يجعلك تظن انك لن ترجع الى البيت ماشياً ؟ »

فقلت للحال : « هل نسيت ؟ مزرعة ويوت تبعد ميلين. »

وقال ند بانشراح : « صحيح . لن نسير مسافة طويلة من هنا » ، ولكن بون لم يطل النظر إليه ، بل قال له : « اخرج واطوِ ذلك الغطاء كي يشغل مكاناً كبيراً ، جدد هواءه قليلا إن كنا سنبقيه معنا . »

وقال ند : « تتكلم وكأنني قد أسأت التصرف وعرضت نفسي للانتقاد . »

وأضاء بون انوار السيارة الأمامية عندما توقفنا ، ومسح قدميه وساقيه باحدى زوايا الغطاء ثم لبس جواربه وحذاءه وارخى اطراف سرواله ، وكانت قد جفّت . كانت الشمس قد غربت الآن وصرنا نستطيع رؤية ضوء القمر . وعندما نصل الى بالنبوز سيكون الليل قد انتصف .

وقد علمت ان بالنبوز اصبحت مكاناً لصيد السمك يديرها بين الحين والآخر مهرّب ايطالي - واعني بقولي بين الحين والآخر مدة الاسبوع او الاسبوعين اللذين يحتاج اليهما العمدة الجديد الذي ينتخب كل اربع سنوات ليكتشف الارادة الحقيقية للشعب الذي حسب انه صوّت له . كانت كل تلك المنطقة من وادي النهر - وهي جزء من حلم البارونية البائد عند توماس ستبن وموقع مخيم الصيد الخاص بالميجر دي سبين - قد اصبحت الآن منطقة لتصريف المياه . كما كانت

الاحراج – التي كان بون يصيد فيها الدببة والغزلان والفهود ، ايام شبابه ، او التي كان يرتادها اثناء قيام اسياده بالصيد – هذه قد اصبحت الآن مزروعة بالقطن والذرة ، حتى ان عبّارة ويوت لم تعد إلا اسماً لغير مسمى .

وحتى عام ١٩٠٥ ، كانت هناك بقايا أحراج ، على الرغم من اكثر الغزلان وجميع الدببة والفهود (وكذلك الميجردي سبين وصياديه) قد اختفت ، ومثلهـــا العبّارة . واصبحت عبّارة ويوت تدعى الآن بالجسر الحديدي . وقد سمي بالجسر الحديدي لأنه كان اول جسر حديدي عرفناه في مقاطعة يوكناباتاوفا ، كما ظل الجسر الوحيد عدة سنين . لكن في الايام الغـابرة – ايام صغار ملوكنا ، ملوك التشيكاسو ، امثـال استيتيبّها وموكيتوبّي ومغتصب العرش الذي كان يسمي نفسه «الهلال» وكذلك عندما اتى ويوت الأول وأراه الهنود العبّارة وبنى مخزنه وزورقه واطلق عليه اسمه – لم تكن هذه العبّارة هي الوحيدة على مسافة اميال عديدة وحسب ، بل كانت مركزاً لحركة الملاحة ايضا . كانت المراكب (عند ارتفاع المياه في الشتاء ، حتى المراكب البخارية الصغيرة) تصل إلى باب بيت ويوت قادمة من فيكسبرج حاملة الوسكي والحاريث وزيت الكاز وروح النعناع وترجع محملة بالقطن والفراء .

لكن ممفيس كانت اقرب من فيكسبرج حتى بواسطة قوافل البغال ، لذلك بنيت طريق مستقيمة قدر الامكان تمتد من جفرسون حتى المنعطف الجنوبي لمعبر ويوت وطريق

اخرى مستقيمة قدر الامكان ايضا تمتد من الطرف الشمالي للمعبر حتى ممفيس . لذلـك اصبح القطن والبضائع الأخرى تأتي وتذهب بواسطة تلك الطريق على عربات تجرها البغال او الثيران . وفجأة ظهر من الغيب عملاق مجهول النسب يـدعو نفسه بالنبو . وقد قال البعض انه اشترى من ويوت الغرفة الصغيرة المعتمة الهادئة التي كانت تضم المسكن والمخزن بمـا في ذلـك كل حقوق ملكية ويوت في عبّارة تشيكاسو القديمة . وقال آخرون ان بالنبو أدخل في رأس ويوت بأنه (اي ويوت) قضى هناك مدة كافية ، لذلك آن له أن يبتعد اربعة اميال عن النهر ويصبح مزارعاً .

على اية حال ، هذا ما فعله ويوت . ثم أصبح محله المنعزل الصغير الذي قام وسط البرية ، مكاناً صاخباً بكل مـــا في الكلمة من معنى : أصبح نزلاً وموقفاً لتنـــاول الطعام وصالة لعمال تحميل المراكب العابرة ، وسائقي عربات البغال الذين كانوا سليطي اللسان وقساة القلوب يجيئون لمقابلة العربات عند ضفتي النهر ، بينما يقوم بغلان او ثلاثة ، وأحياناً اربعة ، وقد ربط بعضها الى البعض الآخر ، يجر العربات الثقيلة الى العبّارة عند إحدى الضفتين ، ثم بالعكس : من العبّـــارة الى التلال المجاورة . كان مكاناً صاخباً لم يستطع مجابهته غير الرجـــال الأشداء ، دون غيرهم ، الى ان قام الكولونيل سارتوريس (ولا اعني صاحب المصرف ذا اللقب غير الرسمي الذي ناله بالوراثة والقرابة ، والذي كان مسؤولاً عن وجودي ووجود

بون حيث نحن الآن ، بل اعني اباه ، الكولونيل الحقيقي في جيش الولايات الاميركية الاتحادية – الجندي ورجـل الدولة والسياسي والمبارز ، الذي يقول عنه أحـــد الذين تحدروا من سلالته من ابناء اخوته وعمومته – وهو شاب من مقاطعة يوكناباتوفا ، له من العمر احدى وعشرون سنة – انــه قاتل قام ببناء سكته الحديدية حوالي عام ١٨٦٥ ثم قضي عليه .

لكنه لم يهدم سكة بالنبو ، فجاءت قطارات الشحن وطردت المراكب من النهر وغيرت اسم عبّارة ويوت الى اسم عبّارة بالنبو . ثم انتزعت القطارات بالات القطن من العربات، فأزالت لذلك العبّارة من بالنبو ، لكن كان ذلك كل شيء . وقبل تلك الفترة بأربعين سنة، اي ايام التاجر البسيط ويوت، اثبت بالنبو انه قادر على التنبؤ بالموجة التي ستحدث في المستقبل والسيطرة عليها . ثم كان عهد ابنه ، وهو عملاق آخر جاء لابساً (كما قيل) معطفاً مبطناً بأوراق مالية اميركية غير مقصوصة ، حين عاد عام ١٨٦٥ من اركنساس ، حيث خدم وسُرّح بشرف من فرقة فدائيين وطنيين نسي فيما بعد اسم قائدها. وقد اثبت انه لم يخسر شيئاً من حذقه ومهارته ودرايته بكل شيء .

وكان الناس في الماضي يمرون بالنبو بملك ويتوقفون فيه لقضاء ليلة . امـــا الآن فانهم يذهبون اليه في الليل ويذهبون مسرعين ليمطوا بالنبو اطول وقت ممكن لإخفاء الحصان أو البقرة في المستنقع قبل وصول رجال القانون أو صاحب الحيوان

المسروق . ذلك انه ، بالاضافة الى جماعات المزارعين الحانقين الذين كانوا يتتبعون آثار حوافر خيولهم ومواشيهم التي ذهبت بلا رجوع ، كان هناك العمد الذين يتبعون المجرمين الحقيقيين الى بالنبو . فقد ترك محصل ضرائب فدرالي واحد على الأقل مجموعة من آثار الأقدام التي لم ترجع . لأن بالنبو الابن لم يكن يكتفي ببيع الوسكي مثل أبيه بل كان يصنعها أيضاً . ثم اصبح حامياً لما يسمى تغطية وتلطيفاً ، بصالة الرقص .

وما ان حلت اواسط العقد الثامن من القرن ، حتى اصبح اسم بالنبو مرادفاً للرعب والسخط الى مسافات بعيدة . وقد حاول القسس والعجائز من السيدات اختيار عمد يكون هدفهم اخراج بالنبو وسكيريه وموسيقييه ومقامريه وبناته خارج مقاطعة يوكنا باتوفا ، بل خارج مسيسيبي إن امكن . لكن بالنبو وحاشيته - الاسطبل ، بيت الملذات ، سمه ما شئت - لم يزعجونا قط نحن الآخرين . فهم لم يخرجوا ابداً من معقلهم كما لم يكن هناك قانون يجبر احداً على الذهاب إليهم . كذلك بدا ان هوايته الجديدة (التجسد) كانت مفيدة حتى انتشر خبر مفاده ان كل شخص لا يتطلع أو يطمح الى الحصول على أكثر من حصان مريض او بقرة عجفاء فهو غير مقبول هناك . وهكذا عمد الراشدون الى ترك بالنبو ، بما فيهم العُمُد الذين لم يكونوا راشدين فحسب بل أرباب عائلات ايضاً . وقد اتخذوا عبرة بما حل بمحصل الضرائب الفيدرالي الذي اختفى في تلك الجهة منذ مدة غير بعيدة .

بقيت الحال كذلك حتى عام ١٨٨٦ ، عندما جـاء الى بالنبو قسيس معمداني اسمه حيرام هايتور . كان هـو ايضاً عملاقاً كبالنبو وبمثل ضخامته . وكان ايام الآحـاد ، منذ عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ ، قساً من جماعة فورست، وفي الأيام الستة الباقية من أقسى جنوده واجرأهم . وقد جـاء هذا القسيس مسلحاً بالجيـله وبيديه الخاويتين وردّ المنطقة بكاملها الى الدين بواسطة قبضتيه، واحداً واحداً كلما استطاع، واثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، كلما اضطر الى ذلك . وهكذا عندما جئت انا وبون وند في غسق يوم من ايام ايار عام ١٩٠٥، كان بالنبو يتجسد للمرة الثالثة في شخص آنسة يبلغ عمرها خمسين سنة ، كانت ابنته الوحيدة وكانت متأنقة نحيلة صارمة شاحبة اللون تقوم بزراعة ربع ميل مربع من الأرض الخصبة الصالحة لزراعة القطن والذرة ، وبإدارة مخزن صغير تعلوه غرفة فيها صف من فُرش القش ، وقد غطي كل فراش منها بشراشف وأغطية ومساند وبطانيات نظيفة جداً . وكانت تلك العلية مخصصة لنوم صيادي الثعالب والراكون والسمك ، الذين (كما قيل) كانوا يعودون دائماً ليس من اجل صيد الحيوانات والسمك ، بل من أجل الموائد التي كانت تعدها الآنسة بالنبو .

سمعت جلبتنا نحن ايضاً . لم نكن نحن الأُول. فقد قالت لنا ان سيارتنا كانت الثالثة عشرة التي مرّت من هناك خلال السنتين الأخيرتين ، وان خمساً منها قد مرت خلال الأربعين يوماً الأخيرة . وقد فقدت من جراء ذلك خمس دجاجات ،

وربما اضطرت لإبقاء كل دواجنها مزروبة ، حتى الكلاب .
كانت تقف هي والطباخة ورجل اسود في الرواق الأمامي وقد غطوا عيونهم من وهج أضوائنا الأمامية : لم تكن تعرف بون من قديم وحسب ، بـــل تعرفت الى سيارته من النظرة الاولى . فهي وان لم تكن قد رأت غير ثلاث عشرة سيارة ، فقد كانت تستطيع التمييز بين السيارات تمييزاً حسناً .

وقالت : « اذن ، تمكنت فعلاً من الوصول الى جفرسون ! »

وقال : « ها قد مضت سنة . يا الله ، يا آنسة بالنبو . وصلت هذه السيارة الى أماكن أبعد مئة مرة من جفرسون ، منذ ذلك الحين ألف مرة . آن لك ان تستلمي : عليك ان تعتادي السيارات كأي شخص آخر . » كان هذا عندما اخبرتنا عن الثلاث عشرة سيارة خلال سنتين وعن الدجاجتين.

« على الاقل ركبنا سيارة لمسافة قليلة وهو مـا لا يمكنني قوله . »

وقال بون : « أتعنين انك لم تركبي سيارة بعد ؟ هيا يا ند اخرج من هناك مع الحقائب. اسرع ، دع الآنسة بالنبو تجلس في المقعد الامامي حيث يمكنها ان ترى جيداً . »

وقـالت الآنسة بالنبو : « انتظر . يجب أن أكلم أليس بشأن العشاء . »

وقال بون : « يمكن العشاء ان ينتظر . اراهن ان أليس ، هي ايضاً ، لم تركب سيارة قط . هيا يا أليس . من ذا الذي معك ؟ زوجك ؟ »

وقالت الطباخة : « لا ابحث عن زوج ، ولن افكر في « إفوم » حتى لو كنت ابحث عن زوج . »

وقال بون : « احضريه معك على اية حال». وتقدمت الطباخة والرجل وركبا في المقعد الخلفي مع تنكة البنزين والغطاء المطوي . ووقفت انا وند في ضوء المصباح عند الباب المفتوح وراقبنا السيارة والضوء الخلفي الأحمر ، وهي تسير على الطريق . تتوقف ، وترجع الى الخلف ، وتدور ، وتعود مارة بنا . وضغط بون على الزمور . كانت الآنسة بالنبو تجلس منتصبة على المقعد الامامي ، وهي متوترة الاعصاب قليلاً ، بينما جلست أليس وإفوم في المقعد الخلفي . وحين مروا قربنا أشار إلينا ، وهتف إفوم لند قائلاً :

« يا سلام ! »

وقال ند عن بون: « انه يتباهى. يجب ان يكون مسروراً جداً لان بوص بريست ليس واقفاً هنا ايضاً . وإلّا لكان لقنه درساً » . ووقفت السيارة ورجعت الى الخلف ودارت ثانية وعادت في اتجاهنا ووقفت . وبعد لحظة قالت الآنسة بالنبو: « حسناً . » ثم سارت وقالت بسرعة : « هيا يا أليس» وهكذا تعشينا . وعرفت لماذا كان القناصة وصيادو السمك يعودون . ثم سار ند مع إفوم ، ورافقت انا الآنسة بالنبو بينما كان بون يحمل المصباح . وصعدنا جميعاً الى الغرفة التي تعلو المخزن .

وقال بون : « ألم تحضر شيئاً ، حتى ولا منديل نظيف؟»

« لن احتاج الى شيء . »

« حسناً ، لا تقدر ان تنام هكذا . انظر الى هذه الشراشف النظيفة . اخلع حذاءك وسروالك على الاقل . امك تجعلك تنظّف اسنانك ايضاً .

« كلا ، ما كانت لتجعلني . لا يمكن . ليس معي اي شيء انظفها به . »

« ما كان هذا ليمنعها،وانت تعرف ذلك . ان لم تستطع ايجاد شيء عملت شيئاً لتنظفها به او لتعرف سبب ذلك . »

وقلت : « حسناً » ، وكنت قد استلقيت على فراشي ، فقال : « تصبح على خير . » ووقف رافعاً يديه ليطفىء المصباح وهو يقول :

« هل انت بخير ؟ »

« اسكت » .

« دعنا نعود الى البيت . ليس الآن بل غداً صباحاً . »

« أبعد كل هذه المدة تخاف ؟ »

وقال : « طابت ليلتك . » ثم أطفأ المصباح واستلقى على فراشه . وخيم ظلام الربيع : نقيق الضفادع الكبيرة الأجش والصوت الذى تحدثه الغابات ، الغابات الكبيرة، البرية بما فيها من حيوانات برية : الراكون والارانب والقنادس والبوم والأفاعي الكبيرة - الافاعي العامة والحيات ذوات الأجراس - وربما كانت الاشجار ذاتها تتنفس ، حتى النهر يتنفس . هذا فضلاً عن الأشباح - تشيكاسو القدماء

الذين اعطوا الأرض اسمها قبل ان يراها البيض ، ثم من بعدهم البيض أنفسهم – ويوت ، وستوبن العجوز ، وصيادو الميجر دي سبين ، والزوارق المسطحة الملأى بالقطن ، ثم قطارات الشحن وسائقو العربات وسلسلة اللصوص والقتلة التي جاءت بالآنسة بالنبو . وفجأة عرفت الصوت الذي كان يحدثه بون .

وقلت لبون : « علام تضحك ؟ »

« افكر في بطن وادي الجحيم . سنصل اليه حوالي الحادية عشرة قبل ظهر غد . »

« ظننتك قلت اننا سنواجه المتاعب هناك . »

« الحقيقة اننا سنواجه المصاعب . سنتعب الفأس والجرفة والسلك الشائك والبكرة وادواتها وجميع درابزينات السياج ، كما سنتعب نحن الثلاثة ، انا وانت وند . هذا ما يضحكني . فعندما ننتهي من وادي الجحيم غداً ، سيتمنى ند لو انه لم يسيء التصرف باختبائه تحت ذلك الغطاء حتى يشعر اننا وصلنا الى ممفيس . »

ثم ايقظني باكراً ، كما ايقظ كل شخص على مسافة نصف ميل، مع ان ايقاظ ند الذي كان ينام في بيت إقوم واحضاره الى المطبخ ليتناول فطوره استغرق بعض الوقت ، كما ان اخراجه من المطبخ ، استغرق وقتاً أطول لوجود امرأة فيه . وتناولنا طعام الغداء . ثم انني لم اشعر بأية رغبة في الذهاب الى اي مكان لو كنت قناصاً او صياد سمك . وأخذ بون الآنسة بالنبو في رحلة أخرى في السيارة ، ولكن دون

اصطحاب أليس وإفوم هـذه المرة ، على الرغم من ان افوم كان موجوداً ثم قمنـا انا بون بتعبئة خزان السيارة بالبنزين وتعبئة جهاز التبريد لا لانهما كانا بحاجة الى تعبئة بل لان الآنسة بالنبو وإفوم كانا يراقباننا على ما اظن . وادرنا السيارة. كانت الشمس تشرق عندما عبرنا الجسر الحديدي فوق النهر الى بلاد غريبة وبمقاطعة أخرى . وفي المساء سنكون قد بلغنا ولاية اخرى ، الى ممفيس . وقـال بون : « شرط ان نعبر وادي الجحيم » . فأجبت : «ربما اذا توقفت عن التحدث عنه . »

وقال بون : « طبعاً بطن وادي الجحيم لا يهمه إن تحدثت عنه » . « لم تتحدث . لن يهتم ابداً . وسترى » . ثم قال : « حسناً » انه هناك » . كانت الساعة قـد تجاوزت العاشرة بقليل ، وكنـا قد امضينا وقتاً رائعاً نتبع القمم . وكانت الطرق جافة ، كثيرة الغبار بـين الحقول اليانعة . وكانت الارض خالية وهادئة ، والناس في ملابس الاحد جالسين دون عمل على الشرفات الامامية ، والاولاد والكلاب يجرون نحو السياجات او الطريق لمراقبتنـا اثناء مرورنا ، ثم اناس في مختلف انواع العربات وعلى ظهور الخيل والبغال . وكان هناك اثنان او ثلاثة يركبون الحصان ، لا البغل . وكنـا قد مررنا بعد التاسعة بقليل بسيارة اخرى ، قال بون عنها انهـا من طراز فورد ، اذ كان يستطيع التفريق بـين السيارات مثل الآنسة بالنبو. وكان هؤلاء في طريقهم الى الكنـائس الصغيرة البيضاء القائمة في الاحراج .

وامتدّ امامنـــا واد واسع . وكانت الطريق تنحدر من الهضبة في اتجاه حزام من أشجار الصفصاف والسرو التي تميز الوادي . ولم يبد المكان سيئاً جداً بالنسبة لي ، ولم يكن هناك مكان قريب بمثل اتساع بطن النهر الذي كنا قـد اجتزناه ، حتى اننا استطعنا رؤية الطريق الضيقة الترابيـة الصاعدة الى الهضبة المقابلة الواقعة وراءه . لكن بون كان قد بدأ يشتم ويسوق بسرعة اكبر في طريق النزول ، كأنمـا كان متحمساً ومشتاقاً كي يصل الى ذلك المكان ويشتبك معه في معركة .

وقال بون : « انظر اليه . انه بريء براءة البيضة الطازجة . يمكنك ان ترى الطريق التي وراءه كأنها تضحك منا ، وكأنها تقول : اذا استطعتم الوصول الى هنا اقتربتم من ممفيس ، لكن يجب ان تحاولوا الوصول الى هنا . »

وقال ند : « اذا كان سيئاً بهذا المقدار ، فلماذا لا ندور حوله ؟ هذا ما كنت افعله لو كنت جالساً مكانك . »

وقال بون بعنف : « ليس هناك مكان للدوران حول بطن وادي الجحيم . اذا اخذت احدى الطرق تنتهي في « الاباما » ، واذا اخذت الطريق الاخرى تسقط في نهر المسيسيبي ! »

وقال ند : « رأيت نهر المسيسيبي في ممفيس مرة . وقد شاهدت ممفيس لكنني لم اشاهد ألاباما قط . أحب ان اقوم برحلة اليها » .

فأجابه بون على الفور :

« ولم تزر بطن وادي الجحيم كذلك . عساك تعلمت شيئاً اثناء اختبائك تحت الغطاء . هل تعرف لماذا لم نر بين جفرسون وهذا المكان سوى سيارة الفورد تلك ؟ لأنـــه لا وجود للسيارات في الميسيسبي ، خلف وادي الجحيم » . فقلت :

« ولكن الآنسة بالنبو قالت إنها رأت ثلاث عشرة سيارة خلال السنتين الماضيتين ». فأجاب بون :

« اثنتان منها كانتا هذه ثم انهـا لم تعد السيارات الباقية وهي تعبر وادي الجحيم . » فضحك ند قائلاً :

« ذلك يتوقف على من يتولى السواقة ، هه، هه، هه، » .

وأوقف بون السيارة بسرعة والتفت نحو ند قائلا :

« هيا . اقفز منها . ألا تريد زيارة الالاباما ؟ حسناً أخذت خمس عشرة دقيقة حتى تنطق ! »

« هـل من الضروري أن تزجرني لأنني سأمضي النهار معك ؟ »

لكن بون لم يكن مصغياً . ولا أحسبه وجّه الكلام الى ند . كان قـــد خرج من السيارة وفتح صندوق العدّة الذي ركّبه جدي على رفراف السيارة الخلفي لحفظ البكرة وادواتها والفأس والرفش والفانوس . وأخرج هذه الأدوات ، ما عدا الفانوس ، وقذفها على المقعد الخلفي حيث يجلس ند وقال ، دون ان يوجه الكلام الى أحد : « كي لا نضيع الوقت . » ثم أقفل الصندوق وعاد الى عجلة القيادة .

لم تكن الطريق تبدو لي سيئة بعد. كانت مثل أي طريق

ريفية تعبر وادياً موحلاً . وكنا قـــد اجتزنا قسمها الجاف ، لكنها لم تصبح رطبة تماماً. ولحسن الحظ كان روّاد آخرون قد مروا قبلنا وغطوا الحفر والغياض بالأغصان ، كما كانت بعض أجزاء الطريق مرصوفة بأعمدة وضعت فوق الوحل . (أوه ، أدركت فجأة أن الطريق لم تعد رطبة) ربما كان بون مسؤولاً عن إعمار ذلك المكان الموحش المغطى بالسرو والصفصاف ، المليء بأزيز البعوض ، وباطياف السيارات المغرّزة والنـاس المتعبين وشتائمهم المتلاحقة .

وترنحت السيارة ثانية ومالت وغرّزت ، كما حصل أمس في وادي الاعاصير . وعاد بون يخلع حذاءه وجوربيه ويطوي طرفي بنطلونه . ثم قال لند : « هيا ، أخرج . » فأجاب ند دون أن يتحرك : « لا أعرف كيف ، ولم أتعـلم شيئاً عن السيارات بعد . سأعرقل عملك إن نزلت ، لذلك سأبقى هنا مع لوشيوس لأفسح لك المجال . » فقـال بون متهكماً بوحشية ولؤم : « أردت القيام برحلة ، وقد حصلت على ما أردت . الآن ، اخرج ! » فصاح ند : « لكنني في ملابس الاحد ! »

وقال بون : « وأنا كذلك . وما دمت لا اخـاف على بنطلوني فلا داعي لخوفك على بنطلونك . » فاجبت : « أنت عندك السيد موري ، أما أنا فعليّ ان اعمل لأكسب المال . وعندما تبلى ملابسي اضطر الى شراء ملابس جديدة . » فقال : « لم تشتر في حياتك قطعة واحدة . عندك معطف بذيل ، لبسه لوشيوس ماك كاسلن العجوز نفسه يوما فضلا عن

معطف الجنرال كومبسون ، ومعطف الميجر دي سبين ، ثم معطف بوص . يمكنك ان تلف طرفي بنطلونك وتخلع حذاءك هذا شأنك . ولكنك ستخرج من هذه السيارة ! »

« ليخرج لوشيوس ، انه اصغر مني سناً وأقوى نسبياً . »

« سيسوق السيارة » .

« انا اسوقها ان كان هذا ما تحتاج اليه . طوال حياتي وأنا اسوق الخيول والبغال والثيران . ولا أحسب ان تحريك هذا المقود الى اليمين واليسار اصعب من توجيه الدواب إلى اليمين واليسار بواسطة الحبل او المنخس » . ثم التفت ند إليّ وقال :

« اخرج يا بنيّ وساعد السيد بون . والافضل ان تخلع حذاءك وجواربك . » فصاح به بون محتداً : هل «تخرج ام التقطك بإحدى يدي وأنتزع هذه السيارة من تحتك باليد الأخرى ؟ »

عند ذلك نهض ند بسرعة مذعنا للأمر الواقع ، وراح يتمتم وهو يخلع معطفه وحذاءه ويرفع أطراف بنطلونه . وعندما التفتُّ نحو بون رأيته يجر عمودين وبعض الجذوع من بين الأعشاب والعليق ، فقلت له :

« ألن تستعمل البكرة والخطّاف هذه المرة ايضاً ؟ »

« طبعاً لا . عندما يحين الوقت لن نحتاج الى استئذان أحد في الأمر » .

فقلت في نفسي : « إذن هذا هو الجسر . وقد لا يكون

هناك اي جسر وهذا أدهى ما في الأمر » . وكأنما قرأ بون أفكاري فقال : « لا تقلق على الجسر . لم نبلغه بعد » .

وأنزل ند إحدى قدميه في الماء بحذر ، ثم قال : « في هذا الماء تراب . ليس اكره عليّ من دخول التراب بين أصابع قدميّ » . فقال بون : « ذلك لان الدم لم يتحرك في عروقك بعد جيداً . امسك هذا العمود . قلت إنك لا تعرف شيئاً عن السيارات . والآن هـذه هي فرصتك لكي تتعلم » . ثم قال لي :

« دعها تسير الى الامام الآن ، وحالما تتوقف عن الانزلاق تابع السير بها . » وهذا ما حصل . وقام بون وند بوضع الأعمدة تحت محور العجلات الخلفية ورفعاها ، ثم دفعاها الى الامام مسافة قصيرة الى ان بدت عجلاتهـا تدور ، في حين غمرهما الوحل المتطاير من تحت العجلات الخلفية ، وكأنما رُشا بإحدى آلات رش الدهان .

ثم رأيت الجسر . وصعدنا فوق أرض جافة نسبياً ، وكان على بون وند اللذين لم يعد من الممكن تمييزهما مما عليهما من الوحل – كان عليهما ان يركضا وهما يحملان العمودين ، ولم يستطيعا اللحاق بالسيارة. وظل بون يصرخ لاهثاً : « استمر تابع السير ! » وتابعت الى ان رأيت الجسر على بعد مئة ياردة ثم رأيت ما كان يفصلنا عن الجسر ، حينئذ ادركت ما كان يعنيه بون ، فأوقفت السيارة .

لم تتغير الطريق التي أمامنا بقدر ما تغيرت عناصرها ،

فاصبحت أشبه بوعاء كبير مليء بالقهوة الممزوجة بالحليب ، وقدبرزت فيها هنا وهناك أطراف قضبان وشجيرات وجذوع مهملة لا فائدة منها ، وعلت في انحائها اكوام من التراب بدت كأنما جرفت وكومت عمداً بالمحراث . ثم رأيت شيئاً آخر ، وفهمت مـا قاله بون عن بطن وادي الجحيم ، منذ اكثر من سنة ، وما ظل يكرره بنوع من الذهول المزعج المقلق ، منذ ان غادرنا جفرسون . ثم رأيت بغلين مربوطين الى شجرة بجانب الطريق (القناة) مجهزين بعدة الحراثة ، وقد اسند إلى شجرة اخرى قريبة محراث مزدوج كبير مجهز بسكة كبيرة . وكان الوحل يغلف هذه الادوات جميعاً . وكان خلف ذلـك المكان مباشرة مسكن جديد ، غير مدهون ، مؤلف من غرفتين ، وعلى شرفته رجـل حافي القدمين تتدلى حمّالات سرواله على وسطه ، بينما كان حذاؤه الغليظ (المغطى بالوحل ايضاً) يرتكز الى الجـدار قرب الكرسي . وعرفت ان بون اضطر ، هو والسيد ووردوين ، في هـذا المكان لا في وادي العواصف ، وذلك في السنة الماضية ، الى استعارة المجرفة التي نسي السيد ووردوين ان يعيدها .

ورأى ند ايضاً ما رأيته . وكان قد ألقى نظرة الى حفرة الوحل ، والتفت الى البغلين المجهزين بالعدة ، الواقفين هنـاك يطردان البعوض بذيليهما ، وكأنهما بانتظارنا . ثم تمتم قائلا : « شيء ملائم ! »

فقال له بون بحدة : « اخرس . لا تفه بكلمة . لا تحدث

صوتاً .» كان يتكلم بغضب مكتوم . ثم أسند العمود الموحل الى السيارة وأخرج البكرة وادواتها والسلك الشائك والفأس والرفش وهو يردد : « يا ابن الكلبة »، ثم قال لي : « وانت ايضاً . »

« انا ؟ » وقال ند :

« انظر الى البغلين والسلسلة المتصلة بالعمود الرئيسي» فقال بون بلهجة حادة ، ولكن بصوت منخفض :

« ألم تسمعني أقول لك اسكت ؟ »

— « عجباً ، ترى ، لماذا يريد ذلك الحراث المزدوج ؟ وهو مغطى بالوحل حتى المقبض ايضاً . كما لو كان ... أتعني انه يأتي الى هنا مع ذينك البغلين ويحرث هذا المكان كما لو كان مزرعة ، لمجرد ابقائه مستنقعاً ؟ » وكان بون يحمل الرفش والفأس والبكرة وادواتها بين يديه. ظننت للحظة انه سيقذف ند باحداها او ربما بها كلها . فقلت له بسرعة :

« هل تريدني » ؟

« نعم ، الموقف يحتاج الى تعاوننا جميعاً . لقد واجهت انا والسيد ووردوين، مشكلة بسيطة معه هنا في السنة الماضية. علينا ان نعبر هذه المرة » .

فقال ند : « ما هو المبلغ الذي اضطررتم الى دفعه له في السنة الماضية كي يحرّكم من الوحل ؟ »

« دولاران . فخير لك ان تخلع بنطلونك كله وتخلع قميصك ايضاً . »

« دولاران ؟ هذا المتسكع اللعين . سأطلب من بوص ان يجيء لي حفرة مماثلة . »

« حسناً ، يمكنك ان تتعلم كيف ، في هذه الرحلة » .

قال ذلك وأعطى ند البكرة وأدواتها وقطعة السلك الشائك قائلا : « خذها الى هناك ، الى تلك الصفصافة ، الصفصافة الكبيرة ، واربطها بها جيداً . »

وارخى ند الحبل من البكرة وحملها الى الشجرة .وخلعت بنطلوني وحذائي ونزلت الى الوحل فبدا لطيفاً بارداً . ربما بدا كذلك لبون ايضاً . وربما كان لند مجرد انعتاق ، مجرد تحرر من اضاعة الوقت في تجنب التلوث بالوحل . على اية حال ، تجاهل الوحل وهو يقرفص فيه ويشتم بهدوء وحزم بينما كان يعقد قطعة السلك الأخرى على مقدم السيارة ليشبك بها الخطاف . ثم قال لي : « خذ ،ستقوم بجر بعض من تلك الشجيرات الموجودة هناك » وكأنما أدرك ما يدور في فكري فأجاب : « انا ايضاً لا ادري من اين اتت . ربما كومها هناك بنفسه ليجعلها في متناول الناس ، فيعرفوا كم هو يستحق الدولارين » .

وهكذا قمت بجر الشجيرات ، ثم وضعتها في الوحل امام السيارة ، بينما وضع بون وند طرف الحبل في خطاف البكرة واستعدا . ثم وقفت ، انا وند ، عند طرف الحبل المربوط بخطاف البكرة ، ووقف بون عند مؤخرة السيارة حاملاً العمود وقال لنا : « العمل الهيّن لكما . كل ما عليكما ان

تفعلاه هو ان تمسكا بهذا العمود جيداً عندمـا ادفع السيارة .
حسناً ، هيا بنا » .

كان هناك شيء يشبه الحلم . لم يكن مثل الكابوس ، بل مثل الحلم – إنه ذلك التركيب الساكن ، الهادىء ، النائي ، الادغالي ، الفطري تقريباً ، للطين والوحل والنباتات البرية والحرارة . وكان البغلان اللذان يضربان الهوام والحشرات المتناهية في الصغر التي لا تعد ولا تحصى ، يلائمان ذلك الجو الحقيقي الذي كنا نتحرك فيه ونتنفس، وذلك بشكل عجيب إذ كانا في حد ذاتهما نهاية بيولوجية عقيمة ، وبالتـالي زائلة قبل ان تولد . ثم هنالك السيارة ، هذه اللعبة الميكانيكية التي تعادل في قوتها عشرات الخيول والتي وقفت عاجزة عديمة الحيلة في قبضة بضع بوصات من مزيج مؤقت لعنصرين لطيفين مسالمين – التراب والماء – فضلاً عن اننا وقفنا ثلاثتنا ، ثلاثة مخلوقات متشابهة متباعدة ، هنا وهناك ، يغطيها الوحل حتى لا يمكن تمييزها ، تصارع هذين العنصرين صراع المستميت . وكنا نتقدّم بوصة بوصة – هذا إذا تقدمنا . وكان الرجل في أثناء ذلك يجلس على كرسيه المقشش يراقبنا من شرفته ، بينما كنا ، انا وند ، نجهد لسحب كل بوصة نتمكن من سحبها على الحبل الذي صيّره الوحل زلقاً حتى صار من الصعب القبض عليه بالايدي . وكان بون خلف السيارة يجاهد كمارد جبار ، يثبت العمود تحت السيارة ، ويرفعها ويدفعهـا الى الامام . وسقط مرة فرمى العمود وامسك السيارة بيديه ودفعهـا الى

الأمام مسافة قدم او قدمين كأنهـــا عربة يد . ولم يكن باستطاعة أي رجل ان يتحمل ذلك . وهو يجب ألا يتحمل ذلك . هذا ما قلته في النهـــاية . ثم توقفت عن السحب وقلت وأنا ألهث : « كلا . لا نستطيع القيام بهذا ، لا نستطيع . » فقال بون بصوت يتلاشى ؛ ضعفاً ورقة ، مثل همسة الحب :

« اذن ابتعدا من الطريق والا جعلتها تسير فوقكما . »

« كلا . »

وتعثرت وزلّت قـدمي وغصت في الوحل ، ثم تطلعت اليه وقلت مكرراً : « كلا ، ستقتل نفسك . »

« لست تعباً . الآن بدأت جهودي تثمر . لكن يمكنكما، انت وند ، ان تساريحا . وفي هذه الاثناء أرى ان تقوما بجر كمية اخرى من تلك الشجيرات . »

« كلا ، كلا . ها قد اتى ! أتريده ان يراها ؟ » ذلك لاننا كنا نستطيع ان نراه ، نسمع وقع حوافر البغلين وهما يسيران على حافة حفرة الوحل ، ونسمع خشخشة السلاسل المقرودة ، وكان الرجل يعتلي أحد البغلين ويقود الآخر وقد ربط حذاءه الى احد الخطافات ، يتقدمه عمود المحراث كأنه أحد صيادي الجاموس البري القدماء الذين تمثلهم الصور وهم يحملون مسدساتهم . كان رجلاً ضئيل الجسم ، لكنه ، مع ذلك ، كان أكبر منا – أو مني أنا على الأقل . وحين وصل حيّانا قائلا :

« صباح الخير يا شباب . يبدو أنكم أوشكتم أن تحتاجوا اليّ . » ثم قال لبون « مرحبـــا يا جفرسون . يظهر انك تمكنت من العبور في الصيف الماضي . »

« يبدو كذلك . »

قالها بون وقد تغيّر الحال تغيّراً كلياً ، كلاعب « بوكر » رأى ورقة الاثنين الثانية تعطى للاعب في الجهة المقابلة . ثم أردف : « كنا سنتمكن من العبور هــذه المرة ايضاً ، لو لم تضعوا كمية كبيرة من الوحل هنا . »

« لا تلقي تبعة ذلك علينا . الوحل من افضل محاصيلنا في هذه الجهات . »

فقال ند : « يجب ان يكون المحصول الأفضل ، ما دمتم تحصلون على دولارين مقابل عبور كل حفرة . » فرمقه الرجل لحظة ثم قال :

« ربما كنت على حق . خـــذ هذا العمود ، يظهر انك تعرف كيف تربطه الى البغل » . فقــال بون: «انزل وافعل ذلك بنفسك ، وإلا لمــاذا ندفع لك دولارين ؟ لن نستأجرك كخبير . فعلت ذلك في السنة الماضية » .

« ذلك كان في السنة الماضية . اصبت حينئذ بالروماتيزم بسبب نزولي في الماء لشبك السلاسل ، فانهارت قوتي » .

لذلك لم يحرك ساكنــا ، ولم يفعل سوى احضار البغلين وإيقافهما جنباً الى جنب ، بينما قام بون وند بربط السلاسل إلى عمود المحراث ، ثم قرفص بون في الوحل ليثبت السلسلة

الى السيارة . ثم سأل الرجل :

— « اين تريدني ان اشبكها ؟ »

— « هذا لا يعنيني . اشبكها بأي جزء من السيارة تريد اخراجه من حفرة الوحل هذه . لكن اذا اردت ان تخرجها كلها معاً ، اشبكها بمحور العجل. ولو انني مكانك ، لأعدت جميع الرفوس والحبال الى السيارة لاننا لن نحتاج إليها . »

فجمعنا أنا وند ، بينما قام بون بشبك السيارة . وقفنا نحن الثلاثة جانباً وراقبنا الرجل وهو يعمل. كان خبيراً بعمله، لكن البغلين ايضاً أصبحا خبيرين. كانا يشدان العمود الرئيسي بتوازن اشبه بتوازن بهلوان يسير على الحبال . لقد قاما بتخليص السيارة وجرها دون ان يحتاجا الى أكثر من كلمة بين الحين والآخر ، ولمسة طفيفة بالسوط ، وأخيراً اوصلاها الى أرض كان التراب فيها اكثر من الماء . فقال بون :

« حسناً يا ند ، فكّها . » فقال الرجل :

« انتظر قليلاً . هناك حفرة اخرى في هذا الجانب من الجسر . سأدعكم تعبرونها مجاناً . لقد مضى على معرفتك بهذا المكان سنة كاملة . » ثم قال لند : « هذا ما نسميه هنا بالرقعة الاحتياطية . » فاردف ند قائلاً : « تعني عمود عيد الميلاد ؟ »

— « ربما كنت أعني ذلك . لكن ما هو ؟ »

— هكذا كنا نفعل في ما كاسلن ، قبل الاستسلام في المعركة ، عندما كان لوشيوس كونيتوس حياً ، وما زال ابن

ادموندس يفعـل ذلك . في كل ربيع يوضع العمود في أجود نقطة في الحقل ، وكل نبتة قطن تقع بين ذلك العمود وطرف الحقــل يذهب ثمنها الى صندوق عيد الميلاد ، ولا يأخذ صاحب المزرعة أية حصة منه ، بل يوزعها على زنوج ماكاسلن في عيد الميلاد . هذا هو عمود عيد الميلاد. وأرجح أنكم أنتم، مزارعي الوحل هنا ، لم تسمعوا به . » فنظر الرجل الى ند لحظة . عندئذ قال ند : « هه ، هه ، هه » . فقال الرجل : « هذا أفضل ظننت لحظة أننا أوشكنا أن نسيء فهم بعضنا بعضاً . » ثم قال لبون : « الأفضل أن يقوم أحدكم بقيادتها. » فقلت : « لا بأس . » فقال « هيا . » وهكذا جلست خلف المقود بما عليّ من وحل وغيره .

وقبل ان نتحرك قال الرجل : « نسيت ان اذكر لك امراً . تضاعفت اسعارنا عما كانت عليه في السنة الماضية . » فقال بون : « لماذا ؟ السيارة هي ذاتها ، وحفرة الوحل هي ذاتها . ولا أشك أبداً في ان الوحل مـا يزال هو ذاته » . فأجابه الرجل :

« كان هذا في السنة الماضية . لكن العمل ازداد الآن : ازداد الى درجة ارغمتني على رفع الاسعار » .

« حسناً . لعنك الله .هيا بنا» .

وهكذا تحركنا ، ومشينا بسرعة البغلين ، الى ان دخلنا حفرة الوحل التالية ، وخرجنا منها دون ان نتوقف . كان الجسر أمامنا . وخلفه كنا نستطيع رؤية الطريق وبدايـــة

الأمان . فقال الرجل : « اصبحتم في أمــان الآن ، الى ان تعودوا . » فقال بون : « لن نعود من هذه الطريق » . فقال الرجل : « لو انني مكانكم ، لما عدت ايضا . »

وفك بون السلسلة واتجه الى اقرب بركة ماء وغسل الوحل عن يديه ثم عاد واخرج اربعة دولارات من محفظته . لكن الرجل لم يتحرك . بل قال :

« ستة دولارات . »

« دفعنا دولارين في السنة الماضية . قلت ان السعر تضاعف الآن . ضعف الاثنين اربعة . هذه اربعة دولارات . »

« كنت آخذ دولاراً عن كل راكب . كنتما اثنين في السنة الماضية ، فأخذت دولارين . تضاعف السعر الآن ، وأنتم ثلاثة . فتكون الاجرة ستة دولارات . ربمــا كنت تفضل العودة الى جفرسون ماشيا على ان تدفع دولارين . لكن ربما لا يرغب بذلك هذا الصبي وذلك الزنجي ! »

« لنفترض انني لن ادفع لك ستة دولارات ، بل لنفترض انني لن ادفع لك شيئا البتة ؟ » فاجاب الرجل :

« يمكنك ان تفعل ذلك . صحيح ان البغلين قد تعبا ، لكن ما زالت لديها القدرة على سحب ذلك الشيء وإعادته الى حفرة الوحل الاولى . »

لكن بون كان قد اذعن للأمر الواقع . مع ذلك قال :

« مـــا هذا الصبي سوى طفل !. ليس اكثر مـــن طفل صغير . »

ـ « قد تكون العودة الى جفرسون سيراً على الاقدام أخف عليه ، لكنها لن تكون اقصر . »

« ولكن انظر الى الشخص الآخر ! عندما يغسل الوحل عنه لن يصير ابيض ؟ »

« يا بني ، هذا البغلان .مصابان بعمي الألوان! »



الفَصْل الخامِسْ

كان بون قد اخبرنا ، أنا وند ، أننا حالما نقهر بطن وادي الجحيم ندخل العالم المتمدن . وصور لنـــا أن الطرق تمتلىء بالسيارات ابتداء من ذلك المكان. ربما كان ضرورياً أن نبتعد أولا عن وادي الجحيم بعـدنا عن المطهر ، أو حتى يغيب عن أنظارنا على الأقل . مع ذلك كان علينا ان نتخلص من وحل وادي الجحيم قبل أن نصبح جديرين بالمدنية . على أية حال ، لم يكن قد حدث شيء بعد . أخـذ الرجل دولاراته الستة ، وذهب مع بغليه . ولاحظت أنه لم يعد إلى ذلك البيت ، بل مضى عبر المستنقع واختفى كأنما قـد انتهى النهار . ولاحظ ند ذلك ايضاً وقال : « ليس طماعاً ، ولا هو بحاجة الى ان يكون. لقد كسب ستة دولارات ولم يحن بعد موعد الغداء.»

فقال بون : « لقد حان بالنسبة لي . أحضر الغداء . »

هكذا أخذنا صندوق الطعام الذي كانت الآنسة بالنبو قد أعدّته لنا ، كما أخذنا البكرة والفأس والجرفة واحذيتنا وجواربنا وبنطلوني وعدنا الى الوادي وغسلنا الأدوات . (لم نكن نستطيع ان نعمل شيئاً للسيارة قبـــل ان نصل الى ممفيس ، حيث لا وجود لحفر الوحل - او هكذا تصورنا) ولم يكن هناك ما نستطيع عمله بشأن ثياب بون وند ، مع ان بون غطس في المـــاء دون ان يخلع ملابسه ، ثم حاول ان يقنع ند بالاقتداء به . فقد كان بون يحمل ملابس إضافية لكن ند اكتفى بخلع قميصه وارتداء معطفه . اظنني أخبرتك عن حقيبته التي لم يكن يحملها بقدر مـــا كان يلبسها ، كما يلبس الدبلوماسيون حقائبهم ،والتي يضع فيها انجيله ومقدار ملعقتين من أجود أنواع الوسكي عند جدي .

وتناولنا طعام الغداء . كان يتألف من لحم الخنزير والدجاج المحمّر والبسكوت ومربى الاجاص ، وابريق من اللبن المخيض ثم اعدنا أدوات مكافحة الوحل (التي اتضح في النهاية أنهـــا لم تكن للمكافحة بل للتباهي) . ثم قسنا كمية البنزين في الخزان ، وتابعنا سفرنا . كان الامر قد قضي فعلا . لم نندم ولم نقل يا ليت أو لعل . وعندما تغلبنا على وادي الجحيم اغلقنا البوابة وأحرقنا الجسور خلفنا . وقد بدا اننا كن كسب مهلة قبل تنفيذ العقاب مكافأة على تصميمنا الذي لا يقهر ، وعلى رفضنا الاعتراف بالهزيمة . او ربما كانت الفضيلة نفسـهاهي التي استسلمت وتخلت عنا الى اللافضيلة ترعانا وتدللنا كما نستحق

بعد ان قايضنا ارواحنا مقايضة لا رجوع عنها الآن .

بدأ ان الأرض نفسها قد تغيّرت . المزارع صارت اكبر وأكثر ازدهاراً ، وسياجاتها اكثر إحكاماً . وكانت تتخللها بيوت مدهونة وزرائب . وكان الهواء نفسه هواء مدن . وأخيراً وصلنا الى طريق رئيسية عريضة تمتد بشكل مستقيم الى مسافة بعيدة ، وعليها آثار عجلات كثيرة . فقال بون بنوع من الاعتزاز ، وكأننا كنا نشك في كلامه ، او كأنما هو الذي فتح الطريق ومهدها بيديه (بل كأنه هو الذي اضاف آثار العجلات اليها): «ماذا قلت لكما ؟ هذه هي الطريق الى ممفيس» .

كانت أمامنا سحابة غبار تسرع متوعدة . لم يكن هناك شك بأنها الطريق . ولم يدهشنا وجود السيارات عليها . كنا نمر ببعضنا بعضا ، جامعين غبارنا في سحابة واحدة هائلة تشبه العمود ، أو كأنها لوحة إعلانات رفعت لتغطي الارض بنموذج عن المستقبل : الحركة الدائبة جيئة وذهابا ، ذلك المصير الآلي الدائم الحركة الذي لا مفر لأميركا منه .

كان لوننا قد أصبح رماديا من رأسنا الى اخمص قدمينا بسبب الغبار (خاصة ملابس بون التي كانت ما تزال مبتلة). وخرج بون من السيارة ، دون أن يطفىء المحرك ، ودار حولها برشاقة واقترب مني قائلا : «انتقل الى الجانب الآخر . انت تعرف كيف تسوق قاطرة سكة حديد تسير بسرعة أربعين ميلاً في الساعة .»

وهكذا قدت السيارة في عصر يوم مشمس من ايام ايار . ولم أكن أستطيع التطلع حولي ، فقد كنت مأخوذاً بكليتي ، أركز انتباهي على شيء واحد (حسناً ، كنت منفعلا جداً ، ومزهواً) كان عصر يوم احد ، القطن والذرة ينموان دون إزعاج العمال ، والبغال نفسهـا كانت بلا عمل تستريح في المراعي ، والناس ما يزالون في ملابس الأحد على الشرفات وفي الساحات الظليلة . وأمامهم أقداح الليموناده أو صحون البوظة التي تركت هناك منذ الغداء . وزدت السرعة من جديد . وكنا نقترب من المدن فقال بون : « إننا نقترب من بعض المدن . الأفضل ان اتولى القيادة . »

وتابعنا طريقنا . أصبحت مظـاهر المدنية موجودة باستمرار : كانت هناك مخازن ريفية منفردة أو قرى صغيرة على مفارق الطرق ، ما تكاد تغيب الواحدة منها حتى تطل الأخرى . وكانت التجارة منتشرة حولنا ، والهواء هواء مدن فعلا . وكان للغبار نفسه الذي أثرناه وجلبناه معنا طعم المدن ورائحتهـا ، حتى الكلاب والأطفال لم يركضوا نحو السياجات والأبواب ليراقبونا ويراقبوا السيارات الثلاث التي مررنا بها في الثلاثة عشر ميلا الأخيرة .

ثم انتهى الريف . لم تعد هناك مسافات بين البيوت والدكاكين والمخازن . وفجأة وجدنا انفسنا في بولفار عريض غرست على جانبيه الاشجار بشكل مرتب ، في وسطه طريق السيارات . ثم كانت هناك الحافلة الكهربائية ، وكان سائقها

ومساعده يقومان بتغيير وجهتها للعودة بها الى الشارع الرئيسي.
وفجأة قال بون : « قبل ثلاث وعشرين ساعة ونصف كنا في جفرسون ميسيسيبي على بعد ثمانين ميلا. هذا رقم قياسي. »

وكنت قد جئت الى ممفيس قبلا (وكذلك ند . هذا ما قاله لنا هذا الصباح . وسيثبت ذلك بعد ثلاثين دقيقة) . ولكننا كنا نذهب إليها بالقطار ، ولم أرها هكذا قط : تنمو وتكبر وتبدو لي كملعقة بوظة تتلاشى في الفم . كنت أحسب اننا سنذهب الى فندق جايوسو كما كنا نفعل دائماً (اما على الاقل) . ولا اعرف افكار من قرأ بون هذه المرة ، فقال : « سنذهب الى نزل اعرفه وسيعجبك . وصلتني رسالة في الاسبوع الماضي من إحدى إلب.. السيدات المقيمات هناك تقول فيها ان ابن أخيها يقوم بزيارتها الآن . وهكذا تجد من يشاركك اللعب . وسيجد الطباخ لند مكاناً ينام فيه » .

فقال ند : هه ، هه ، هه .

وكانت هناك الى جانب الحافلات الكهربائية عربات من جميع الانواع . وكانت الخيول تنظر إلينا شزراً، لكنها ظلت محتفظة برصانتها ، مما دلنا على ان خيول ممفيس كانت معتادة على السيارات . وهكذا لم يستطع بون ان يدير رأسه لينظر الى ند ويستفهمه ، لكنه تمكن من النظر اليه بعين واحدة وقال له :

« ماذا تعني بهذا ؟ »

«لا شيء . انتبه الى طريقك ولا تهتم بي لا تهتم بي مطلقاً. أنا ايضاً لي اصدقاء هنا . اخبرني فقط اين ستكون هذه السيارة صباح الغد وساحضر الى هناك ايضاً » . فاجابه بون:
« خير لك ان تكون هناك . هذا اذا كنت تنوي العودة فيها الى جفرسون . لم يدعك أحدنا الى هذه الرحلة ، لذلك لسنا مسؤولين عنك . ولا يهمني إطلاقاً، أعدت الىجفرسون ام لم تعد » .
« عندما نعيد هذه السيارة الى جفرسون وتلتقي أعيننا بعيني بوص بريست والسيد مورين لن يكون لدى أيٍّ منا الوقت كي يهتم بمن عاد ومن لم يعد . »
على ان وقت الخوض في هذا الموضوع كان قد فات . لذلك قال بون : « حسناً ، حسناً . كل ما قلته هو أنك اذ كنت تريد العودة الى جفرسون ، فخير لك ان تكون حيث أراك عندما اتأهب للعودة » .
وكنا نقترب من الشارع الرئيسي حيث البنايات المرتفعة والمخازن والفنادق : جاستون (زال الآن) وبيبودي (نقل منذ ذلك الحين) ثم جايوسو ، وهو فندق كنا نحن ، آل ماك كاسلن وادموندس و بريست ، نقدره كثيراً ونعتبره مزاراً عائلياً ، لاناابن عمنا البعيد،تيوفيلوس ماك كاسلن ،كان أحد افراد فرقة الخيالة التي تقول الاسطورة ان اخا الجنرال فورست قادها على ظهر الخيول الى ردهة هذا الفندق وكاد يعتقل جنرالاً شمالياً . لكننا لم نصل الى هناك . فقد انعطف

بون الى شارع جانبي اقرب ما يكون الى زقـــاق خلفي . كانت تحتل زاويته حانتان ، وعلى جانبه بيوت ليست بالقديمة ولا بالجديدة . كان كل شيء هادئاً هدوء جفرسون عصر يوم أحد . الحقيقة ان بون أشار الى ذلك حين قال :

« كان يجب ان تراها ليلة امس . يجب ان تراها في مساء يوم سبت ، أو في إحدى ليالي الإسبوع ، عندما يكون في المدينة مؤتمر لرجال الاطفاء او الشرطة ، او لأعضاء جمعية إلك او غيرها ». فقلت :

« لعل الجميع ذهبوا لحضور صلاة المساء » .

« كلا . لا اظن ذلك . الارجح انهم يستريحون » .

« يستريحون من اي شيء ؟ » فقال ند وهو في المقعد الخلفي :

« هه ، هه ، هه . »

وكان واضحاً اننا عرفنا ان ند جاء الى ممفيس قبلا ، لكن جدي نفسه لم يكن يعرف عدد زياراته . وكما تعلم ، لم يكن لي من العمر اكثر من احدى عشرة سنة . كان الشارع امامنا خالياً فأدار بون رأسه نحو ند وقال : « إذا تلفظت بكلمة اخرى ... » فقاطعه ند قائلا : « أية كلمة اخرى ؟ كل ما طلبته هو ان تدلني على المكان الذي ستكون السيارة فيه صباح الغد ، حتى اكون جالساً فيها عندما نرحل . »

وهذا ما فعله بون . كنا قد وصلنا الى المكان . كان بيتاً يقوم وسط ساحة صغيرة خالية من العشب ، واوقف بون

السيارة عند المنعطف . وصار بإمكانه ان يدور وينظر الى ند ليقول له : « حسناً سآخذ بقولك ، وخير لك ان تأخذ بقولي . دعنا نلتقي عندما تدق الساعة الثامنة صباح الغد . اعني عند الدقة الاولى لا الاخيرة ، لانني لن اكون هنا لأسمعها . »

وخرج ند من السيارة يحمل حقيبته وقميصه المغطى بالوحل وهو يقول : « ألا تكفيك متاعبك حتى تهتم بمتاعبي ؟ ما دمت تستطيع انهاء اعمالك في الثامنة من صباح الغد ، فلماذا تظنني لا استطيع ذلك ؟ » ومضى في طريقه دون ان يلتفت الى الوراء قائلا :«هه ، هه ، هه .»

ومد بون يده الى مؤخرة السيارة وتناول حقيبته . ثم تذكر شيئاً آخر . فسحب مفتاح السيارة ووضعه في جيبه وحمل الحقيبة . ثم عاد واخرج المفتاح من جيبه وقال لي : « خذ ، احتفظ به انت . قد اضعه في مكان ما واضيّعه . خبّئه جيداً كي لا يسقط . اربطه بطرف منديلك » .

وأخذت المفتاح ، بينما انحنى هو لحمل حقيبته ، ثم توقفت ثانية والتفت بسرعة نحو البنسيون ، ثم اخرج محفظته من جيبه الخلفي وفتحها وأخرج ورقة من فئة الدولار ثم اغلق المحفظة وناولني إياها قائلا :«احتفظ بهذه ايضاً . قد أنساها في مكان ما . عندما نحتاج الى نقود سأطلبها منك . »

ولم اكن قد دخلت بنسيوناً من قبل ، ولاتنس انني

كنت في الحادية عشرة فقط . هكذا وضعت المحفظة في جيبي وعبرنا البوابة ومررنا في الممر حتى بلغنا الباب الامامي . ولم يكد بون يلمس الجرس حتى سمعنا وقع اقدام في الداخل فقال لي بسرعة « ماذا قلت لك ؟ ربما كانوا جميعاً يسترقون النظر إلى السيارة من خلف ستائر النوافذ ».

وفتحت الباب صبية زنجية . لكن قبل أن تتلفظ بكلمة دفعتها امرأة بيضاء جانباً . هذه أيضاً كانت صبية ذات وجه صارم جميل ، وشعر شديد الاحمرار ، تضع في أذنيها ماستين يضرب لونها إلى الصفرة . ولم أر في حياتي أكبر منها .فقالت لبون على الفور : « عليك اللعنة . حالما تسلمت كوري برقيتك ، قلت لها أن تبرق لك فوراً وتطلب منك عدم إحضار الصبي . عندي واحد في البيت ، مضى على مجيئه اسبوع . شيطان واحد يكفي أي بيت أو شارع ، بل يكفي ممفيس كلها ، هذا اذا كان من نوع الصبي الذي عندنا .ولا تكذب فتدعي أنك لم تتسلم البرقية » . فقال بون : « لم أتسلمها . لا بد أننا غادرنا جفرسون قبل أن تصل . ماذا تريدينني أن أفعل به ؟»

فقالت : « تفضلا بالدخول» . وابتعدت عن الباب لتفسح لنا طريقاً . وحالما دخلنا أقفلت الخادمة الباب . ولم افهم السبب آنذاك ، ربما كانت تلك من عادة اهل ممفيس حتى أثناء وجودهم في البيت . كانت القاعة مثل أية قاعة أخرى فيها درج يؤدي الى الطابق الثاني . إلا انني حالما دخلت شممت

شيئاً . كانت الرائحة تعم البيت كله . ولم اكن قد شممتها من قبل . ولم أنفر منها ، بل دهشت – اعني انني حالما شممتها بدت كرائحة كنت طوال حياتي انتظر انّ اشمها . اظن ان الأمر يختلط عليك عندما تقع ، دون سابق إنذار ، في تجربة قد تقضي حياتك دون ان تصادفها ثانية . لكن بالنسبة الى تجربة لا مفر منها ، لا يليق بالظروف ، او القدر ، ألا تعدك لها أولا، لا سيما ان الاعداد بسيط بساطة ابن الخامسة عشرة. كان هذا نوع تلك الرائحة . وكانت المرأة ما تزال تتكلم ، فقالت : « تعلم ان السيد بنفورد لا يوافق على استعمال البيوت كأماكن لقضاء إجازات الاولاد . سمعته في الصيف الماضي عندما أحضرت كوري ، ذلك الصغير الملعون .فالسيد بنفورد يقول انهم سيأتون إلى هنا عما قريب ، فلا تستعجلوهم قبل أن يصبح لديهم مال ، ويصبحوا قادرين على صرفه » .

وكنا قد وصلنا إلى غرفة الطعام ، والمرأة ما تزال تتكلم وتقول : «ما اسمه؟»

«لوشيوس . قدّم احترامك الى الآنسة ريبا ».

ففعلت كما أفعل دائماً . ربما بالطريقة التي تعلمها جدي من أمه ، وعلمتها جدتي لوالدي ، وعلمتني إياها أمي . وهي ما يدعوها ند الانحناء وثني الركبة .

وعندما انتصبت واقفاً كانت الآنسة ريبا تراقبني وفي عينيها نظرة غريبة . وقالت : « يا للعجب ! ميني ، هل رأيت هذا ؟ هل الآنسة كوري ... » فأجابت الخادمة :

« إنها تلبس ثيابها » حينذاك رأيتها ، أعني سنّ ميني .
كانت لها أسنان كحجارة المرمر ، صغيرة متناسقة تتناسب مع لون وجهها البني كالشوكولاته ولكن كان عندها شيء آخر.
كانت سنها الأمامية العلوية التي الى جهة اليمين من ذهب .
كانت تتربع كملكة بين الأسنان البيضاء الاخرى ، وكانت تشع وتتلألأ كأن فيها ناراً داخلية ، أو اشعاعاً غير إشعاع الذهب ، حتى ان تلك السن الذهبية بدت وحدها أكبر من ماستي الآنسة ريبا مجتمعتين – (علمت فيما بعد أنها انتزعت هذه السن الذهبية ووضعت مكانها سناً بيضاء عادية كبقية الناس ، فحزنت لذلك . وقد فكرت آنذاك ، لو أنني كنت من جنسها ومن عمرها ، لرغبت في أن أكون زوجها لمجرد رؤية تلك السن يومياً . وقد بدا لي أن طعم الأكل الذي تمضغه لا بد أن يكون مختلفاً ، إذ يصبح أطيب) .

والتفتت الآنسة ريبا الى بون ثانية وقالت له : « ماذا كنت تفعل ؟ تصارع الخنازير ؟ » فقال : « سقطنا في حفرة وحل أثناء الطريق ثم خرجنا منها . السيارة امام البيت الآن » .

« رأيتها . كلنا رأيناها . ولكن لا تزعم انها ملكك .
وإذا كان رجال الشرطة يتبعونها ، ابعدها عن بابي . السيد منفورد لا يرغب في مجيء الشرطة إلى هنا . وأنا كذلك »

« لا تخافي ، لا بأس على السيارة ».

« الأفضل ان تكون كذلك . ليتك اتيت الى هنا من

قبل. السيد بنفورد يحب الأطفال . ويظل يحبهم حتى بعد ان يبدأ بالشك . في الاسبوع الماضي ، كان مـا يزال مستعداً ان يثق « بأوتيس » ويأخذه الى حديقة الحيوانات بعد الغداء ».
ثم قالت « لميني » : « اصعدي الى فوق وقولي للجميـع ألا يشغلوا الحمام خلال نصف الساعة القادمة » . وقالت لبون : « هل تحمل معك ملابس للتبديل ؟ »

« نعم . »

« إذن اغتسل وألبسها ، هذا مكان محترم . ليس حانة قذرة . دعيها يستعملان غرفة فيرا يا ميني .فيرا ذهبت لزيارة اهلها » .

ثم قالت لبون : « ميني أعدّت لأوتيس سريراً في العليّة يمكن للوشيوس ان ينام معه الليلة . »

وسمعنا وقع اقدام تهبط الدرج ، وتجتاز القاعة ثم تدخل من الباب . واطلت فتاة ضخمة ، لم تكن بدينة بل ضخمة ، كما كان بون ضخماً . لكنها كانت فتاة صغيرة السن . شعرهـا أسود وعيناها زرقاوان . وحسبت في البداية ان وجهها عادي لكنها دخلت الغرفة وهي تنظر اليّ وعرفت ان شكل وجهها لم يعد يهم . فقال لها بون : « مرحبا يا صغيرتي . » لكنها لم تلتفت إليه . كانت تنظر إلي . فقالت لها الآنسة ريبـا : « انتبهي الآن . هـــذه هي الآنسة كوري ، يالوشيوس » . فانحنيت وقدمت احترامي ثانية . حينئذ قالت الآنسة ريبا: « أترين ما أعني ؟ احضرت ابن اخيك الى هنـا ليتعلم

التهذيب . هـــا هو التهذيب بانتظاره . لكنه لن يفهم لماذا يتصرف هكذا . ولكن لوشيوس قد يستطيع ان يعلمه التقليد على الاقل » . ثم قالت لبون : « اذهبا واغتسلا . » فقـال بون ، وهو يمسك بيد كوري : « هل يمكن ان تأتي كوري لمساعدتنا ؟» ثم قال لها ثانية : « مرحبا يا صغيرتي . » فقالت الآ نسة ريبا : « لا اريدك ان تبدو كجرذ من جرذان البيوت الحقيرة . سأبقي هذا المكان محترماً يوم الاحد . »

وقادتنا ميني الى الغرفة والحمام في الطابق العلوي وأعطت كلا منا صابوناً ومنشفة وخرجت . ووضع بون حقيبتـــه على السرير ، وفتحها وأخرج قميصاً نظيفاً وبنطلونـــاً . وقال لي :

« أرأيت ؟ قلت لك هذا . بذلت جهدي كي أجعلــك تحضر قميصاً نظيفاً على الأقل » .

« قميصي ليس ملطخاً بالوحل » .

« لكن يجب أن تبدل قميصك بعد الاستحمام» .

« لن أستحم . استحممت البارحة » .

« وأنا كذلك . لكنك سمعت ما قالته الآنسة ريبـا . ألم تسمعها ؟»

« سمعتهـــا . لم أر سيدة لا تحاول أن ترغم النـاس على الاستحمام » .

« عندما تعرف الآنسة ريبا اكثر ، ستكتشف أنـــك عرفت المزيد عن السيدات . أي انها ، عندما تقترح عليـك

عمل شيء ، ستجد ان من الأفضل تنفيذه ، رغبت بذلك أم لا » . كان يتكلم بصوت مرتفع وبلهجة الشخص الذي يكون اول من صعد الدرج صبيحة عيد الميلاد وجاء يخبرك بما ينتظرك على الشجرة من الهدايا ، وتكون هذه الهدايا غير ما طلبته من بابانويل .

« لا أحد يفكر في مقدار ما يمكن أن يتعلمه في مدة وجيزة عن شيء لم يكن يعرفه ، بل لم يخطر له أنه سيرغب في معرفته ، أو سيجده مفيداً - شرط أن يحافظ عليه ولا يدعه يفلت منه . خذ نفسك ، مثلا . فكر قليلا . فكر في مقدار ما تعلمته ولم يمض يومان بعد : تعلمت كيف تقود سيارة ، وكيف تذهب إلى ممفيس براً دون الاعتماد على سكة الحديد ، وكيف تخرج سيارة من حفرة وحل حتى إذا كبرت وصارت لك سيارتك الخاصة لن تجيد قيادتها وحسب بل ستعرف الطريق الى ممفيس أيضاً ، كما ستعرف كيف تخرجها من حفرة الوحل ».

يقول بوص انني عندما أصبح في سن تؤهلني لامتلاك سيارة ، لن تكون هناك حفر وحل تسقط فيها السيارات . وان جميع الطرق ستكون ملساء وصلبة ، حتى ان السيارة قد تحجز ويستعيدها المصرف، او تفنى دون ان تصادف حفرة وحل » .

« طبعاً ، طبعاً . حسناً . مع أنه لن تكون هناك حاجة الى معرفة كيفية الخروج من حفرة الوحل ، ستكون خبيراً

بذلك ، لماذا ؟ لأنك لن تتخلى عمّا عرفته لأحد » .

« لمن يمكنني ان أتخلى عنه ؟ من يهمه ان يعرف ذلك ان لم تعد هناك حفر وحل » .

« حسناً ، حسناً . هلّا أصغيت قليلاً ؟ انا لا أعني حفر الوحل . اتكلم عن الأشياء التي يمكن للصبي ان يتعلمها ، تلك الاشياء التي لم يفكر فيها من قبل والتي تصبح بعد ذلـــك في متناول يده عندما يحتاج إليها . لانه ليس هناك ما تتعلمـــه ولا يأتي اليوم الذي ستحتاج اليه فيه . شرط ان تكون قــد احتفظت به ولم تدعه يفلت منك صدفة ، او لم تفرّط به عن إهمال أو سوء تصرف . هل فهمت الآن ما أعني ؟ هــل هذا واضح ؟ »

« لا ادري . يجب ان يكون كذلك ، وإلا لما استطعت ان تواصل الحديث عنه . »

« حسناً ، هذه هي النقطة الاولى . الآن ننتقل الى النقطة الثانية . اصبحنا انا وانت صديقين حميمين منذ التقينـــا للمرة الاولى ، وقمنا معاً برحلة ممتعة ، وتعلمت بضعة أشياء لم ترها أو تسمع بها. وانا فخور بكوني الشخص الذي رافقك وساعدك على تعلمها . وانت مقبل الليلة على تعلم أشياء اخرى ، أرجّح أنك فكرت فيها من قبل . وسيدعي الكثيرون في جفرسون وغيرها انك لست في سن تسمح لك بمعرفتها . لكنني اعتقد ان الصبي الذي يتعلم في يوم واحد كيف يدير سيارة ويقودها الى ممفيس ، ويخرجها من حفرة الوحل اللعينة تلك مؤهل لأن

يعرف كيف يعالج اي امر يواجهه .. » وهنا سعل، وتنحنح وذهب الى النافذة وفتحها وبصق ، ثم اقفلها ، وعاد يتابع كلامه :

« اصل الآن الى النقطة الثالثة ، وهي التي احاول ان ألح عليها . كل مـــا يراه الرجـ ... الشا ... الصبي ، ويتعلمه ، سينتفع به يوماً ، وان لم يفهمه في حينه ، شرط ان يحتفظ به، ولا يتخلى عنه لأحد . آنذاك سيشكر حسن طالعه على الصديق المخلص الذي أخذ بيده على ظهر أول حصان ركبه ، وحذره في الوقت المناسب من التفريط به او فقده بطريق الصدفة ، او الثرثرة بما ليس من شأن أحد غير اصحابه .. »

« تعني أنني يجب الا اخبر جدي او ابي او امي او جدتي عما رأيته في هذه الرحلة . هل هذا قصدك ؟ »

« الا توافق على ذلك ؟ أليس هذا معقولاً وليس من شأن احد غيري وغيرك ؟ ألا توافق ؟ »

« اذن ، لماذا لم تقل ذلك مباشرة وبصراحة ؟ »

وكان مـــا زال يتذكر أمر اقناعي بالاستحمام . وكانت رائحة الحمام قد غدت اكثر طغياناً ، ليس بمعنى القوة ، بـل بمعنى الكثرة . لم أكن اعرف شيئاً عن البنسيونات، ففكرت ان بعضها قد يخصص للنساء فقط . فسألت بون عن ذلـــك ونحن نهبط الدرج . كنت جائعاً والظلام قد بدأ بالانتشار .

« أصبت . انهن سيدات . وإذا ضبطتك وانت تتصرف بوقاحة مع احداهن ... » .

« أعني ، الا يقيم هنا رجال ؟ او يعيشون هنا ؟ » .

« كلا ، لا يقيم هنا باستمرار غير السيد بنفورد . هـذا ليس مكاناً للإقامة بالمعنى الصحيح . لكن يأتيهم زوار كثيرون ، يدخلون ويخرجون بعد العشاء ، وسترى فيما بعد . طبعاً هذه ليلة الأحد ، والسيد بنفورد دقيق جداً فيما يتعلق بيوم الأحد : لا رقص ، ولا لهو . يزور الرجال صديقاتهم المعينات بهدوء وتهذيب . ويتأكد السيد بنفورد من تطبيق هذا النظام اثناء وجودهم هنا . الواقع انه يتمسك بهذا النظام حتى في أيام الأسبوع . وبالمناسبة ، كل ما عليك أن تفعله هو ان تكون هادئاً ومهذباً ، وتمتع نفسك ، وتصغي جيداً إذا وجه الكلام اليك . انه لا يتكلم بصوت مرتفع في المرة الاولى ، ولا يحب ان يضطره احد الى إعادة كلامه . تعال من هنا . لعلهم في غرفة الآنسة ريبا » .

وكانوا هناك : الآنسة ريبا ، والآنسة كوري ، والسيد بنفورد ، واوتيس . وكانت الآنسة ريبا ترتدي ثوباً أسود وثلاث ماسات أخرى ، ضاربة الى الصفرة أيضاً . وكان السيد بنفورد صغير الجسم ، أصغر شخص في الغرفة ، بما في ذلك أنا وأوتيس . وكان يرتدي بذلة سوداء وقميصاً بأزرار ذهبية تتدلى من جيبه ساعة ذهبية كبيرة ، له شاربان كثيفان ، ويحمل عصا لها رأس ذهبية ، ويلبس قبعة عالية . وكان أمامه على المائدة كأس من الوسكي . لكن أول ما تلاحظه فيه ، كانت عيناه ، لأنهما أول ما يلفت نظرك . كأنه يحدق

فيك . وكان اوتيس يلبس ثياب الأحد أيضاً . ولم يكـــن حجمه في مثل حجمي ، لكنه كان فيه شيء غريب. وقال السيد بنفورد :

« مساء الخير ، يا بون » .

« مساء الخير ، يا سيد بنفورد . هذا صديقي : لوشيوس برلست » .

ولكنني عندما انحنيت أقدم له احترامي ، لم يقل شيئاً واكتفى بالنظر إلي . ثم وجه الكلام الى ريبا :

«قدمي خمراً الى بون وكوري ، يا ريبا . وقولي لميني أن تعد الليمونادة للصبيين » . فأجابت الانسة ريبا : «ميني تعد مائدة العشاء ، وقريب كوري لا يرغب في الليمونادة أكثر مما يرغب فيها بون . انه يريد أن يشرب البيرة» . فقال السيد بنفورد :

« أعرف ذلك . هل الصبي الذي معك مولع أيضاً بالبيرة يا بون؟ » فقلت :

« كلا ، يا سيدي ، لا أشرب البيرة ».

« لماذا ؟ ألا تحبها ؟ ام أنك لا تستطيع الحصول عليها؟»

« كلا ، يا سيدي . لست بعد في عمر يسمح لي بشربها »

« وسكي إذن ؟ »

« كلا، يا سيدي .لا اشرب شيئاً.وعدت امي بألا اشرب إلا إذا دعاني ابي او الرئيس « بوص » للشراب ». فقال السيد بنفورد لبون :

« من هو رئيسه ؟ » فأجاب بون :
« انه يعني جده » .
« اوه » صاحب السيارة . يبدو انكما لم تعداه بشيء ».
ثم التفت إليّ وقال : « لكن امك غائبة الآن . وانت في رحلة مع بون ، تبعد عنها ثمانين ميلا ، أليس كذلك ؟ »
« كلا سيدي . وعدتها » .
« فهمت . وعدتها بألّا تشرب مع بون . لكنك لم تعدها بعدم الذهاب معه الى بيوت الدعارة » .
فوثبت الآنسة ريبا والآنسة كوري معاً وصرخت الاولى « يا ملعون »! فقال السيد بنفورد: « كفى » لكن الآنسة ريبا تابعت كلامها بجدة : « يمكنني ان اقذف بك الى الخارج . ما هذا الكلام ؟ » فقالت لها الآنسة كوري : « وانت ايضاً . كلامك ليس افضل . تتكلمان أمامهما ... » فقال السيد بنفورد :
« قلت يكفي ، لعلهما حضرا الى هنا من اجل التهذيب فقط ، حسناً ، ها قد تعلما ان الدعارة والملعنة كلمتان يجب ان يفكرا كثيراً قبل ان يتلفظا بهما . والآن يا آنسة ريبا نريد هدوءاً . لنشرب نخب الهدوء » . وعندما رفع كأسه بدأ شخص ما يقرع جرساً يدوياً في مكان ما من البيت ، ولعلها ميني . فقال السيد بنفورد :
« هذا افضل وقت الأكل . التهذيب والتمدن يعلماننا ان للفم وظيفة افضل من التشدق بالاراء الخاصة » .

وذهبنا الى غرفة الطعام يتقدمنا السيد بنفورد . وقبل ان نبلغها سمعنا وقع أقدام تسير بسرعة ، ثم رأينا سيدتين ، بل فتاتين – أعني ان احداهما كانت ما تزال فتاة حديثة السن– كانتا تنزلان الدرج بسرعة وهما تبكلان أزرار ثوبيهما . وكانت احداهما ترتدي ثوباً أحمر ، بينما ترتدي الثانية ثوباً وردياً وقالت للسيد بنفورد ؛ وهي تلهث قليلا :

« لم نتأخر. » فأجاب : « يسرني ذلك، لا احب التأخير، هذه الليلة خاصة . »

ودخلنا الغرفة . كانت الاماكن على المائدة تزيد عن عدد الحضور . وكانت ميني ما تزال تحضر الاطباق . وكانت وجبة الجميع تتألف من دجاج محمر بارد وبسكوت وخضروات متبقية من الغداء ، ما عدا طعام السيد بنفورد . وكان عشاؤه ساخناً : كان طبقاً كبيراً من شرائح اللحم المغطاة بالبصل . (اترى كم كان السيد بنفورد يسبق عصره ؟ كان جمهورياً . لا اعني جمهورياً من طراز عام ١٩٠٥ – الحقيقة لا اعرف ماذا كانت ميوله السياسية في تنيسي ، أو اذا كانت له اية ميول – بل اعني انه كان جمهورياً من طراز عام ١٩٦١ . وكان اكثر من ذلك. كان محافظاً. هكذا . فالجمهوري هو الرجل الذي يكسب ماله ، والحر هو الذي ورث ماله ، والديمقراطي هو الذي يركض حافي القدمين في سباق الضواحي والمحافظ هو الجمهوري الذي تعلّم القراءة والكتابة .)

وجلسنا جميعاً . وبدأنا نأكل . لعلّ السبب في ان رائحة شريحة السيد بنفورد كانت ممتازة ، هو ان رائحة بقية الطعام

كانت قد طارت عند الفجر. وقالت إحدى السيدتين الجديدتين (التي لم تعد فتية) : « هل كنا يا سيد بنفورد ا » ماذا كنتما ؟ فصرخت الفتاة :

« تعرف ماذا ، انت تعرفين آنسة ريبا اننا نبذل جهدنا - لا نجرؤ على إحداث ضجة - لا موسيقى يوم الأحد ، بينما تسمح كل البيوت الاخرى بالموسيقى . اننا نسكت زبائننا كلما ارادوا الحصول على مزيد من التسلية . ولكن لو لم نصل الى غرفة الطعام ، قبل ان يتدخل فيما لا يعنيه ، لكان غرّمنا بوضع خمسة وعشرين سنتاً في ذلك الصندوق الملعون . » فقال السيد بنفورد : « هذه انظمة البيت . البيت بدون انظمة لا يكون بيتاً . المشكلة معكن أيتها العاهرات ، أن عليكن أن تتصرفن في بعض الأحيان ، كالمحصّنات . لكنكن لا تعرفن كيف . وعلي ان اعلمكن . » فقالت الكبرى : « لا يمكنك أن تكلمنا بهذه الطريقة. » فقال : « حسناً ، سنعكس العبارة . مشكلتكن أيتها المحصنات أنكن لا تعرفن كيف تتصرفن كالعاهرات . »

كانت الكبرى واقفة الان . كان في سيمائها شيء غريب ايضاً . ليس لكونها كبيرة ، في عمر جدتي ، لأنها لم تكن كذلك . بل لأنها كانت وحيدة وما كان يجب ان تكون هنا وحيدة ، وتعاني هذا الوضع . ذلك فظيع . الحقيقة ، يجب ألا يكون أي إنسان وحيداً الى هذا الحد . وقالت : « آسفة يا آنسة ريبا. سأغادر هذا المكان الليلة» .فقال السيد بنفورد.

«إلى أين ؟ إلى الجهة المقابلة من الشارع ؟ الى بيت بيردي واتس ؟ لعلها تسمح لك هذه المرة بإحضار حقيبتك معك ، إلا إذا كانت قد باعتها !»

وعادت المرأة تنادي الانسة ريبا بهدوء . فقالت هذه بسرعة : « حسناً ، اجلسي وتناولي عشاءك . لن تذهبي الى اي مكان . نعم ، انا ايضاً احب الهدوء . لذلك سأقول شيئاً واحداً ثم نقفل هذا الموضوع نهائياً » . ثم وجهت الكلام الى السيد بنفورد قائلة : « ماذا دهاك ؟ ماذا جرى بعد ظهر اليوم وجعلك بهذا المزاج ؟ » .

« لا شيء . لا اذكر ان شيئاً قد حصل » .

فقال اوتيس فجأة : « صحيح . لم يحدث شيء . حتى انه لم يركض » .

وفجأة تغير الجو ، كأنما مست الجميع صدمة كهربائية . وظل فم الانسة ريبا مفتوحاً ، ونصف الشوكة داخل فيه . ولم اكن بعد قد فهمت ، لكن الاخرين فهموا جميعاً . حتى بون فهم . وفي اللحظة التالية فهمت أنا أيضاً . وقالت الانسة ريبا : « من الذي لم يركض ؟ » فأجاب اوتيس : « الحصان والعربة اللذان راهنتا عليهما في السباق . أليس كذلك يا سيد بنفورد ؟ » وفي هذه اللحظة لم يعد السكون مكهرباً بل مشحوناً بالكهرباء . وكانت الانسة ريبا ما تزال تقاتل . لأن النساء رائعات ، ولأنهن حكيمات إلى درجة تجعلهن يتحملن أي شيء ، ويتركن الأحزان والمتاعب تدخل نفوسهن ثم

تخرج من الجانب الاخر . وهن يستطعن تحقيق هـذا ، ليس لأنهن يرفضن تبجيل الألم الجسماني بصورة جدية. وحسب، بل لأنهن لا يخجلن من فكرة الهزيمة . قالت :

« سباق خيـــل ، في حديقة الحيوانات ؟ في حديقة اوفرتون ؟ فقال اوتيس :

« كلا . في ميدان السباق . التقينا في الحافلة برجـل كان يعرف اي حصان وعربة سيكسبان ، وغيّرنا رأينـــا ولم نذهب الى حديقة اوفرتون . إلا أنهـــما لم يكسبا . أليس كذلك يا سيدي بنفورد ؟ لكننا لم نخسر قدر ما خسر الرجل ، لم نخسر حتى اربعين دولاراً ، لان السيد بنفورد أعطاني خمسة وعشرين سنتاً كي لا اتكلم . لذلك نكون قـد خسرنا تسعة وثلاثين دولاراً وخمـسة وسبعين سنتاً . لكنني فوق ذلك كله فقدت الخمسة وعشرين سنتاً ثمناً لكأس البيرة. أليس كذلك يا سيد بنفورد ؟ »

وعاد السكون ثانية . وظل كل شيء هادئاً ، حتى قالت الانسة ريبا : « يا ملعون » ثم اضافت « أكمل عشاءك أولاً »

الا أن السيد بنفورد لم يكن من النوع الذي يتراجع . كان أيضاً أبياً ، من النوع الذي لا يعطي شيئاً أو يقبل شيئاً، شأن طيور الصيد. وبكل هدوء وضع السكين والشوكـــة متقاطعتين فوق الشريحة التي لم يكن قد قطعها ، ثم طوي الفوطة ووضعها في الحلقة ونهض قائلا . « استأذنكم جميعاً » وخرج دون ان ينظر إلى احد ، حتى إلى أوتيس . فقالت

صغرى المرأتين الأخيرتين : « يا للغرابة ، من كان يخطر هذا بباله ؟ » ولاحظت ان ميني في هذه الأثناء كانت تقف بباب المطبخ الذي كان نصف مفتوح .

وقالت الانسة ريبا للفتاة : « اخرجي من هنا . اخرجا كلاكما . » فوقفتا في الحال ، وقالت الفتاة : « تعنين .. نترك المكان؟» فقالت الانسة كوري : « كلا. اخرجن من هنا فقط. وإذا كنتما لا تنتظران زواراً خلال الدقائق القليلة القادمة ، لماذا لا تقومان بنزهة حول البيت ؟»فنهضتا في الحال. ثم نهضت الانسة كوري وقالت لأوتيس :«اصعد الى غرفتك وابق فيها.» فقال بون . سيمر بباب غرفة الانسة ريبا في طريقه . هل نسيت ربع الدولار ؟» فقالت اوتيس : « كان اكثر من ربع دولار . كان معي خمسة وثمانون سنتاً كسبتها لأنفقها ليلة السبت . وعندماعرف بأمر البيرة اخذها مني ايضاً» .ونظرت اليه الانسة ريبا قائلة : «اذن تخليت عنه مقابل خمسة وثمانين سنتاً ؟» فقالت الانسة كوري : «اذهب الى المطبخ . ليعد الى هناك يا ميني» . فأجابت هذه : «حسناً . سأحاول ان ابقيه بعيداً عن الثلاجة . لكنه أسرع مني . «فقالت الانسة ريبا : دعيه يبقى هنا . فات الاوان . كان يجب ان يرسل مكان آخر ، قبل ان ينزل من قطار اركنساس في الاسبوع الماضي .»

وانتقلت الآنسة كوري إلى كرسي قرب الانسة وقالت لها بلطف : لماذا لا تذهبين لمساعدته على حزم امتعته ؟ فاجابتها: من تتهمين ! إنني أأتمنه على كل ما عندي، الا على تلك الخيول!

ووقفت فجأة بجسمها المتناسق الممتلىء ، ووجهها الجميل المتجهم ، وشعرها الشديد الاحمرار . وقالت : « لماذا لا أستطيع الاستغناء عنه ؟ لماذا لا استطيع ؟ » فقالت لها الآنسة كوري : « مهلا ، مهلا . تحتاجين الى كأس . اعطي ميني المفاتيح - اوه ، كلا ، لا يمكنها الذهاب الى غرفتك الآن . » فقالت ميني : « ذهب . سمعت الباب الأمامي ينغلق . لا يتطلب ذهابه وقتاً طويلا . هكذا دائماً . » فقالت الآنسة ريبا: «هذا صحيح . كنا انا وميني هنا من قبل .أليس كذلك يا ميني ؟ ثم اعطت ميني المفاتيح ، فخرجت وعادت تحمل زجاجة جن . وشرب الجميع كأساً من الجن ، حتى ميني (مع انها أبت ان تشرب مع هذا العدد الكبير من البيض دفعة واحدة . فكانت في كل مرة تذهب الى المطبخ وفي يدها كأس مملوءة ، ثم تعود بعد قليل وقد افرغتها) . ولم نشرب، أنا واوتيس . وهكذا عرفت دور السيد بنفورد .

كان قيّم البيت . وهذا لقبه واسمه الرسميان ، مع انهما غير مكتوبين . وكان لجميع البيوت المشابهة قيم كالسيد بنفورد . كان هذا ضرورياً . ولكنه ، في العالم الخارجي الغريب ، حيث يعيش المحظوظون الذين لا يضطرون الى العيش بهذه الطريقة القاسية المرهقة ، كان له اسم آخر، أقسى واكثر تحقيراً . فهو الذكر الوحيد ، ليس في بيت عادي للنساء بل في بيت خيمت عليه هستيرياهن . كان الوسيط غير المشكور، والقوة الواهية الوحيدة التي تلبس لباساً من الاحترام

يكفي لفرض قدر كاف من النظام على تلك الهستيريا ، بحيث يجعل البيت قادراً على دفع الديون ، أو على الأقل الحصول على الطعام . كان الوكيل الذي يجري الحسابات ويتسلم إيصالات الضرائب، والذي يتعامل مع موظفي تجار المشروبات والبقالين وتجار الفحم والعمال المكلفين بتنظيف المجــاري أو المداخن والمزاريب ، وانتزاع الأعشاب من الحديقة . كانت يده هي التي تدفع الرشوات الى رجال القانون . وكان صوته هو الذي يخوض المعــارك الخاسرة ضد مفوضي التخمين ، ويشتم بائع الصحف يوم لا يحضر الصحيفة. ومن بين هؤلاء (اعني القيّمين) كان السيد بنفورد الامير والمثال : كان رجلا ذا اسلوب ، وخلق ومثل أعلى . وخلال السنوات الخمس التي ظل فيهــا عشيق الآنسة ريبا، كان اكثر اخلاصا من عدد كبير من الازواج. وكان عيبه الوحيد المراهنة على خيول السباق. وقد عرف هذا الضعف وحاربه . ولكنه مــا ان يسمع صوتاً يهتف : « انطلقت ! » حتى ينهار بين يدي اي غريب معه دولار يراهن به .

وقالت ميني : « هو نفسه يعرف ذلك . ويشعر بالخجل لعجزه عن مقاومته . وهو يعني ما يقول حين يعدنا بالاقلاع عن هذه العادة ، كما حصل قبل سنتين عندما اضطررنا لطرده.» ثم قالت للآنسة ريبا : « تذكرين اي مجهود بذلنا بعد ذلــك لاسترجاعه . »

« اذكر . صبّي لنا مرة ثانية » .

« لا ادري كيف سيتدبر أمره . فهو عندما يذهب لا يأخذ معه غير ما عليه من الثياب . وقبل انقضاء يومين يقرع الباب رسول يحمل لنا كل سنة منه الأربعين دولاراً .» فاستدرك بون قائلا : « تقصدين تسعة وثلاثين وخمسة وسبعين سنتاً . » فأجابت :

« كلا . بل كل سنت من الاربعين دولاراً ، حتى ربع الدولار ذاك لأنه يخص الآنسة ريبا . ثم ترسل الآنسة ريبا في طلبه ، ولكنه لا يعود . وعندما وجدناه في السنة الماضية كان يعمل مع فرقة لمد خطوط المجارير . وقد اضطرت الآنسة ريبا أن تتوسل اليه راكعة على ركبتيها ... » فقاطعتها الآنسة ريبا قائلة : « هيا . كفى ثرثرة . صبي لنا الخمر لنشرب . »

وبدأت ميني تصب . ثم توقفت فجأة وقالت : « ما هذا الصراخ ؟ »

وسمعنا صوتاً ضعيفاً آتياً من وراء البيت . فقالت لها الآنسة ريبا :

« هاتي الزجاجة ، واذهبي للاستطلاع . »

وأعطتها ميني الزجاجة وذهبت ثم عادت لتقول : «هناك رجل يقف في الساحة الخلفية وينادي السيد بون هوجانبك ، ومعه شيء كبير . »

وركضنا خلف بون عبر المطبخ الى الرواق الخلفي ، فرأينـــا في الظلام ظلين معتمين : ظل صغير وظل كبير ، كانا يقفان وسط الساحة . وكان الظل الصغير ينادي : « بون هوجانبك ! يا سيد بون هوجانبك ! هالو . » وظل ينادي حتى قاطعه بون صائحاً :

« اخرس ! اخرس ! اخرس ! » .

كان ذلك ند والى جانبه حصان .

الفصل السادس

كنا جميعاً في المطبخ . وقال بون : « يا إلهي ! استبدلت سيارة الرئيس (بوص)بحصان؟» واضطر لتكرار عبارته مرتين لأن ند كان ما يزال يحدق في سن ميني ، أعني انه كان ينتظر ظهورها ثانية . فلعل الآنسة ربما قالت لها شيئاً ، او انها هي نفسها قد تكلمت — لا أدري. كل ما اذكره هو ومضة الذهب عندما انفرجت شفتاها في الضوء ، وكأنما اكتسبت السن من نور المصباح الضعيف ، وسط الظلام ، ألقاً جديداً وسحراً . كما اكتسبت ذلك عينا الحصان . وكان لهذا تأثيره في ند .

وكم صعقته تلك السن ، كما صعقتني عندما رأيتها للمرة الاولى . لذلك عرفت أية تجربة كان يجتاز . لكن تجربته كانت اوسع . وقد ادركت هذا بشكل غامض ، حتى في سن الحادية عشرة . كانت تجربتي مجرد شعور بالروعة ، مجرد أخذة وسرور . ولم اكن استطيع ان اتجاوب مع تلك السن

شأن ند . كان يخوض معركة الجنس الازلية ، وأمامه عدو جدير بما يمتلك من القوة . وكأنما استيقظ فيــه التضامن القديم الغامض بين بني العرق الواحد ، وتمثلت له كاهنة كـــبرى تستحق أن يموت من اجلها . لذلك اضطر بون الى تكرار ما قاله قبل ان ينتبه ند او يسمع . ثم قال ند :

« انت تعرف كما انا اعرف ، ان الرئيس لا يريــد السيارة . لقد اشتراها لانه اضطر الى ذلك ، كي يضــع الكولونيل سارتوريس عند حدوده . ان الرئيس لا يحب غير الجياد - لا اعني أمثـــال تلك الخيول الخائرة القوى ، ذات الاسماء الشهيرة التي يملكها السيد موري ويبقيها عندك في ذلك الاسطبل ، بل اعني الجياد الاصيلة . وقد حصلت له على مـا يريدُ . وحالما يرى هذا الحصان سيشكرني ويشكر الصدف التي جعلتني احصل له عليه قبل ان ياخذه غيرنا . »

كنت في ما يشبه الحلم او الكابوس . وحين نكون في حلم نعرف ذلك . فاذا استطعت ان تلمس بالصدفة شيئاً صلبـاً ، شيئا حقيقياً ، صحوت . وخطر لي ولبون الفكرة نفسهـا . فتحركنا بسرعة ، فاستوقفنا ند ، اذ قرأ افـكارنا ، فقال :

« لا داعي لتفقدها . جاء واخذها . »

وجـــد بون في منتصف خطوته وحدّق فيّ . كان كلانا نعاني شكاً رهيباً ، بينما كنت أعبث في جيبي بمفتاح السيارة . وقال ند ثانية : « مهلاً . لم يحتج الى مفتاح . انه خبير . وقد ادّعى انه يعرف كيف يمد يده خلف القفل ويديره من الخلف .

ولم اصدق حتى رأيته يفعل ذلك . لم يلاق اية صعوبة . حتى انه رمي الرسن مع الحصان ... »

وذهبنا مسرعين باتجاه الباب الامامي ، تتبعنا الآنسة ريبا والآنسة كوري . كانت السيارة قد ذهبت . عندها فقط شعرت بوجود السيدتين . كانتا تراقبان بصمت ، دون ان يبدو عليها اي رد فعل ، كأنما هما من عالم آخر ، منفصل عني وعن بون وند وسيارة جدي والحصان .

ورجعنا الى المطبخ حيث تركنا ند وميني . واستطعنا ان نسمع ند يقول : « المال الذي تتحدثين عنه ايتها الجميلة ، اما ان يكون معي ، او انني استطيع الحصول عليه . دعيني اجد لهذا الحصان مأوى وطعاماً ، ثم نخرج معاً وندع هذه السن تتألق قبالة شيء ما ، كصحن سمك او لحم خنزير - اذا كانت تفضل لحم الخنزير .. » فقاطعه بون قائلاً : « حسناً ، اذهب واحضر الحصان . اين يعيش ذلك الرجل ؟ »

« أي رجل ؟ ماذا تريد منه ؟ »

« اريد ان استعيد سيارة الرئيس . وساقرر بعد ذلك اذا كنت سأرسلك الىالسجن هنا ، او اعيدك معي الى جفرسون ، وأترك للرئيس هذه المهمة . »

« لماذا لا تكف لحظة عن الكلام وتصغي الي ؟ طبعاً أعرف أين يسكن الرجل . ألم ابادله وآخذ الحصان منه ؟ لكن دعه وشأنه . لا نريده الآن . فنحن لن نحتاج اليه الا بعد السباق ، لأننا لم نحصل على حصان عادي ، بل على

حصان سباق . هنـــاك في « بوسم » حصان آخر ينتظر كي يسابق هذا ، حالما نصل الى هناك .و « بوسم » تقـع حيث يتقاطع خط سكة الحديد الاتي من جفرسون مع سكة حديد ممفيس .

فقال بون : « حسناً ، هناك رجل في بوسم ... » فقالت الآنسة ريبا : « اوه ، تعني بارشم » . فقال ند : « أصبت . هناك ، حيث يجربون كلاب صيد الطيور . هذا الرجل يملك حصاناً كان قد تحدى به هذا الحصان في سباق من ثلاث جولات، وجائزة كل جولة خمسون دولاراً. ولكن مئة وخمسون دولاراً ليست شيئاً مهماً . سنسترد السيارة . » فقال بون : « كيف ؟ كيف ستستخدم الحصان لاسترداد السيارة من الرجل الذي اعطاك الحصان بدلاً منها ؟ » فاجابه قائلاً : « لأن الرجل لا يصدّق أن الحصان يستطيع أن يركض . لماذا تظنه بادله بشيء رخيص كالسيارة ؟ لماذا لم يحتفظ بالحصان ويكسب لنفسه سيارة ان كان يرغب فيهـــا ، وهكذا يحصل على الاثنين : الحصان والسيارة ؟ »

« عجباً ! لماذا ؟ »

« قلت لك ان هذا الحصان انغلب مرتين حتى الان . ولم يعرف أحد كيف يجعله يجري . وطبيعي ، بعد هذا ، ان يعتقد الرجل ان الحصان لن يركض هذه المرة ، ما دام انه لم يركض في المرتين السابقتين . لذلك سنراهنه على الحصان مقابل سيارة الرئيس . وما دامت السيارة عنده فسيمره ان يشترك

في الرهان كي يربح الحصان ايضاً ، لا سيما انه لن يخاطر بأكثر من الوقوف عند نهاية الشوط حتى يصل الحصان فيمسك به ويربطه خلف السيارة ويعود به الى ممفيس ...»

وتكلمت الآنسة ريبا للمرة الاولى فقالت :

« عجيب ! » فاستأنف ند كلامه قائلا : « لانه لا يعتقد ان باستطاعتي ان اجعل الحصان يجري . » ثم وجه كلامه الى بون ، فقـــال : « ان كنت عاجزاً عن جمع مبلغ اضافي من هؤلاء السيدات لاقناعه بالتخلي عن السيارة مقابل الحصان ، فخير لك ألا تدع الرئيس بريستيراك بعد اليوم . وقديتمكن هذا الحصان من حل المشكلة . لأنني حالما رأيته تذكرت ... هه ، هه ، هه ... »

فقال بون وسط ذلك الجو المخلوط بالهزل المر : « كيف تبادل سيارة الرئيس بحصان لا تستطيع ان تركضه ، وتتدبر الان امر إعادة الحصان شرط ان اجمع مبلغاً كافياً ... »

« دعني أكمل . هل ستدعني أكمل ؟ »

« هيا ، أكمل . واجعل كلامك ... »

« تذكرت بغلا كنت املكه .. »

وسكت الاثنان بغتة وتبادلا النظرات .. وتابع نـــد ، بعد لحظة ، بصوت لطيف حالم فقال : « هؤلاء السيدات لا يعرفن ذلك البغل . لسوء الحظ ان الرئيس والسيد موري ليسا هنا لتخبراهن عنه .»

كان باستطاعتي انا أن اخبرهن ، لأن ذلك البغل كان

اسطورة من اساطير عائلتي ، يعود الى يوم كان أبي وند شابين ، أي قبل أن ينتقل جدي من ماك كاسلن ليصبح صاحب بنك في جفرسون . وفي أحد الأيام ، اثنـــاء غياب ابن العم ماك كاسلن ، قام ند بتمشير فرسه من حمار المزرعة . وبعد أن انتهت الضجة التي حدثت نتيجة لذلك ووُلِدَ البغل، أجبره ابن العم ماك كاسلن على شرائه منه مقابل عشرة سنتات تحسم من اجره الاسبوعي مدة ثلاث سنوات . وفي تلك الفترة ظل البغل يغلب كل بغل ينازله في المنطقة على بعد أربعين ميلاً .

ولدت انت متأخراً ، لذلك لا تعرف شيئاً عن البغال . ولذلك سقت لك هذا الايضاح. ان البغل الذي يركض مسافة نصف ميل في الاتجاه الذي يختاره له راكبه ، ولو مرة واحدة، يصبح اسطورة الجوار ؛ أما البغل الذي يفعل ذلك باستمرار فيعتبر ظاهرة لا تصدق . لأن البغل أذكى من ان يرهق قلبه بالركض مسافة ميل طلباً للمجد كما يفعل الحصان . لذلك أصنّف البغال في مرتبة تلي مرتبة الجرذان في الذكاء . بعد البغال تأتي القطط ، ثم الكلاب ، واخيراً الخيول . هذا إذا كنت تقبل تعريفي للذكاء . وهو كما أراه ، المقدرة على مجابهة البيئة، أي الاستسلام للبيئة وقبولها كما هي، مع المحافظة على شيء من الحرية الذاتية .

أصنف الجرذ في المرتبة الأولى . فهو يعيش في بيتك دون أن يساعدك على شرائه أو بنائه أو اصلاحه . وهو يأكل

ما تأكل دون أن يساعدك على زرع طعامك او حمله الى البيت او شرائه ، ولا يمكنك أن تتخلص منه .

تأتي القطط في المرتبة الثالثة وتشترك مع الجرذ في بعض الصفات ، لكنها مخلوقات اضعف من الجرذ واتفه منه . القطة تتطفل عليك ، تعيش معك ، وتعتمد عليك اعتماداً كلياً في المأكل والمأوى، لكنها لا تدافع عنك ، ولا تحبك . واصنف الكلب في المرتّبة الرابعة. فهو شجاع . ووفي وثابت في ولائه. وهو ايضاً طفيلي عليك، يتضح عجزه بخدمتك – اعني تلقائيا وبسرور. انه يقوم بأية لعبة مهما كانت سخيفة مقابل التربيت على رأسه . ويتضح عجزه ايضا من كونه متملقاً . فهو يحط من كرامته وينتهكها من أجل تسليتك ، ويحرك ذيله تذللا ، جواباً على رفسة . وفي المعركة يضحي بحياته من أجلك ، ويموت جوعاً وهو يرقد فوق قبرك حزنا عليك . أما الحصان فيأتي في المرتبة الأخيرة . إنه كائن لا يستطيع التفكير في أمرين في وقت واحد . أبرز صفاته الجبن والخوف . يستطيع طفل ان يخدعه ويتملقه ، فيجعله يحطم اضلاعه او قلبه في الركض مسافه بعيدة وبسرعة كبيرة ، أو في القفز فوق اشياء عريضة او عالية . ان لم يُرْعَ كالطفل ، يأكل حتى يموت . ولو كان عنده درهم واحد من ذكاء الجرذ لكان هو الخيّال .

لكن البغل يحتل المرتبة الثانية . أضعه في هذه المرتبة لسبب واحد ، هو انه باستطاعتك ان تشغله ، لكن ضمن الانظمة الصارمة التي حددها لنفسه . فهو لا يسمح لنفسه

بالافراط في الطعام . يجر عربة او محراثـاً لكنه لا يجري في سباق. لا يقفز فوق اي شيء إن لم يتأكد مسبقاً انه يستطيع القفز فوقه . لا يدخل مكاناً إلا إذا عرف ضمنيا ماذا يوجد في الطرف الاخر . يعمل لك بصبر مدة عشر سنوات على امل ان تتاح له فرصة رفسك ولو مرة واحدة . وبكلمة صريحة ، انه مرتاح من التزامـات النسب ومسؤوليات النسل . لم يقهر الحياة وحسب بل الموت ايضا ، فهو لذلك خالد . إذا باد عن وجه الارض اليوم ، فـإن التركيب البيولوجي الذي انتجه بالأمس سينتجه بعد ألف سنة ، دون تبديل او تغيير ، ودون ان يسري عليـــه قانون التطور . وهو يبقى مع ذلك حراً وقادراً على مواجهة وضعه . وهذا ما جعل بغل ند فريداً من من نوعـه ، او قلْ ظاهرة خاصة . ضع اثني عشر بغلا في حلبة سباق ، وعندما تصدر كلمة «انطلق» فان البغال تتجه في اثني عشر اتجاها مختلفا، كما تنتشر حشرات خائفة على سطح مستنقع . والبغل الذي يصادف ان يكون اتجاهه باتجاه المرمح يكون الرابح حتماً .

لكن ذلك لم يكن ينطبق على بغل ند . وقـد روى ابي انه كان يجري كالحصان ، انما دون هوس الحصان واضطرابه واندفاعاته السريعة المخيفة الـــتي تضني القلب . كان يركض وكأنه يؤدي عملاً : كان ينطلق بالسرعة الصحيحة الضرورية التي يكون قد قدّرها، وذلك وفقا للمسة ند (او صوته ، او أياً كانت الاشارة) ، ولا تتبدل تلك السرعة حتى يكون

قد تجاوز نهاية الشوط وأوقفه ند . ولم يعرف أحد حتى ابي الذي شاهد ند – بسر البغل وماذا كان ند يفعل له . وطبيعي ان الاسطورة قد نمت وتضخمت ، أعني ذلك السحر الذي اكتشفه ند او ابتدعه لجعل البغل يجري بصورة تختلف عن اي بغل آخر . لكننا لم نعرف ذلك السر قط، ولم يعتلِ البغل اي خيال آخر ، حتى بعد ان بدأ ند يكبر ويزداد وزنه ، حتى مات البغل عن اثنتين وعشرين سنة دون ان يُغلب . وما يزال قبره قائماً في ماك كاسلن حتى الان .

هذا ماعناه ند وعرفه بون . وحدّق واحدهما في الاخر، ثم قال بون : « هذا غير ذلك البغل . هذا حصان . » وقال ند : « لدى هذا الحصان نفس الحساسية التي كانت لدى ذلك البغل . ليس الى حد كبير لكنه من النوع ذاته . » وحدّق واحدهما في الاخر . ثم قال بون : « لنذهب ونلق عليه نظرة . »

واضاءت ميني مصباحاً ، فحمله بون وذهبنا الى الساحة الخلفية ترافقنا ميني والانسة كوري والانسة ريبا . كان القمر قد بدأ يرتفع وصار بامكاننا ان نرى . وكان الحصان مربوطاً تحت شجرة خروب في الزاوية ، فتوقدت عيناه لدى اقترابنا ونفخ بأنفه ، وسمعناه يحرك رجله بعصبية .

توقفنا ، ورفع بون المصباح عاليا . وتوقدت عينا الحصان ثانية بفتور وعصبية عندما سار ند باتجاهه وظل يكلمه الى ان استطاع ان يلمس كتفيه ويربت عليهما ، وظل يكلمه حتى

ستطاع ان يمسك بالرسن . ثم قـال لبون : « لا تقرب المصباح منه . ابتعد وارفعه حتى يمكن السيدات أن يرين حصانا . وعندما أقول حصانا، فإنني أعني حصانا حقيقيا . وليس تلك الكدائش التي تسمونها في جفرسون خيولاً .
فقال بون :

« كفّ عن الكلام واحضره لنراه . »

« انك تراه الان . ارفع المصباح . »

لكنه احضر الحصان وحركه قليلا . نعم ، ما زلت اذكره : كان عمره ثلاث سنوات . وكان كستنائي اللون ، صغيراً، لم يبلغ اقل من ستة عشر شبراً، ذا عنق طويل للتوازن، وكتفين منحدرين يساعدان على السرعة ، ومآبض كبيرة من أجل الاندفاع .

ومع انني كنت آنذاك في الحادية عشرة ، فقد تبين لي انني كنت أفكر في ما كان بون يفكر فيه. اذ ادار نظره بين الحصان وند . ثم تكلم بصوت هامس : « هذا الحصان ... » لكن الانسة كوري قـاطعته قائلة : « انتظر » . صحيح ، نسينا اوتيس . هذا شيء آخر عنه دائما تنتبه الى وجوده قبل فوات الأوان بلحظة واحدة فقط . وقالت الانسة ريباموجهة الكلام اليه : « نعم ، اخرج من هنا . » ان النساء رائعات حقا . ثم قالت الانسة كوري : « ادخل الى البيت يا اوتيس فقال :

« حاضر . تعال يا لوشيوس . »

« كلا . انت فقط . اذهب الان . يمكنك ان تصعد الى غرفتك . »

« ما زال الوقت مبكراً . ولم انعس بعد » فقالت الانسة ريبا :

« لن اقول لك ذلك مرتين . »

« وانتظر بون الى ان دخل اوتيس الى البيت . ثم استأنف حديثه مع ند بذلك الصوت الفاتر الرتيب ، ثم قال هامساً : « هذا الحصان مسروق ! » فاجاب ند : « وماذا عن تلك السيارة ؟ »

قلت لك ان النساء رائعات . فقد قالت الانسة ريبا بصوت منخفض لكن بسرعة : « يجب ان تخرجاه من المدينة . » فقال ند : « هذا ما فكرت فيه عندما احضرته الى هنا . حالما اتناول عشائي سأبدأ الرحيل به الى بومم . » فقال بون :

« أتعرف كم تبعد « بومم » ، وفي اي اتجاه ؟ » فأجاب ند : هل هذا مهم ؟ عندما غادر الرئيس البلدة دون ان يأخذ السيارة معه ، هل اهتممت بالمسافة الى ممفيس ؟ » فقالت الانسة ريبا : « ادخلا الى البيت . هل يمكن ان يراه احد هنا ؟ » فأجاب ند : « أبداً . لقد اهتممت بهذا الأمر . » ثم ربط الحصان الى الشجرة وصعدنا الدرج الخلفي تتقدمنا الانسة ريبا ، وهي تقول : « إلى المطبخ . هذا وقت مجيء الزبائن . » وهناك قالت لميني : « اجلسي في غرفتي كي تفتحي

الباب حين يقرع . إذا سأل أحد عن الانسة كوري ، قولي ان صديقاً لها من شيكاغو موجود في المدينة . » فأردف بون قائلا :

« اذا لم يصدقوكِ ، قولي لهم ان يجتازوا الممر ويقرعوا الباب الخلفي . »

« بحق المسيح ، اليس عندك متاعب تكفيك ؟ اذا كنت لا تريد ان تستقبل كوري زبائن، فلماذا لا تشتريها مرةواحدة بدلاً من استئجارها مرة كل ستة اشهر ؟ » فقال بون :

« حسنا ، حسنا . » ثم تابعت الانسه ريبا قائلة لميني : « تفقدي كل شخص في البنسيون . » فقالت كوري . سأهتم به بنفسي . فقالت الانسة ريبا . « دعيه يبقَ في غرفته . لقد سبب لي اليوم متاعب تكفيني . » وخرجت الانسة كوري ، واقفلت الانسة ريبا الباب ووقفت تنظر الى ند ثم قالت :

« هل تعني انك ستقود الحصان الى بارشم ماشيا على قدميك ؟ »

« اجل ؟ »

« هكذا تعرف كم تبعد بارشم » ؟

« وهل لذلك أهمية ؟ لا تهمني معرفة المسافة الى بوسم . لا اريد سوى بوسم . لهذا السبب غيرت رأيي بشأن قيادته ، فقد تكون بعيدة . وقلت بما أنك تعملين في الاتصالات .. »

« ما تعني ؟ أنا أدير بنسيوناً . كل شخص مهذب يدعوه كذلك . »

« أعني قد يكون لدى أحد معارف السيدات عندك حصان ركوب ، أو حصان حراثة أو على الأقل بغل يمكنني أن أمتطيه ، بينما يمتطي لوشيوس المهر . بهذه الطريقة نذهب الى بوسم . لأن الحصان لن يجري ميلاً واحداً فقط بعد غد ، بل لا بد أن يجتاز المسافة ثلاث مرات ، ويجب أن يسبق الحصان الآخر مرتين على الأقل . »

« طيب، لنفرض أنك وصلت أنت والحصان الى بارشم يبقى عليك أن تجد حصان سباق . »

« أي شخص معه حصان يستطيع أن يجد حصان سباق أينما كان. يكفي أن يكونا قادرين على الصمود تلك المسافة. »

« هل يمكنك ان تجعل هذا الحصان يصمد تلك المسافة ؟»

« نعم . »

« هل تستطيع ان تجعله يجري ؟ »

« نعم . »

« ما أدراك أنك تستطيع ذلك ؟ »

« جعلت ذلك البغل يجري ! »

« أي بغل ؟ » وهنا دخلت الآنسة كوري وأقفلت الباب خلفها . فقالت لها الآنسة ريبا : « اقفليه جيداً . » ثم استأنفت حديثها مع ند قائلة : « حسناً ، اخبرني عن ذلك السباق . » وتأملها ند طوال ربع دقيقة ، ثم قال لها :

« تبدين أحياناً كمن يريد ان يتكلم كلامـــاً معقولا . »
فقالت : « جرّبني ! » فقال : « حسناً . هنـاك رجل غني أبيض لا اذكر اسمه، لكنني أستطيـع أن اجده، لديه حصان أصيل آخر ، كان قد سابق هذا الحصان مرتين في الشتاء الماضي ، فغلبه مرتين . وقد استطاع ذلك الحصان ان يغلب هذا في الجولة الاولى ، بشكل جعل صاحبـه يراهن بضعف المبلغ في الجولة الثانية . وعندما يصل هذا الحصان الى «بوسم» ليشترك في سباق آخر ، سيكون ذلك الرجل الغني الابيض اكثر من راغب في اشراك حصانه في السباق » .
« حسناً ، تابع » .
« هذا كل شيء . استطيـع ان اجعل هـذا الحصان يجري ولا احد يعرف هذا حتى الآن . لذلك إذا رغبتن في جمع بعض المال استطعنا ، انا ولوشيوس والسيد هوجانبك ان نحمله معنا ايضاً » .
« هل يشمل هذا الشخص الذي أخذ السيارة ؟ أعني هل هو ممن لا يعرفون ان باستطاعتك ان تجعله يجري ؟ » .
« نعم » .
« إذن لمـــاذا لم يوفر المتاعب على الجميع ويرسلك مع الحصان الى بارشم اذا كان يعتقد ان كل ما عليه ان يفعله ليكسب الحصان والسيارة هو دخول السباق فقط ؟ » وخيّم الصمت . كانا ينظران ، واحدهما إلى الآخر . ثم قالت الآنسة ريبا :

« هيا . عليك ان تقول شيئاً . ما اسمك ؟ »

« ند وليام ماك كاسلن ، جفرسون ، ميسيسبي ! »

« ماذا ؟ »

« لعله لا يقوى على ذلك » . وهنا قال بون : « عجيب ! نحن كذلك لا نقوى... » فقالت له الآنسة ريبا : « اخرس » ! ثم قالت لند :

« سمعتك تقول إنه غني » .

« كنت أقصد الشخص الذي بادلته السيارة بالحصان » .

« هل اشترى الحصان من الرجل الغني ؟ » .

« كان الحصان معه » .

« هل اعطاك ورقة ما عندما تبادلت معه » ؟

« أخذت الحصان » .

« لا تعرف القراءة ، أليس كذلك ؟ »

« أخذت الحصان » !

فحدقت فيه الآنسة ريبا ، ثم قالت : « حصلت على الحصان . لنفرض انك اخذته الى بارشم . قلت ان لديك طريقة تجعله يجري . هل ستتمكن تلك الطريقة من اخذ السيارة ايضاً الى بارشم ؟ » .

« استعملي عقلك. انتِ بعيدة النظر. إذ ادركت أكثر من جميع الموجودين هنا . إن الاشخاص الذين بادلتهم ... » فقاطعته الآنسة ريبا قائلة : « أشخاص ؟ قلت رجلاً . » لكن ند ظل متابعاً : « ... واقعون في ورطتنا ذاتها .

عليهم ان يعودوا الى بيوتهم ايضاً عاجلاً أو آجلاً . » فقالت: « إن كان اسمه ند وليام ماك كاسلن ، أو بون هوجانبك ، أو أياً من الأشخاص الذين بادلتهم بالحصان ، لن يكفيه أن يعود بالسيارة وحدها أو الحصان وحده ، بل عليه أن يحصل على كليهما . أليس كذلك ؟ » فقال ند : « ليس تماماً . أليس هذا ما كنت ان اقوله لك مدة ساعتين ؟ » فحدقت فيه الآنسة ريبا ، وتنفست بهدوء ثم قالت :

« إذن ستأخذه إلى بارشم سيراً ، بينما يكون كل شرطي في غرب تنسي يفتش في كل طريق تتفرع من ممفيس عن حصان » - وهنا نادتها الآنسة كوري، فيما تابعت عبارتها - «منذ فجر صباح غد .» ولكن ند كان واثقاً من ان الوقت قد فات على وقوعه فيقبضة الشرطة. وقالت ريبا للآنسة كوري: « وماذا عن سائق القطار ذاك ؟ » وحين سألتها من تعني ، اجابت بانه ليس سائق قطار بل رجل إشارة . فقالت ريبا :

« حسناً ، رجل اشارة » ثم قالت لبون : « إنه احد معارف كوري ... » ثم التفتت الى ند وقالت : « يبدو ان كلمتك هذه مناسبة . عم أمه يعمل نائب رئيس او ما شابه في الخط الحديدي الذي يمر في بارشم ... » فقالت الآنسة كوري مصححة : (خاله مفتش .) فقالت الآنسة ريبا : « مفتش» اي انه يقوم بوظيفته حين لا يكون فيميدان السباق هنا او في اية من المدن التي تمر فيها قطاراته ، بينما يشق ابن اخته طريقه صعوداً وفي فمه ملعقة من فضة ، ويستمر ذلك

ما دام لا يعض عليها بشدة تلفت الانتباه . هل فهمتم مــا أعني ? » فقال بون :

« عربة البضاعة . » فقالت الآنسة ريبا :

« نعم ، هكذا يصلون الى بارشم ويصبحون بعيدين عن الانظار قبل طلوع نهار الغد . » فقال بون :

« لكن حتى عربة البضاعة تكلف مالاً . وعلينا أن نختبىء هناك حتى موعد السباق ، وندفع مئة وخمسين دولاراً مقابل الاشتراك في السباق ، ولا أملك غير خمسة عشر او عشرين دولاراً . » ثم نهض وقال لند : « اذهب واحضر الحصان . أين بيت الرجل الذي أعطيته السيارة ? » فقالت الآنسة ريبا : « اجلس. عجيب أمرك . ستقع في ورطة عندما تعود الى جفرسون . ومع ذلك فانت تتلهى بعدّ البنسات . » ثم التفتت نحو الآنسة كوري وقالت : « هل سام في البلدة الليلة ? »

« نعم . »

« هل يمكنك العثور عليه ? » .

« نعم » . فقالت الآنسة ريبا لبون ان يخرج من هناك ويتمشى مدة ساعتين ، او يذهب الى بيت بيردي وات إذا شاء . ثم استحلفته بالله ان لا تسكر . وقالت : « من اين نحسب ان كوري تأكل وتدفع الايجار عندما تكون حضرتك في مستنقعــات ميسيسيبي منشغلاً بسرقة السيارات وخطف الاولاد ? » فقال بون « لن اذهب الى أي مكان . » ثم امر

نذ باحضار الحصان. فقالت الآنسة كوري : « لست مضطرة الى استقباله ، يمكنني ان اكلمه بالتلفون » . لم تقل الانسة كوري هذا القول غروراً او خجلا ، بل رصانة . كانت أكبر من ان يناسبها الغرور او الخجل . اما الرصانة فكانت تناسبها تماماً . وسألتها الانسة ريبا اذا كانت متأكدة، فأجابت نعم. فقالت لها ان تتلفن اذن . وقال بون « تعالي الىهنا » فتوقفت الانسة كوري، فقال ثانية :

« قلت تعالي الى هنا » . عندئذ اقتربت دون ان تكون في متناول يد بون . وفجأة لاحظت انها لم تكن تنظر اليه مطلقاً ، بل كانت تنظر إليّ . ولهذا تمكن بون ان يمد يده فجأة ويمسكها من ذراعها قبل ان تتمكن من تجنبه ، وجذبها اليه بينما راحت تحاول التملص منه، وهي ما تزال تنظر إليّ. ثم قالت له :

« اتركني . يجب ان اتلفن » . فقال بون :

« طبعاً ، طبعاً . هناك وقت لذلك . » وجذبها إليه ، فانحنت عليه وقبلته باستسلام من فشل في اظهار قوته وحصانته ، ثم نقرته على قمة رأسه وهي تنسحب . لكنه أنزل يده بسرعة وأمسك بمؤخرتها على مرأى من الجميع ، بينما راحت تجاهد للتخلص منه . ونظرت الي ثانية . كان في عينيها شيء كالتوسل – شيء يمتزج فيه الخجل بالحزن ، لست ادري – وصعد الدم بطيئاً الى خديها . واستمر ذلك دقيقة. كانت ما تزال تحاول ان تتصرف كسيدة . حتى أنها كانت

تجاهد للتخلص كسيدة أيضاً . لكنها كانت أكبر وأقوى من أن يتمكن أي شخص أن يمسك بها بيد واحدة ، وهكذا أفلتت منه . وقالت له : (ألا تخجل من نفسك ؟) ثم قالت الآنسة ريبا : « ألا يمكنك أن تنتظرها حتى تجري مكالمة هاتفية واحدة ؟ اذا كنت تريد المحافظة على عفتها لم لا تسكنها في مكان خاص بها حيث تبقى عفيفة وتحصل على قوتها ؟ » ثم قالت للآنسة كوري :» اذهبي وتلفني . صارت الساعة التاسعة . . »

كنا قد تأخرنا فعلا . فبدأ المكان يصحو - بدأ محموماً كما تقولون هذه الايام ، لكن بشكل محتشم : لم تكن هناك ضوضاء ، او موسيقى ، او حتى ابتهاج . وكان شبح السيد بنفورد ما يزال مسيطراً ، اذ لم يكن قد عرف بغيابه سوى سيدتين ، ولم يفتقده الزوار بعد . وسمعنا الجرس وصوت ميني الخافت عند الباب الامامي ، ووقع اقدام النساء وهن يهبطن السلم . وتناهت الينا جلبة الضيوف عندما فتحت الآنسة كوري الباب . وبدا ان الطفل اب للرجل وأم للمرأة . وكنت في جفرسون قد حسبت ان طراوة عودي ، وبراءة الطفولة ، هما اللتان جعلتا اللا فضيلة تلاقي فيّ عدواً ضعيفاً لا يستحق حتى لقب عدو. لكن مقاومتي دامت ما لا يقل عن ثلاث ساعات، بين اللحظة التي علمت فيها بوفاة جدي ليسيب حتى اللحظة التي تحرك فيها القطار وأدركت فيها ان مفتاح سيارة جدي صار بين يدي بون لمدة اربعة ايام على الاقل .

وها هم في هذا البيت وقد اختبروا مكائـــد اللاأفضيلة (أو الفضيلة) ومناوراتها بتجاربهم اليومية . وقد اشتد عودهم ، فلم يصمدوا ، مع ذلك ، ثلاثين دقيقة . هؤلاء الذين لم يكونوا قد عرفوا بوجود ند او الحصان قبل ثلاثين دقيقة ، هذا فضلاً عن الغريب الذي خرجت الانسة ريبا وهي واثقة من التغلب عليه بلا سلاح غير التلفون .

وعادت ميني واخذت المصباح وذهبت الى السقيفة الخلفية. ولاحظت ان ند أيضاً لم يكن في الغرفة بل كان في المطبخ يتحدث الى ميني . وفجأة سمعنا صرخة سريعة قوية أطلقتها ميني ، ثم سمعنا وقع اقدامها . ودخلت الغرفة وهي تلهث . ثم تبعتها الآنسة كوري وهي تقول برصانة : « حسناً ، إنه آت . وسيساعدنا . إنه ... » فهب بون مقاطعاً : « لن يساعدني انا هذا اللعين . » فقالت له الآنسة ريبا : « انصرف إذن. اخرج من هنا. ماذا ستفعل ؟ هل ستعود الى ميسيسبي ماشياً أم على الحصان ؟ هيـا ، اجلس . » ثم اشارت الى الآ نسة كوري ان تسرد التفاصيل فقالت : « انه ليس سائق قطار ، بل رجل اشارة . ولو انه يلبس بزة كالتي يلبسهـــا السائق . وهو سيساعدنا . »

أرأيت ؟ العالم كله يحب العاشق . هكذا قالت الاوزةالتي ترى أعماق قلب الانسان . لكن المؤسف انه لا يعرف شيئاً عن الخيول . ويبدو ان العـالم كله يحب ايضاً حصان السبق المسروق . هكذا قالت لنـا الآنسة كوري . وكان اوتيس

موجوداً هذه المرة. كان فيه شيء غريب لم ألاحظه إلا عندما اوشك الأوان ان يفوت . قال : «علينا أن نشتري على الأقل تذكرة واحدة الى بوسم ليكون لدينا ... » فقاطعته الآنسة ريبا : « اسمهـــا بارشم . » فتابع كلامه قائلا : « حسناً . ليخصص لنا مكان نضع فيه الحصان على انه امتعة . سيحضر سام التذكرة وقسيمة الامتعة معه. وسيتم كلشيء على ما يرام. وستكون هناك مقطورة فارغة واقفة على خط فرعي ،يعرف سام مكانها ، فنضع الحصان في زاوية منها وندق حوله بعض الالواح الخشبية لئلا ينزلق.وسيعد سام بعض الالواح والمسامير. ان المجازفة الوحيدة ، هي في نقل الحصان من هنـــا الى المقطورة » . وهنـــا توقفت عن الكلام ونظرت الى ند فقال لها :

« ند وليام ماك كاسلن جفرسون ميسيسبي » . وهنـــا استأنفت كلامها قائلة :

« ... من غير المناسب ان يسير ند في الشارع ، وان كان شارعاً خلفياً ، في مثل هذا الوقت المتأخر وهو يقود حصاناً. لان أول شرطي يلتقي به سيوقفه . لذلك سيحضر سامبطانية ويلبس بزته الرسمية ونقود الحصان ، أنا وهو وبون، الىالمحطة ولن يلاحظ احد شيئاً . اوه، نعم ، سيقوم قطار الركاب..» فقاطعتها الانسة ريبا قائلة : « يا إلهي . مومس وسائق قطار بولمان ، وجرذ من مستنقعات ميسيسبي بحجم صهريج الماء ، يقودون حصان سباق في ممفيس ، وفي منتصف ليلة الأحد ،

ولا يلاحظ ذلك أحد ؟ » فأوقفتها الانسة كوري عن الكلام الا انها تابعت قائلة : « أوه . لو انـه أتى من ميسيسيبي مع بون في زيارة ودية لكان في وسعنا ان نحميه . امـا ان يستخدموا هـذا المكان كمركز رئيسي ويسرقوا السيارات والخيول ، فشيء آخر ، وعليه ان يجازف مثل غيره . ماذا قلت عن القطار ؟ » فقال ند : « صحيح . ان قطار الركاب الذي يغادر واشنطن في الساعة الرابعة صباحاً سيأخذ العربة، فنصل كلنا الى بوسم قبل طلوع النهار » . فصاحت بـــه الآنسة ريبا :

« بارشم ، لا بوسم ، ايها اللعين ! » فقال :

« عفواً ، ألست آتية أنت ايضاً ؟»

الفصل السابع

وهذا ما فعلناه ، مع أن سام اراد ان يرى الحصان اولاً. فقد دخل من الجهة الخلفية عبر المطبخ حاملا بطانية الحصان. وكان يلبس بزته الرسمية وكان تقريباً في ضخامة بون .

هكذا وقفنا جميعنا مرة ثانية في الساحة الخلفية . كان ند يحمل المصباح هذه المرة ولم يكن يوجه ضوءه إلى الحصان بل إلى سترة سام ذات الازرار النحاسية ، وقميصه وقبعته المسطحة التي كتب على مقدّمتها بأحرف ذهبية . والواقع أنني انتظرت ان يسبّب مشكلة بشأن سام والحصان ، لكنني كنت مخطئاً . وقال ند : «من ، انا ؟ لماذا ؟ لن تكون الحالة أفضل، إذا قام شرطي بقيادة ذلك الحصانبنفسه الى بوسم. » وعلى العكس ، كان بون هو الذى سيسبب المشكلة . ونظر سام الى الحصان قائلا :

« هذا حصان ممتـاز ، كما يبدو لي . » فرد بون قائلا :
« طبعاً ، ليس له صفارة او جرس . بل ليس له حتى مصابيح أمامية . استغرب كيف يمكنك ان تراه » .

« ماذا تعني بذلك ؟ »

«لا اعني شيئاً غير ما قلته . انت اختصاصي بالخيول الحديدية . قد يكون من الافضل ان تذهب الى المحطة دون ان تنتظرنا . »

فقالت الانسة ريبا :

« ألا ترى انه يحاول ان يساعدك ؟ انه يورط نفسه كي لا يكون العمدة اول حيوان حي تقابله عند عودتك الى بلدك . انه هو الذي يجب ان يدعوك الى الانصراف من هنا مع الحصان. إعتذر » . فقال بون : « حسناً . لننس ذلك » .

وتكلم سام فقال : « ايتها السيدتان ، هل تريدان ان يذهب هذا الحصان الى بارشم الليلة ام لا ؟ » فقالت الانسة كوري ، وهي تنظر إليّ والى أوتيس : « يجب ان تكونا في الفراش » . فوافقتهـا الانسة ريبا ، قائلة : « طبعاً . ذلك يحدث في اركنساس او في مسيسيبي او حتى في مكان ابعد من ذلك لو ترك الأمر لي . لكن فات الاوان الان . لا يمكنك ان ترسلي احدهما لينـام دون الاخر ، والصبي الاخر هو رفيق بون ، وهو يملك جزءاً من الحصان . » وفي آخر لحظة لم تستطع الانسة ريبا ان تذهب هي ايضاً . ولم يكن بالامكان الاستغناء عنها وعن ميني فقد اصبح البنسيون يعجّ بالزبائن .

هكذا وضع ند وبون البطانية على الحصان . ثم راقبنـا

من الرصيف – انا وند واوتيس – بون وسام ... اللذين لم تكن بينها صداقة بل هدنة ، وبينها الآنسة كوري ، وهما يقودان الحصان وسط الشارع ، ليلة الأحد الهادئة . كانت هناك انوار قليلة – انوار البنسيونات فقط (اصبحت لي خبرة الان – لم اكن خبيراً تماماً ، لكنني اصبحت ملماً بهذا الأمر . فقد كنت اعرف المكان المشابه لبنسيون الانسة ريبا حالما أراه) . وكانت الحانات كلها معتمة . لم اكن اعرف الحانة بمجرد المرور بها ، ولكن ند اخبرنا ، انا واوتيس ، انها حانات وانها مقفلة . كنت أتوقع ألا تكون مقفلة او مفتوحة . تذكر انني كنت في ممفيس (او في شارع كاتالبا) قبل أقل من ست ساعات دون ان يكون ابي او امي معي ليوجهاني . كنت اتقدم بسرعة .

وقال ند: «هذا يسمى القانون الأزرق» فأجاب: « لا اعرف الا اذا كان يعني انهم صرفوا كل ما لديهم من مال ليلة السبت ولم يبق مع اي منهم ما يكفيه الان » . وقال أوتيس :«هذا بالنسبة للحانات فقط . بذلك لا يتضرر احد وإذا لم يبيعوه ليلة الأحد يمكنهم الاحتفاظ به وبيعه الى شخص ما . او الى الاشخاص انفسهم ، ليلة الاثنين . لكن الوصوصة غير ذلك. يمكن استثمارها الليلة ثم تعود لاستثمارها غداً . لا تخسر شيئاً واذا جربوا تطبيق ذلك القانون الازرق على الوصوصة فان الشرطة ستتدخل وتمنعهم » .

وسألت : « ما هي الوصوصة ؟ »

فقال ند : « انت تعرف اشيـاء كثيرة ، اليس كذلك ؟ لا غرابة في ان اركنسو لا تسعك اذا كان جميع الناس هناك يعرفون مقدار ما تعرف في سنك ، فان تكساس لن تسعهم عندما يصبحون في سن الحادية والعشرين ! » وكررت قائلا : « ما هي الوصوصة ؟ » فردّ ند ، متابعـاً بصوت أعلى : « فكر في تقديم بعض الطعام الى ذلـك الحصان ، كي تستطيع ابقاءه هادئاً الى ان نوصله الى بوسم ثم نضعه على ذلك القطار » . ثم وجه كلامه الى اوتيس : « ربمـا احتجنا الى دلو ماء وصابون كي تأخذك عمتك وتغسل لك فمك ، أو ربما الى اقرب عصا » .

ثم قابلنا شرطياً . اعني ان اوتيس رأى الشرطي قبل ان يرى الشرطي الحصان . كان الشرطي يعرف الانسة كوري . وبدا أنــه يعرف سام ايضاً . وقال الشرطي : « الى اين تأخذونه ؟ هـل سرقتموه ؟ » فردّ سام : « استعرناه » ولم يتوقفوا عن السير . وتابع سام قائلا : « ركبنـــاه لحضور الصلاة الليلة وها نحن نعيده الان » . وتابعنا سيرنا . وكان أوتيس يشتم . وقال : « لم أر ذلك من قبل . ما رأيت شرطياً يكلم شخصاً من قبل إلا كان هـــذا الشخص يعطيه شيئاً . فميني والانسة ربيا تبقيان زجاجة بيرة في انتظاره ، قبل ان يدخل ، على الرغم من ان الانسة ربيا تشتمه قبل ان يأتي وتشتمه بعد ان يذهب . ومنذ مجيئي الى هنا في الصيف الماضي ومعرفتي بهذا الامر ، اذهب كل يوم الى ساحة المحاكم حيث

يعرض ذلــك الايطالي التفاح والفستق فأرى شرطياً يأتي الى هناك ، ودون ان يلاحظه احد يأخذ تفاحة وقبضة فستق .»

كان يجري تقريباً ليلحق بنا ، فقد كان اصغر مني بكثير. أعني انه لم يكن يبدو اصغر بكثير الا عندمــــا تراه يجري للحاق بنا . كان فيه شيء غريب . فأنت مثلا تقول لنفسك « سأكون في السنة الآتية أكبر مما انا الآن » ، لمجرد ان ذلك امر طبيعي لا مفر منه ، ولا يهم اذا لم تكن تتصور كيف ستبدو حينئذ . وينطبق الشيء نفسه على بقية الأطفال. لكن بالنسبة لأوتيس ، فهو يبدو كأنما وصل قبل سنتين او ثلاث الى حيث لن نصل في السنة الآتية ، ومنذ ذلك الحـــين وهو يعود الى الوراء . كان ما يزال يتكلم . « لذلك فان الشيء الوحيد الذي فكرت فيه حينئذ هو ان اكون شرطياً . لكن ذلك التفكير لم يدم طويلا . انه عمل محصور جداً . . »

فسأل ند : « محصور بماذا ؟ » فأجاب اوتيس : « بالبيرة والتفاح والفستق . من يضيــع وقته على البيرة والتفــاح والفستق ؟ » ثم شتم ثلاث مرات . وقال : « هذه هي البلدة حيث يوجد المال . المال . النقد . إنني افكر بالوقت الذي أضعته سدى في اوكنساس قبل ان يخبرني احد عن ممفيس . تلك السن . كم تظن ان تلك السن وحدها تساوي ؟ لو انهــا دخلت المصرف واقتلعتها ووضعتهـــا على الطاولة وقالت اصرفها لي ؟ »

فقال ند : « نعم . اذكر صبياً مثلك في جفرسون كان

يفكر في المال دائماً . أتعرف اين هو الان ؟ » وردّ أوتيس : « نحنا في ممفيس ان كان عنده أي ادراك » . فقال ند : « لم يتمكن من الوصول الى مكانبعيد كهذا. أبعد مكان تمكن من الوصول اليه هو اصلاحية الولاية في بارشمان . وتبدو أنت ، من النهج الذي تسلكه ، انك ستنتهي هناك ايضاً . »

« لكن ليس غداً . وربما ليس اليوم الذي يليه . ليس هناك من شرطي يمر دون ان توضع في يده زجاجة بيره او تفاحة او قبضة فستق قبل ان يطلبها . احياناً عندما افكر في الامر أشعر بأنني احب ان اترك » .

« تترك ماذا ؟ تترك من اجل ماذا ؟ »

« اترك فقط . عندما اتذكر السنين كلها التي قضيتها في تلك المزرعة في اركنساس، بينما تقع ممفيس هنا عبر النهر دون ان اعرف بوجودها . كيف يكون الأمر لو انني عرفتعندما كنت في الرابعة او الخامسة من عمري ما انتظرت حتىالسنة الماضية لأعرفه؟ أحياناً لا اريد إلا أن أترك واذهب . لكنني اظن انني لن افعل ذلك . قد اتمكن من تعويضه . كم تعتقدون انكم سترنجون من ذلك الحصان ؟ »

فقال ند : « لا تفكر في ذلك الحصان . والتعويض الذي تحتاج اليه هو ان تعود في ذلك الشارع الى حيث ستنام الليلة ، وتذهب الى الفراش . » وتوقف قليلا وهو يلتفت نصف التفاتة ، ثم تابع قائلا : هل تعرف طريق العودة ؟ » فردّ اوتيس : « لا شيء هناك ، جربت ذلك من قبل . انهم

يراقبون جيداً . الحال هنا غيرها في اركنساس عندما كانت عمتي كوري عند العمة فيتي وكان عندي ذلك الثقب أوصوص منه . اذا كنت استبدلت السيارة بهذا الحصان فلا بد انك تعتقد بكسب مئتين على الأقل ...» وادار ند هذه المرة دورة كاملة . فقفز اوتيس هاربا وهو يشتم ند ويدعوه زنجيا – هناك شيء علمني اياه ابي وجدي من قبل وهو ان السيد المحترم لا يشير الى لون الشخص الآخر او الى دينه . وقلت : هيا بنا . انهم يتركوننا .

كانوا يسبقوننا الآن يحادثين ، ويدورون حول منعطف . فركضنا انا وند لنلحق بهم . وتمكنا من ذلك بعد جهد . كانت المحطة أمامنا وكان سام يتكلم مع شخص آخر يلبس ثوب عمل متسخاً ويحمل فانوساً – كان عامل تحويل ، عامل سكة حديد على اي حال . وقال ند : هل ترى ما أعني ؟ هل يمكنك ان تتصور شرطياً يرسل شخصاً ومعه فانوس ليرينا الطريق ؟ ويمكنك ان ترى ما أعني ايضاً : العالم كله (اعني بالنسبة الى حصان سباق مسروق) . كل من يخدم الفضيلة يعمل منفرداً ودون مساعدة، لكن حين تبيع نفسك الى اللا فضيلة تجد ان الجوار كله مملوء بالمتطوعين لمساعدتك . يبدو ان سام كان يحاول ان يقنع الآنسة كوري بالانتظار في المحطة معي ومع اوتيس ، بينما يقومون هم بايجاد عربة سكة الحديد وتحميل الحصان عليها . كما اقترح ان يقوم بون بحمايتنا بسبب ضخامته وعمره مثبتاً انه مُحب وواثق .

ولكن الآنسة كوري رفضت وكانت تتكلم باسمنا جميعاً .
لذلك تبعنا الفانوس وعبرنا بوابة الى مكان مليء بأرصفة التحميل والخطوط . كان على ند الآن ان يتقدم ويمسك الرسن ليهدىء الحصان وهو يحدثه بصوت خافت ويقوده بين عربات الركاب ثم في ممر ضيق يؤدي الى مستودع كبير معتم امامه رصيف تحميل . كانت العربة هناك ايضاً ، وكان بينها وبين أقرب نقطة من الرصيف حوالي خمسة وعشرين قدماً من الفراغ الذي يضيئه القمر (نعم . كنا في ضوء القمر الآن ، بعيدين عن انوار الشوارع وانوار المستودع . كان باستطاعتنا ان نراه الآن) . ولعن سام بهدوء جميع موظفي المستودع من عمال تحويل وعمال حظيرة وبائعي تذاكر .

وقال الرجل الذي يحمل الفانوس : سأذهب لاحضر قاطرة . فقال ند : لا نحتاج الى قاطرة . ومهما كانت المسافة التي يستطيع ان يقفزها ، فاننا نحتاج إما الى تحريك ذلك الرصيف او تحريك العربة . وتساءل سام : يعني قاطرة التحويل ؟ ثم قال للرجل الذي يحمل الفانوس : كلا لقد توقعت هذا. اما ان يخطىء عمال التحويل مسافة خمس وعشرين قدماً فأمر سيء جداً .. لهذا السبب طلبت منك ان تحضر مفتاح غرفة القسم . احضر المخول . قد لا يكون لدى السيد بون مانع في مساعدتك .

فقال بون : لم لا تذهب انت ؟ انها سكتك الحديدية . انني غريب هنا . وقالت الآنسة كوري : لم لا تعيد هذين

الولدين الى البيت ليناما ، اذا كنت خجولا الى هذا الحـــد امام الغرباء ؟

— لماذا لا تعيديها الى البيت بنفسك ؟ قـال لك صديقك مرة انه ليس لك اي عمل هنا .

— سأذهب معه لاحضار المحول . ارجو ان تنتبه للولدين.

— حسناً ، حسناً. لنفعل شيئاً ، بالله عليكم سيصل ذلك القطار خلال اربع أو خمس ساعـــات بينما نضيع الوقت ونتجادل حول من سيقوم بالعمل ، اين غرفـــة الأدوات يا جاك ؟

وهكذا ذهب مع الرجل الذي يحمل الفانوس ولم يبق معنا سوى ضوء القمر . ورأيت الحصان يحك انفه بمعطف ند كأنه حيوان مدلل . وكان سام يفكر فيما كنت افكر فيه منذ ان رأيت الرصيف . قال : هناك سقالة في المؤخرة . هل مشى على سقالة من قبل ؟ لم لا تأخذه الآن وتدعه يراها . عندما تركز العربة في موضعها يمكننا جميعا ان نساعدك على رفعه إن اقتضى الأمر .

فقال ند : لا تضيّع وقتك بالقلق علينا. ما عليك إلا أن تحضر تلك العربة الى مكان قريب فلا يضطر الى القفز ، حتى مسافة عشر اقدام . هذا الحصان يريد ان يخرج من ممفيس بقدر ما تريد انت .

وكنت أخشى ان يقول سام : ألا تريد أن يذهب هذا الصبي معك ؟ لأنني كنت اريد ان ارى تلك العربة تتحرك .

لم اصدق ذلك . وهكذا انتظرنا . لم يطل الامر اذ عاد بون مع الرجل الذي يحمل الفانوس ، وهما يحملان مخلين يبلغ طول الواحد منهما حوالي ثماني اقدام . ووقفت اراقبهم (كذلك الآنسة كوري واوتيس) وهم يقومون بالعمل . ووضع الرجل الفانوس أرضاً ، وتسلق السلم المؤدي الى السطح وفك عجلة الفرملة ، بينما ادخل سام وبون طرفي المخلين بين العجلتين الخلفيتين وخط سكة الحديد ، وكانا يضغطان ويدفعان. ومع ذلك لم اصدق ان بامكانهما تحريك العربة التي كانت تظهر سوداء ومربعة وعالية في ضوء القمر ، وكانت ثابتة ومربعة كجدار اسود يحيط به اطار فضّي شكّله ضوء القمر . وكان يبدو فوقها شبح صغير يدير عجلة الفرملة وخلفها شبحان صغيران آخران يضغطانها ويدفعانها . كانت ضخمة صعبة التحريك حتى أنها لم تظهر لأول وهلة انها هي التي تتحرك الى الامام ، بل بدت وكأن بون وسام يمشيان الى الوراء.واخيراً رمى سام وبون المخلين ودفع بون العربة بيديه بلطف الى جانب الرصيف حتى وصلت الى الموضع المعين ، فقال سام :

– حسناً ، وشد الرجل عجلة الفرملة فوقها ثانية . لم يبق علينا الآن سوى ادخال الحصان فيها . وكان ذلك يشبه القول: ها نحن في ألاسكا.ما علينا الان الا ان نعثر على منجم الذهب. ثم ذهبنا الى مؤخرة المستودع . كانت هناك سقالة مربوطة بالحبال . لكن الرصيف كان مبنياً بحيث يكون ارتفاعه مناسباً للتحميل منه والتفريغ عليه . وكانت السقالة مجرد ممر

لعربات اليد وقوية لكن عرضها لا يزيد على خمس اقدام ، ولم يكن لها درابزين . كان ند واقفاً هناك يحدث الحصان قال : لقد رآها . يعرف اننا نريده ان يمشي عليها لكنه لم يقرر بعد ان كان يريد ذلك . ليت رجل سكة الحديد يذهب ويستعير سوطا . وقال بون : لديك واحد . وكان يقصدني – انها احدى خدعي . كنت احدث بلساني صوتاً شديداً وعالياً تماماً كأنه ضربة سوط . واخيراً منعتني امي ان افعل ذلك في اي مكان داخل ساحة بيتنا وفي البيت . ومرة جعلت جدتي تقفز وتشتم . كان ذلك قبل سنة ، وقد اكون نسيت كيف افعل ذلك الان .

فقال ند: هذا صحيح .اذن لدينا واحد . وقال لي : احضر غصناً طويلا . لا بد انك ستجد واحداً في السياج الموجود هناك .لعل هذا كان سياج احدى الحدائق قبل ان يأتي التقدم والصناعة والتجارة وسكة الحديد . فقطعت غصناً وعدت . وقاد ند الحصان الى فوق ، مواجهاً السقالة ، واشار الى السيدبون والسيد رجل سكة الحديد ان يصعدا ويقفا كل في جانب كأنهما طرفا بوابة . ففعلا ذلك واصبح ند الان في منتصف السقالة يمسك الرسن ويواجه الحصان ويكلمه قائلاً : هيا بنا.اصعد هذا الممر الصغير الى قمة المجد ، وبوسم في تنسي ، عند شروق الشمس غداً . ثم عاد ونزل وهو يدير الحصان ويسير بسرعة اكبر ووجه كلامه اليّ قائلا : لا تدعه يرى الغصن . قف خلفه مباشرة . لا تلمسه او تطقطق الى ان

اقول لك. هذا ما فعلته وسرنا نحن الثلاثة ـ انا وند والحصان ـ في اتجاه معاكس للسقالة مسافة عشرين ياردة تقريباً ثم ادار ند الحصان دون ان يوقفه وانا اتبعه الى ان جعله يواجه المكان الذي ترتفع منه السقالة بين بون وسام على بعد عشرين ياردة . وعندما رأى السقالة تراجع وقال لي ند ان اطقطق، فأحدثت الصوت ، وكان عالياً ، فقفز الحصان قليلا بينما كان ند يتحرك الى الوراء في اتجاه السقالة . وتابع يقول : عندما اقول لك ان تطقطق هذه المرة ، ألمسه بالغصن . لا تضربه ، بل ألمسه على طرف ذيله بعد ثانية من طقطقتك . ومر بين بون وسام وأصبح على السقالة . وكان الحصان يحاول الان ان يقرر ماذا يفعل : هل يرفض ام يفر (وهنا عليه ان يقرر من سيدوس في طريقه : بون ام سام) او يجمح ويوقعنا كلنا. كان باستطاعتك ان ترى ذلك وشيك الوقوع . وقال ند : طقطق ! وهذه المرة لمست الحصان ايضاً كما قال لي ند فاضطرب الحصان قليلا وقفز ، واصبحت قدماه الاماميتان فوق السقالة وقدمه الخلفية القريبة من بون تضرب حافة السقالة وتنزلق عنها الى ان امسكها بون قبل ان يتكلم ند ووضعها على السقالة . لم يعد الحصان يتحرك الان ، وكان يرتجف وأرجله الاربع فوق السقالة. وقال ند : الان ضع الغصن على مأبضيه ليحسب ان خلفه شيئاً يمنعه من السقوط. فقال سام :

– تعني كي لا يتراجع على السقالة . نحتاج الى احد المخلين. اذهب وأحضره يا تشارلي .

وقال لي ند : نعم . سنحتاج الى المخل بعد لحظة ، لكن ما نحتاج اليه الان هو ذلك الغصن . انك صغير . اعطه الى السيد بون والسيد رجل سكة الحديد .ضعاه خلف مأبضيه . وفعلا ذلك ، إذ امسك كل واحد منهما بأحد طرفي الغصن . «الان سيّراه الى فوق . عندما اطلب منك ان تطقطق هذه المرة ، طقطق بصوت عال بحيث يعتقد ان الضربة ستكون قوية ايضاً ». لكنني لم احتج الى الطقطقة ثانية . وقال ند الحصان : هيا يا بني . لنذهب الى بوسم . وتحرك الحصان بينما كان بون وسام يتحركان معه وهما يضغطان بالغصن إلى أن اصبحت قدماه الاماميتان فوق الرصيف ، ثم قفز واصبح فوق الرصيف . فقال سام :

« اننا نحتاج الى اكثر من ذلك الغصن وطقطقة لسان ذلك الصبي لإدخاله الى العربة . » وقال ند :

ــان الذي سيدخله الي العربة هو ذلك المخل . ألم يصل بعد ؟ » وكان قد أحضر الان فتابع ند كلامه قائلا : انقلوا ذلك المشى . وسأله سام : لماذا ؟ فأجابه: «ليسير عليه عندما يدخل العربة . لقد اعتاد عليه الان ، ورأى ان ليس في الطرف الاخر ما يؤذيه او يخيفه »

كانت فكرة ند معقولة . ولم يعد هناك من مجال للتردد حتى لو امرنا نــــد ان نهدم جداري المستودع كي لا يتعرض الحصان للخطر . وهكذا قــــام بون وموظف سكة الحديد بابعاد السقالة عن الرصيف. وقال سام : عجباً !ألا تستطيعان

تحريكها بهدوء ؟ فأجاب ند قائلا :ألست موجوداً معنا هنا؟ طبعاً يمكنك ان تستفيد من تلك الأزرار النحاسية فائـــدة اكثر من مجرد التنقل بها . وهنا اضطررنا كلنا ، حتى الانسة كوري ، الى رفع السقالة الى ما فوق الرصيف وحملها ووضعها بشكل جسر بين الرصيف وباب العربة، ثم قاد ند الحصان وفي الحال فهمت ما عناه سام . ولم يكن الحصان قد شم رائحة عربة فارغة من قبل غير أنه بخلاف الادميين تمكن من رؤية داخلهـا . ولكن لم يحصل اي شيء ، أعني لا أعرف ماذا حصل كما لم يعرف أي منا . وقاد ند الحصان ، وكان صوت حوافره يرن فوق الالواح الخشبية حتى نهاية السقالة التي اصبحت الان كالجسر . وكان ند يقف على الجسر داخل البـاب وهو يكلّم الحصان ويجره بلطف من الرّسن الى ان وضع احدى قدميه الأماميتين فوق الجسر . لم اعرف في اي شيء كنت افكر . قبل لحظة كنت اعتقد أن ليس في ممفيس كلها عدد كاف من الاشخاص لادخال الحصان من تلك الفتحة المعتمة . ثم بعد لحظة ، عندما كنت اتوقع حدوث القفزة التي تدخل الحصان الى العربة كما حدث فوق السقالة ، رفع الحصان قائمته وتراجع الى الرصيف بينما كان هو وند متواجهين . وسمعت ند يتنفس مرة واحدة ، قائلا :

ـ ارجعوا جميعا نحو الجدار . وهذا ما فعلناه . ثم لم اعرف ما الذي فعله . لكنني رأيته وهو يمسك الرسن بيد واحدة ويربّت بالأخرى على انف الحصان. ثم عاد الى العربة

واختفى ولم يسمع سوى صوته : هيا يا بني . انه هنا .

وقال سام: «يا للعجب .كان قد تم كل شيء وصار الحصان داخل العربة ». وادخلنا الفانوس ،فلمعت عينا الحصان حيث كان ند يقف معه في الزاوية . وسأل ند سام قائلا : اين الواح الخشب والمسامير التي تحدثت عنها ؟ أدخل ذلك المشى فهو يشكل حائطاً كاملا . فقال سام :

« عجباً ! مهلا الان ! وقال ند : عندما يجيء الناس الى هنا غداً صباحاً ويجدون ان احدى العربات قدفقدت بكاملها ، لن يكون لديهم وقت للبحث عن سلم بسيط . وهكذا قمنا جميعنا» باستثناء ند ،بحمل السقالة الى العربة وامسكناها في المكان المناسب بينما قام بون وسام وموظف سكة الحديد (وكان سام قد أعد ألواح الخشب والمسامير ايضاً) ببناء جدار حول الحصان في زاوية العربة .وقبل ان يكون باستطاعة ند ان يتكلم كان سام يحضر دلواً من الماء وصندوقاً من الحبوب وربطة من العشب وقال ند : كأنه في « بوسم » الان ... فقال سام: خير لكم ان تتمنوا ان يقطع الحصان خط الوصول مجلّياً بعد غد . ما هو الوقت الآن ؟ ثم قال لنفسه : بعد منتصف الليل بقليل . هناك وقت للنوم قبل ان يرحل القطار في الرابعة . ثم وجّه كلامه إلى بون قائلا : طبعاً تريد ان تبقى انت وند مع حصانكما هنا ، ولهذا السبب احضرت كمية اضافية من العشب . ناما هنا وسآخذ كوري والولدين الى البيت وسنلتقي هنا في – .

وقال بون عابساً : تقول انك ستقابلنا هنـــا في الساعة الرابعة . اذا لم تتأخر في النوم رأيناك هنـــا . وبدأ يدور وقال : هيا بنا يا كوري .

وقالت الانسة كوري : لن اعود الى البيت مع احد يا بون ! هيا يا لوشيوس ، انت واوتيس . فقال سام : لا بأس . لا ننسى ان بون يكد خمسة او ستة اشهر في حقل القطن او ما شابه لقضاء ليلة واحدة في شارع كتالبا .اذهبوا جميعكم . سأراكم في القطار .

وهكذا ودعنا سام وند وتشارلي (كلنا مـــا عدا بون واوتيس) وعدنا الى بنسيون الانسة ريبا. كانت الشوارع خالية وهادئة . وكانت ممفيس تحـاول الحصول على قليل من النوم والراحة لتواجه بها صباح الاثنين . وسرنا بهدوء ، من ضوء الى ضوء بين الشبابيك المعتمة والجدران . وظهر ضوء خافت خلف ستارات شباك الانسة ريبا . وفتحت لنا الانسة ريبـا الباب الامامي ، وكانت رائحة الجن تفوح منهـا . ووجدناها قد غيّرت ثوبهـــا ، ولم يكن لهذا الثوب جزء علوي بالمرة تقريباً . وفي تلك الايام لم تكن النساء يصبغن وجوههنّ بالمعنى الحقيقي ، لهذا كانت المرة الاولى التي ارى فيها ذلك ايضا . وكانت تلبس المزيد من الماس الكبير الضارب الى الصفرة ، كالماستين الاوليين . لا : خمس ماسات . ولم تكن ميني قد ذهبت الى الفراش بعد ، بل كانت تقف بباب غرفة الانسة ريبا وهي تبدو منهوكة القوى .

وقالت الانسة ريبا وهي تقفل الباب خلفنـا : هل رتبتم كل شيء ؟ فردّت الانسة كوري :

-نعم .لماذا لا تذهبين الى فراشك ؟ خذيهـا يا ميني الى الفراش . فقالت ميني : كان باستطاعتك ان تطلبي ذلك قبل ساعة . انني آمل الا يكون هناك من يطلب ذلك بعد ساعتين . لكنك لم تكوني هنا في المرة الماضية قبل سنتين.

ثم صعدنـا الى فوق . كان اوتيس يعرف الطريق الى السقيفة حيث لم يكن يوجد غير بعض الحقائب والصناديق وفراش موضـوع على الارض . ولبس أوتيس قميص نوم (وكانت لا تزال تظهر عليه الثنيات كما اشترته الانسة كوري من المخزن) وذهب الى الفراش كذلك فعلت أنا، اذ خلعت بنطلوني وحذائي واطفأت النور واستلقيت على السرير .وكان هناك شباك صغير وقد استطعنـا رؤية القمر كما استطعت ان أرى داخل الغرفة ، بفضل ضوء القمر . كان فيه شيء غير طبيعي . كنت تعباً واثناء صعودي الدرج ظننت انني سأنام قبل ان استلقي تماماً . لكنني كنت اشعر به مستلقياً بجانبي ليس مستيقظاً فحسب ، بل كأنه لم يفهم في حيـاته ولم يعرف النوم بتاتاً .وفجأة شعرت ان هناك شيئاً غير طبيعي يتعلق بي أنا أيضاً . ولم اكن اعرف ما هو بعد ، لكنني كنت اعرف أن هناك شيئاً غير طبيعي . وخلال دقيقة عرفت ما هو وكرهته .وفجأة لم ارد ان اكون هناك بتاتاً . ولم اكن اريد ان اكون في ممفيس او ان اكون قد سمعت بممفيس ، بل

اردت ان اكون في البيت .

وقال : «المال موجود هنا. يمكنك ان تشمه. ليس من العدل أن تكسب النساء فقط مالاً بواسطة الوصوصة ، بينما كل ما على الرجل ان يفعله هو ان يحـــاول الحصول على قليل منه في طريقه». لقد ذكر تلك الكلمة التي سألت عن معناها مرتين . لكنني لم أسأل مرة اخرى، وبقيت مستلقيا متوتر الاعصاب بينما ضوء القمر يسقط على رجلي ورجلي اوتيس الذي كنت احاول ألا أسمعه لكنني كنت مضطراً الى سماعه وقال :

– كم يبلغ عمرك ؟ .

– أحد عشر عاماً .

–انك تعرف الكثير ، أليس كذلك ؟ من اي بلد انت ؟ من مسيسيبي .

– لا عجب في انك لا تعرف شيئاً .

– حسناً . بي هي الانسة كوري .

– ها أنذا هنا أفقد المال كأنه لا شيء . لكن ربما تمكنا معاً من عمل شيء . طبعاً . اسمها افربي كورنتيا ، وقد سميت كذلك باسم جدتي . انه اسم غريب . انه سيء حتى هنالك في كيبلت ، حيث عرفه بعضهم وألفوه بينما كان الآخرون مستعجلين بحيث لم يهمهم أن تسمّي نفسها بأي اسم . ولكن هنا في ممفيس تحاول كل فتاة ، كما قيل لي ، ان تدخل بيتاً كهذا ، حالما تشغر غرفة . ولم يكن لهذا اي تأثير في كيبلت، بعد ان توفيت امها واخذتها العمة فيتي لتربيها ، وجعلتها تبدأ

عملها حالما كبرت . ثم عندما وجدت ان في ممفيس مالاً أكثر، جاءت الى هنا حيث لا يعرف احد شيئاً عن أفربي ، وهكذا دعت نفسها كوري . لهذا فانني كلما اتيت لزيارتها ، كما حصل في الصيف الماضي في هذه المرة ، تعطيني يومياً خمسة سنتات كي لا أخبر أحداً ، وبدلا من أن أخبرك ، كما زلق لساني وفعلت ، كان بامكاني ان اذهب اليها وأقول لها يمكنني بخمسة سنتات يومياً ان احاول النسيان، لكن عشرة سنتات يومياً تجعلني اضاعف محاولتي ولكن لا بأس ، أستطيع ان اخبرها غداً أنك تعرف أيضاً وقد نستطيع كلانا . »

« من هي العمة فيتي ؟ »

« لا ادري . كان الناس يدعونها العمة فيتي . ربما كانت قريبة أحدنا ، لكنني لا أعرف . عاشت وحدها في بيت عند طرف البلدة الى ان أخذت بي الى بيتها بعد ان توفيت ام بي. وهذا لم يستغرق وقتا طويلا ، لأنها كانت كبيرة قبل ان تبلغ العاشرة أو الحادية عشرة او الثانية عشرة او أياً كان عمرها ، وبدأت .

« بدأت ماذا ؟ » كان علي ان اسأل هذا السؤال . لقد ذهبت الى أبعد من أن استطيع التوقف الان ، كما حصل في جفرسون امس – وهل كان أمس ؟ السنة الماضية : كان وقتاً آخر : حياة اخرى : لوشيوس بريست آخر . « ما هي الوصوصة ؟ »

وأخبرني بشيء من الازدراء ، لكن بنوع من الدهشة ،

قائلا : « كان عندي هنـاك ثقب لاستراق النظر - ثقب في الجدار الخلفي ، عليه قطعة تنك متحركة لم يكن أحـد غيري يعرف كيف يحركها ، بينما تكون العمة فيتي في الجزء الامامي من البيت تجمع المـال وتراقب . كان على من هم في سِنّك ان يقفوا على صندوق بينما آخـذ خمسة سنتات من كل منهم الى ان عرفت العمه فيتي أنني كنت أدع الرجال الكبار يتفرجون مقابل دفع عشرة سنتات بدلا من أن يدخلوا البيت ويدفعوا خمسين سنتاً ، وبدأت تصرخ كقطة برية ... »

وسرعان ما رأيتني واقفاً ، أضربه بشكل أثار دهشته (ودهشتي ايضاً) مما اضطرني ان أنحني وأمسك به ثم أرفعه الى حيث يمكنني ان أطاله . لم اكن اعرف شيئاً عن الملاكمة او عن المشاجرة . لكنني كنت اعرف تماماً ما اريد : لم اكن اريد ان أؤذيه فقط ، بل ان احطمه . اذكر انني انتبهت فجأة الى أنّ حجمه لم يكن متناسبا مع حجمي .وندمت . لكن ذلك لم يستغرق اكثر من ثانية واحدة ،إذ بقيت اضربه وأركله . ولم يكن ذلك موجهاً الى صبي في العاشرة من عمره بل إلى أوتيس والقوادة معاً : الصبي العفريت الذي انتهك حرمة خلوتها والشريرة التي افسدت براءتها . لم يكن موجهاً ضد ذينك الاثنين فحسب بـل ضد جميع الذين اشتركوا في تحقيرها : ليس ضد القوّادين فحسب بل ايضاً ضد الأولاد العديمي الاحساس ، والرجال المتوحشين الوقحين الذين دفعوا سنتاتهم ليشاهدوا إهانتها التي لم تجد من يدافع عنها أو يثأر

لها . ووقع على يديه وركبتيه فوق الفراش . وكان يعبث ببنطلونه، ولم اعرف السبب حتى حين خرجت يده وارتفعت الى أعلى . عندها فقط رأيت نصل سكين الجيب في يده ، لكنني لم اهتم . لقد جَعلَنــا ذلك متساويين في الحجم . ونزعت السكين منه ، دون ان أعرف كيف أو أن أشعر بالنصل بتاتاً . وعندما رميت السكين وضربته ثانية ظننت أن الدم الذي رأيته على وجهه كان دمه .

ثم شعرت ببون يرفعني عن الارض وأنا اعارك وابكي . كان حافي القدمين ولا يلبس غير سرواله . وكانت الانسة كوري هناك ايضاً ، لابسة كيمونو ، محلولة الشعر حتى أنه كان يصل الى تحت خصرها . وكان اوتيس يقف الى جانب الجدار ولم يكن يبكي بل كان يشتم كما شتم ند . وسأل بون : ما هذا ؟ فردّت الانسة كوري قائلة : يده . وصمتت قليلا ثم التفتت الى اوتيس قائلة : اذهب الى غرفتي . هيا .فخرج من الغرفة .وانزلني بون ثم قالت : دعني اراها . وعرفت لأول مرة من اين جاء الدم – من جرح عميق في كف يدي بمحاذاة الاصابع الأربع حين قبضت على النصل وهو يحاول أن يجذبه . كان الدم ما زال ينزف . أي أنه نزف ثانية عندما فتحت الانسة كوري يدي . وسأل بون : علام كنتما تتشاجران ؟ فقلت وأنا أسحب يدي: لا شيء . لكن الانسة كوري قالت : ابقها مطبقة إلى أن أعود . ثم خرجت وعادت تحمل طست ماء ومنشفة وزجاجة فيهـا شيء ما وقطعة من

قميص رجل . وغسلت الدم وفتحت الزجاجة ، قائلة : «سيحرقك» . وهذا ما حصل.وقصت قطعة من القماش ولفت بها يدي .

قال بون : ما يزال يرفض ان يقول لماذا يتشاجران . على الأقل ارجو ان يكون هو الذي بدأ الشجار . حجمه لا يوازي نصف حجمك على الرغم من انه اكبر منك بسنة . لا عجب ان سحب سكينا .

-أنا أكبر منه بسنة . انه في العاشرة .

-قال لي انه في الثانية عشرة .ثم عرفت ما هو غير طبيعي في اوتيس .

وتساءلت الانسة كوري : « الثانية عشرة ؟ سيبلغ الخامسة عشرة يوم الاثنين المقبل ». وسألتني وهي تنظر الي: « هل تريد ... » فقلت : « أبقيه بعيداً من هنا . إنني تعب أريد أن أنام » فقالت : «لا تقلق. سيعود اوتيس الى البيت هذا الصباح . هناك قطار يذهب في الساعة التاسعة . سأرسل ميني الى المحطة معه واطلب منها ان تتأكد من ركوبه القطار، وان تقف في مكان يمكنها ان ترى وجهه من النافذة الى ان يتحرك القطار . » وقال بون : « طبعا . ويمكنه ان يتزود بضربة مني تعلمه التهذيب والثقافة . لقد جيء به الى هنا لقضاء اسبوع في ممفيس ... » فقالت الانسة كوري : « اسكت . لكنه تابع قائلا : « ... في هذا البنسيون طلبا للتهذيب والثقافة . لعله وجدهما . كان يمكن ان يقضي سنوات عديدة

في اركناس دون ان يجد شخصا بحجم قريب من حجمه على ان يشهر عليه تلك السكين ... »

وقالت الآنسة كوري : كفى ! كفى !

ثم أطفأا النور وخرجا ، أو هذا ما ظننته . وأشعل بون النور ثانية وقال : لعل من الأفضل ان تخبرني عن السبب . فقلت : لا شيء . فنظر الي بضخامته وجسمه العاري حتى وسطه ويده على النور لتطفئه ثانية ، ثم قال: في الحادية عشرة وتصاب بجرح في عراك في بيت للدعارة ! ثم نظر إلي قائلاً : ليتني عرفتك قبل ثلاثين سنة . لو كنت معي لتعلمني وانا في الحادية عشرة ، لكان لدي بعض الادراك الآن. طابت ليلتك .

ثم أطفأ النور ونمت . وأتت الآنسة كوري وركعت بجانب الفراش . كنت استطيع رؤية وجهها ورؤية القمر من خلال شعرها . كانت هي التي تبكي هذه المرة – كانت فتاة أكبر من أن تبكي لكنها كانت تبكي بهدوء . ثم قالت : « أقنعته ان يخبرني . تشاجرتما لأجلي. تشاجر أناس سكيرون لأجلي ، لكنك أول شخص يقاتل دفاعاً عني . لست معتادة على هذا ، لذلك لا أعرف ماذا أفعل بهذا الشأن ، إلا أمراً واحداً يمكنني ان افعله . اريد ان اعدك بشيء . هناك في اركنساس ارتكبت غلطة . لكنني لن أرتكب غلطة بعد الآن . » كان عليك ان تتعلم بسرعة ، ان تقفز في الظلام وتأمل ان تضع قوةً ما قدمك في المكان الصحيح . لذلك

هناك أشياء اخرى بجانب الفقر واللاأفضلية تهتم بشؤونها .
فقلت :
« لم تكن غلطتك حينئذ . »
« بلى كانت غلطتي. يمكنك ان تختار . يمكنك ان تقرر. يمكنك ان تقول لا . يمكنك ان تجد عملاً وتشتغل . لكنني لن ارتكب غلطة بعد الآن ، هذا ما اريد ان اعدك به ، وعلي ان احافظ عليه كما حافظت انت على ذلك الوعد الذي اخبرت السيد بنفورد عنه قبل العشاء ،الليلة . عليك انتصدق ذلك . هل ستصدقه ؟»
« حسناً . »
« لكن عليك ان تقول انك تصدق وعدي . عليك ان تقول ذلك بصوت عال . »
« نعم . اصدق وعدك . »
« حاول ان تنام الآن . أحضرت كرسياً وساجلس هنا حيث يمكنني ان أوقظك في الوقت المناسب لتذهب الى المحطة . »
« عودي إلى فراشك أنت أيضاً . »
« لست نعسانة . سأجلس هنا . عد الى النوم . وفي هذه المرة جاء بون ثانية ، ووقفت منحنياً على الكرسي الذي كانت تجلس عليه افربي (أعني الآنسة كورى) وهو يكلمها همساً ويمسك بذراعها ويقول : هيا بنا الآن ، لم تبق لدينا سوى ساعة واحدة . وهمست هي أيضاً : اتركني الوقت متأخر

الآن ، اتركني يا بون . لكنه قال لها هامساً بصوت أجش : لماذا تظنين أنني قطعت هذه المسافة كلها وانتظرت طوال هذه المدة وعملت ووفرت وانتظرت ...

كانت النافذة التي يضيئها القمر تزداد وضوحاً . وسمعت صياح ديك من مكان ما . كانت يدي المجروحة تحك ، وقد آلمتني . ولعل هذا ما أيقظني . لذلك لم أعرف إن كان ما يزال هنا منذ المرة السابقة أم أنه ذهب وعاد ثانية . كل ما عرفته هو انهما كانا يتكلمان همساً ، وأن صياح الديك يعني وقت النهوض . أوه ، كانت تبكي من جديد وتقول : لا أريد ، لا أريد ! دعني وحدي ! وكان بون يقول : حسناً ، حسناً . لكن الليلة هي الليلة فقط ؛ غداً عندما نستقر في بوسم ... »

« كلا ، ولا غداً . لا أقدر ، لا أقدر ! دعني وحدي . ارجوك ، يا بون ، أرجوك !»

الفصل الثامن

وصلنا أنا وافربي وبون إلى المحطة قبل الموعد بوقت طويل، أو هكذا تصورنا . وكان ند بانتظارنا هناك . كان يرتدي قميصاً ابيض نظيفاً . ربما كان قميصاً جديداً ، أو أنه تمكن بطريقة ما من غسل قميص عتيق آخر . ولكن لم يمر وقت طويل حتى انجلى السر . كان من قمصان سام . ولم يدع ند لبون مجالاً للكلام إذ بادره قائلاً : « هدىء روعك . السيد سام يهتم بلايتنينغ بينما أهتم أنا بالترتيبات الخارجية . لقد وصلوا العربة بالقطار . فعندما يدير السيد سام كالدويل خط سكة حديد فإنه يديره بانتظام. وقد سميناه فوركد لايتنينغ. ثم وقع نظره على يدي فقال :

« ماذا فعلت بها ؟ »

« جرحتها ، لكنها بخير الآن . »

« أهو جرح كبير ؟» فأجابت افربي :

« نعم ، كبير . انه على طول اصابعه الاربعة . يجب ألا يحركها . »

ولم يضع ند وقتاً طويلا حول هذا الموضوع ، اذ سرعان ما تلفت حوله قائلا : اين الشخص الآخر ؟ فسأل بون اي شخص آخر ؟ فأجاب ند : الصبي الذي لا يتكلم إلا عن المال ، والذي كان معنا البارحة . قد احتاج الى من يساعدني على الحصان . من تتصور انه سيمتطيه في السباق ؟ انا ، ام انت ووزنك ضعف وزني ؟ كنت قد فكرت بلوشيوس لهذا العمل . ولكن ما دمنا قد عثرنا على الصبي الآخر ، فلا حاجة بنا الى المخاطرة مع لوشيوس . انه أخف وزناً وان كان اقل فطنة . ثم انه اعرق في الفساد مما يؤهله لركوب جواد سباق ، خاصة اذا وعد بالربح . وهو ، لكونه جباناً ، سيتعلق بالسرج جيداً فلا يقع عنه . وهذا كل ما نبتغي . اين هو ؟ فقال بون :

« عاد إلى أركنساس . كم تقدر عمره ؟»

« منظره يوحي بأنه في الخامس عشرة . أليس كذلك ؟ ذهب إلى أركنساس ؟ يجب أن يذهب من يعود به حالاً . »

فقالت افربي : حسناً . سأذهب وآتي به . لذلك سأبقى هنا واحضره في القطار الثاني ، بعد ظهر اليوم. فقال ند : هذا كلام معقول . ذلك هو قطار السيد سام . وهكذا

يمكنك أن توكلي أمر ذلك الشرير إلى السيد سام فيعرف كيف يهتم به . فقال بون : بكل تأكيد . هذا يتيح لك فرصة ساعة كاملة كي تجربي تمتعك مع سام . قد يكون أفضل مني ولا يصغي اليك . فلم تجبه ، واكتفت بالنظر اليه . فقلت : إذا كان الأمر كذلك لم لا تبقى أنت وتجلب اوتيس معك ثم تلاقينا غداً في بارشم . فنظر بون إليّ . لكنني تابعت قائلا : « لعلني سأرجع إلى البيت الآن . يبدو ان ند قد وجد شخصاً آخر لركوب الحصان في السباق ، وانت لا تعرف كيف تتصرف مع الأشخاص الذين يحاولون مساعدتنا . » فحملق فيّ لحظة ثم قال : لا بأس . ومشى بجانبي ثم لحق بها مردداً : قلت لا بأس ، يعني لا بأس ! » فقالت : حسناً . فاضاف ند قائلا : سأذهب لملاقاتك في أول قطار يصل بعد ظهر اليوم ، فإن لم تكوني فيه سأبقى في المحطة أستقبل المطارات . مفهوم ؟ فوافقت على كلامه ومشت في طريقها .

ودخلنا المحطة . وابتاع بون التذاكر . ثم توجهنا الى حيث كان يقف القطار ، وكان الركاب قد بدأوا يصعدون اليه . واستطعنا ان نرى العربة امامنا . وكان سام واقفاً في الباب المفتوح مع السائق ورجلين آخرين . ولا بد ان احدهما كان المهندس . أرأيت ؟ لم يكن يساعدنا رجل الاشارة ، خارج وقت دوامه وحسب ، بل كانت تساعدنا فرقة قيادة قطار كاملة . وقال السائق : هل سيدخل السباق اليوم ؟ فأجاب

بون : غداً . فقال السائق : حسناً ، يجب ان يصل الى هناك قبل كل شيء . ثم نظر الى ساعته وقال : من سيركب معه ؟ فأجاب ند : انا ، اذا تمكنت من ايجـــاد صندوق او اي شيء أصعد عليه . فقال سام : اعطني قدمك . وطوى ند ركبته فقذفه سام الى داخل عربة القطار وقال له : سأراك في بارشم غداً . فقال بون : حسبتك ذهبت الى واشنطن . فاستفهم سام قائلا : « من ، انا ؟ ذهب القطار فقط . سأرجع الى تشاتانوغا الليلة في قطار رقم ٢٠٩ واصل الى بارشم في الساعة السابعة من صباح الغد . كنت اذهب معكم الآن وأعود من بارشم في قطار رقم ٢٠٨ ، لكنني يجب ان انام قليلا ، ثم انكم لن تحتاجوا إلي . يمكنكم ان تعتمدوا على ند حتى ذلك الحين . »

كذلك كنا أنا وبون . أعني كنـــا بحاجة إلى النوم . وقد استغرقنا في النوم حتى ايقظنا السائق عندما بلغنا محطة بارشم مع تباشير الفجر . وراقبنا القاطرة وهي تنفصل عن العربة ثم تمضي بقطوراتها العديدة متجهة جنوباً نحو جفرسون. وأخرجنا الحصان من العربة فقاده ند . ثم التقينـــا بشاب زنجي ذي وجه حلو لطيف ، في نحو التاسع عشرة من عمره . فحيا الشاب ند ، فسأله عن الطريق .

وهكذا تركنا بون فترة . كان عليه ان يجد لنا مكاناً ننزل فيه . لا أنا وهو فقط ، بل اوتيس وافربي .

ومررنا أنا وند والفتى بالبلدة وبلغنا ظاهرها . ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً آنذاك ، لأنها كانت بمثابـــة قرية صغـــيرة

مؤلفة من مخزنين أو ثلاثة ، عند تقاطع خطوط السكتين الحديديتين ، بالاضافة الى مزلقة لشحن البقر ، ومستودع للبضاعة ، ورصيف لشحن بالات القطن .

وقال الفتى الزنجي عني : « سينام هذا الصبي الابيض وهو يمشي ». لكنني لم أكن راغباً في النوم . كان عليّ أن أعرف ، فسألت ند : لم أدر أنك تعرف أحداً هنا ، وفوق ذلك انك اخبرتهم بمجيئك . فتابع ند سيره وكأنه لم يسمع ما قلت . وبعد لحظة قال من فوق كتفه : تريد أن تعرف أليس كذلك ؟ أنا وجدّ هذا الصبي ماسونيان . فسألته : ولماذا تهمس ؟ جدي ايضاً ماسوني ، لكنني لم أسمعه يوماً يهمس عندما يذكر ذلك . فقال ند : لم أنتبه إلى انني كنت أهمس . لكن لنفرض ذلك ، فهل تتصور أن الناس ينتمون إلى الماسونية لو لم تكن سرية ؟ وكيف تريدها أن تبقى سرية إن لم تتكلم عنها بتكتم ؟»

ثم وصلنا .كانت الشمس قد ارتفعت في السماء . كان شكل البيت من الخارج أشبه بوجار الكلب . لم يكن مدهوناً أو مزخرفاً ، لكنه كان راسخاً ونظيفاً ، تحيط به حديقة فيها أشجار الخرنوب والكرز الصيني . وكان الدجاج منتشراً هنا وهناك بين الغبار ، بينما ظهر في الاصطبل بقرة وزوج من البغال . وكان هناك كلبا صيد تعرفا للحال على الشاب الذي يرافقنا . وكان يجلس على رأس السلم شيخ زنجي شديد السواد يلبس قميصاً أبيض وقبعة فلاح . كان له شاربان أبيضان ولحية

صغيرة بيضاء . وبدأ يهبط درجات السلم إلى الساحة ليشاهد الجواد . فقد عرفه وتذكره . وهكذا خاب احد تقديرات ند .وسأل الرجل :

« هل اشتريتموه كلكم ؟ » فأجاب ند :

« حصلنا عليه . »

« وقتاً كافياً لتدخلوه السبق ؟ »

« مرة واحدة على الأقل. » ثم قال لي : « قدّم احترامك للعم بومم». فقدمت احترامي . ثم قال العم بارشم: «استريحوا. أظنكم مستعدين للفطور . » وكنت اشم رائحته – رائحة لحم الخنزير . لكنني قلت : لا اريد سوى النوم . وقال ند لم ينم طوال الليل ، وأنا ايضا . لكنه أمضى الليل في بيت يعج بنسوة يصرخن ويطرحن الأسئلة ، بينما امضيت ليلة هادئة مع الحصان في عربة قطقار

وكنت ما ازال مستعداً للمساعدة في الاسطبل واطعام لايتلنينغ ، لكنهم لم يسمحوا لي ، بل قال لي ند :

« اذهب مع ليكورغوس ونم قليلا . سأحتاج إليك قريبا قبل ان يشتد الحر. علينا ان نعرف شيئا عن الحصان . وبقدر ما نسرع يكون ذلك أفضل . »

وتبعتُ ليكورغوس إلى غرفة استراحة فيها سرير عليه لحاف ملوّن نظيف . وخيل إليّ انني كنت نائما قبل ان استلقي على الفراش ، وأن ند جاء يهزني قبل ان أغفو . كان يحمل جوربا صوفياً نظيفاً وخيطاً ، وكنت جائعاً ، لكنه

قال لي : يمكنك ان تؤجّل الفطور . الأفضل ان تمتطي الحصان ومعدتك فارغة .

وكان العم بارشم وليكورغوس ينتظراننا عند الحصان ، وكان قد أسرج ووضع له العنان . ونظر اليه ند قائلا : يمكننا ان نجعله يركض دون سرج ، لكن آمل ألا يجبرونا على ذلك فلنستطيع ان نجربه في كلتا الحالتين ونعرف ايهما يفضل .

كانت الحلبة مرعى صغيراً قرب الساقية منبسطاً وناعماً . وقصّر ند الركاب ليتناسب مع طول اوتيس ، وساعدني على الركوب قائلا : تعرف ماذا عليك ان تفعل : كما كنت تفعل بامتطائك الخيول في ماك كاسلن . دعه يتساءل عن فارسه . يبدو ان كل ما تعلّمه من الآخرين هو ان يركض يقدر ما يسمح له العنان ، وحيثما وجهه راكبه . وهذا ما نبتغيه . لست الآن بحاجة الى قضيب هيا .»

وقدته الى المرعى خبباً . وشعرت ان رأسه لم يكن قوياً ، حتى ان باستطاعة نسيج العنكبوت ان يوقفه . وهذا ما قلته لند ، لكنه قال :

« أراهن على أنه يقدر أن ينطلق بشكل افضل بعد بضع ضربات . هيا ، انطلق به .»

غير أن الحصان لم يتحرك . فلكزته بكعبي بقوة ، لكنه لم يركض ، بل أخذ ينطنط ببطء في شوط العودة . ثم اكتشفت ، فجأة ، أنه يسرع عائداً نحو ند ، وفي غير الاتجاه الذي أطلقته فيه ، وكأنه لم يعرف اللجام قط . وظل على

هذه الحال حتى وصل إلى ند وأخذ يحك رأسه بقميصه وامرني ند، وهو يضع احدى يديه وراء ظهره، ان ارجمه .

ورأيته يمسك بقضيب مقشر ويقول للحصان : يجب أن تتعلم يا بني ، فلا ترجع الي قبل أن أناديك . ثم قال لي . لن يتوقف هذه المرة ، فقد كنت تتساهل معه . اضربه بشدة وثبت نفسك جيداً على ظهره . وعاد إلى الوراء وجرح الحصان في مؤخرته جرحاً بليغاً . وقفز الحصان الى الأمام وركض بأقصى سرعته . وبدت انطلاقته رهيبة : لا أقصد السرعة أو المسافة بل الحركة . لم تكن فيها أية رشاقة ، لأنها كانت ردة فعل لخوفه ، والخوف لا يلائم الخيول ، فهي لا تستطيع تحمله لأنها كتلة وتناسق ، بينما يتطلب الخوف مرونة ولطفاً وغرابة ومقدرة على السحر ، شأن الغزال او الزرافة أو الأفعى . حتى بعد انقضاء الخوف شعرت ان الحركة كانت مجرد طاعة . وهذا ما حصل أيضاً في شوط العودة ، عندما فعلت كما أمرني ند . وضربته بكل قوتي ، فقفز مثل تلك القفزة ، لكنه ركض هذه المرة بملء ارادته وبطاعة تامة ، دون غضب ، أو تلهف . عند ذاك امرني ند ان احضره ففعلت . كان الحصان يعرق قليلاً . وسألني ند عن كيف وجدت الحصان فأجبته ان نصفه الامامي لا يرغب في الركض ، اعني ان رأسه لا يريد الذهاب الى اي مكان .

وأنزلني ند عن الحصان ، ونزع السرج عنه ثم قال لي : اعطني قدمك . فقال له العم بارشم : كيف عرفت ان هذا

الحصان كان يُركب عارياً ؟ فقـــال ند : لم اعرف ، لكن علينا ان نكتشف ذلك . فقال العم بارشم : ليس لهذا الصبي غير يد واحدة ، يمكن لكيلورغوس ... لكن نـد كان قد امسك بقدمي وقال : تعلم هذا الصبي ان يمتطي جيـــاد زاك ادموندس هناك في ميسيسيبي . راقبته وهو يفعل ذلك مرة واحدة على الاقل . ثم قذفني على ظهر الحصان ، فلم تبدر من الحصان اية حركة . وثنى ركبتيه الخلفيتين قليلا ، وارتجف لحظة ، وكان هذا كل ما فعل . فقال ند : هه. هيا لنتناول طعام الفطور . سيحضر ذلك المسخ ليدربه هذا المساء . ولعل لاتينينغ سيجد في ذلك بعض المتعة !

كانت ام ليكورغوس ، وهي ابنة العم بارشم ، تطبخ الطعام . وكانت رائحة الخضار تملأ المطبخ . لكنهـــا كانت تحتفظ لي بفطوري ساخناً . كان يتألف من اللحم المقلي والبسكوت المسخن والثريد والزبدة والقهوة بحليب . وحسبت انني كنت جائعاً فقط ، لكنني غفوت فوق الصحن الى ان جـــاء لكورغوس وحملني الى فراشه في غرفة الاستراحة .

كان السيد كالدويل شخصية مهمة ، على حد قول ند .فقد نزلت إفربي واوتيس ، قبل ظهر ذلك اليوم ، من عربة قطار الشحن الذي كان يذهب الى آلاباما ولا يتوقف حتى يصل الى فلورنس .لكنه توقف في بارشم اكراماً للسيد سام كالدويل. ولا اعرف كم يلزم القطار من الفحم الحجري الإضافي لتفريغ الهواء ، ثم لإشعال النـــار ثانية كي تصل سرعته الى الحد

المطلوب،فيعوض عن الوقت الذي صرفه في الوقوف في بارشم وقد قال اوتيس انها تعادل ثلاثاً وعشرين رفشاً من الفحم .

وعندما أيقظني صوت غريب ، وربطت أم كيلورغوس الجورب على يدي المجروحة ، وكانت قد نزعته قبل ان اغفو فوق الصحن، خرجت من الغرفة فوجدتهم هناك جميعاً .

كانت هناك عربة متوقفة امام الباب ، والعم بارشم يقف عند رأس الدرج الأمامي،وهو ما زال يعتمر قبعته،وند يجلس على الاخيرة،وكيلورغوس يقف في الزاوية بين راس السلم والشرفة وكأنما كان هؤلاء الثلاثة يحاصرون البيت .وفي ساحة البيت قرب هؤلاء وقفت إفربي واوتيس وبون والرجل الذي كان يتكلم بصوت مرتفع – كان رجلا في ضخامة بون ، بشعاً مثله ، احمر الوجه ، وعلى صدره شارة شرطي ، وفي جيبه الخلفي مسدس ، وقد وقف بين بون وإفربي ، التي كانت تحاول الإفلات من يده التي تمسك بذراعها . وكان الرجل يقول : نعم ، اعرف بوسم هود الكبير، وبوسم هود يعرفني ايضاً . أليس كذلك ؟ فقال العم بارشم ، دون ان تسري اليه عدوى الصياح : كلنا هنا نعرفك يا سيد بطش . فوافق هذا وامر ليكورغوس باحضار كرسيين ، واحدة منها للآنسة افربي التي كانت تحاول الافلات منه .

وكنت في هذه الاثناء أراقب بون . وقال الغريب لافربي : هل أنت متأكدة انني لم أرك في مكان ما ؟ عند بردي واط مثلا ؟ أين كنت تختبئين ؟ أين تختبىء فتاة جميلة

مثلك ؟ وهنا نهض ند بهدوء وقال : صباح الخير يا سيد بون، أتريد أنت والسيد ان يخرج لوشيوس الحصـان ؟ فتوقف بطش عن دفع إفربي ، لكنه ظل ممسكاً بهـا . وقال : من هذا ؟ نحن عادة لا نشجـع على مجيء الزنوج الغرباء الى هنا. مع ذلـك لا نعترض ، شرط أن يعرفوا بأنفسهم ثم يقفلوا أفواههم . فقال ند : انا ند وليام ماك كاسلن ، من جفرسون ميسيسيبي . فقال الرجل : اسمك طويل جداً ، يلزمك اسم بسيط وسريع تقوله هنا ، الى ان يصبح لك شاربان ابيضان ولحية قصيرة شائبة مثل العجوز بوسم . ولا يهمنـا من اين اتيت . كل ما نحتاج اليه هو مكانما نرجعك اليه. لكن يبدو أن سلوكك حسنا . فلديك ادراك يكفي لمعرفة القانون . ثم قال لبون : هل تريد الحصان ؟ فصرخت افربي : كلا ، وتخلصت من قبضة بطش واندفعت مسرعة بشكل لا يتناسب مع فتاة في حجمها . كانت تستطيع الافلات قبل الآن بمجرد ان تلفظ اسم بون ، وهذا ما كان يتمناه بطش - الوكيل او الشرطي ، لا اعرف - كلنا ايضا عرفنا ذلك . لكنهـا اندفعت ووقفت بجانبي وقد جعلتني بينهـا وبين بطش ، وامسكت بذراعي . وشعرت بيدهـا ترتعد قليلا عندما امسكت بذراعي . وقالت لي . تعال يا لوشيوس ، دلنا على الطريق . ثم قالت بصوت مضطرب ، مفعم بالعـاطفة :

« كيف حال يدك ؟ هل تؤلمك ؟ »

« انها بخير . »

« هل انت متأكد ؟ هل كنت تخبرني لو آلمتك ؟ هل افاد وضعها في الجورب ؟ »

« انها بخير . لو انها تؤلمني لأخبرتك . »

وذهبنا الى الاسطبل . كانت افربي تجرني لأبقى بينها وبين بطش. لكن هذا لم يجدها نفعاً فقد أزاحني من طريقه، فاستطعت ان اشم رائحته . كانت خليطاً من رائحة عرق الجسم والوسكي ، واستطعت ان ألمح رأس زجاجة الوسكي يطل من جيبه الخلفي الثاني . وامسك بطش بمرفق افربي ثانية . وفجأة تملكني الخوف . فقد أدركت انني لم افهم افربي جيداً ، وكنت متأكداً ان بون لم يفهمها . كلا ، لم اكن خائفاً منه ، لاننا كنا نستطيع ، انا وبون، ان ننتزع المسدس من جيبه الخلفي ونضربه . وانما كنت خائفاً على إفربي والعم بارشم وعلى بيته وعائلته ، إذا حصل ذلك . لكنني كنت اكثر من خائف ـ كنت احس بالعار لخوفي على العم بارشم المضطر الى العيش هنا وكرهت هذا الوضع كله . كرهناه جميعاً لكوننا ضحايا ضعفاء امام الحياة ، لاضطرارنا الى البقاء احياء . كرهت افربي لكونها ضحية عاجزة ، قابلة لتلقي الاذى . وكرهت بون لانه ،هو ايضا ، اصبح عاجزاً وعرضة للأذى . وكرهت العم بارشم وكيلورغوس لوجودهما حيث اضطرا ان يقفا عاجزين ، يراقبان البيض وهم يتصرفون بتعال وتبجح ، كما اعتادوا ان يتصرفوا حيال الزنوج . كرهتهم جميعاً مثلما كرهت اوتيس حين اخبرني عن تصرفات إفربي في

اركنساس . وكرهت إفربي التي عجزت عن ان تتمرد على كونها وسيلة مسخرة للانحطاط الانساني كما حدثني عنه اوتيس . كرهت نفسي لانني استمعت الى ذلك الحديث وعرفت به وفهمته . ولم أكرهه لمجرد كونه قد حصل بالفعل ، بل لانه شيء حتمي ضروري يجب ان يحصل كي تستمر الحياة ويشارك النوع البشري فيها .

وفجأة تملكني حنين الى البلد ، حين اعتصرني وعذبني . اشتقت الى البيت ، ليس الى الذهاب فقط ، بل الى محو الوضع بكامله : فاجعل ند يرجع الحصان الى الرجل الذي اخذه منه ويستعيد سيارة جدي ، فأرجع بها الى جفرسون من حيث اتينا ، ولو اضطررت الى قيادتها في ذلك الطريق الترابي الموحش ، عبر حفر الوحل ، مروراً بصاحب البغلين المصابين بعمى الالوان ، والانسة بالنبو واليس ، ولا يعود لكل ذلك اي وجود بالنسبة لي . عندها ارتفع في اعماقي صوت هادىء واضح يقول : ولم لا تنفذ هذا ؟ كنت قادراً على ذلك . كل ما كان عليّ فعله هو ان اقول لبون : سنرجع الى البيت . وكان ند سيرجع الحصان ، وكان اعترافي سيجعل الشرطة تعرف مكان السيارة وتعيدها لنا ، ويكون ثمن ذلك كله خجلي . لكنني لم افعل هذا ، لأنني لم أعد استطيع . كان اوان ذلك قد فات . ربما كان ذلك ممكناً في اليوم السابق ، عندما كنت لا ازال طفلا ، لكن ليس الان . كنت قد عرفت الكثير ورأيت الكثير ، ولم أعد طفلا . لقد

فقدت البراءة والطفولة الى الابد .

وتملصت إفربي ثانية . وفاتني ان ارى كيف حصل ذلك هذه المرة. كانت حرة ، تواجهه . وكانت تقول شيئاً سريعاً بصوت غير مسموع ، فلم يلمسها هذه المرة ، بل كان ينظر وهو يبتسم ساخراً . وقال : « طبعاً ، طبعاً . تجولي هنـــا قليلا . قد يعجبني ذلك . ولعله يروق ايضاً للحلو » . ثم قال لند : « طيب يا ولد ، ارنا الحصان » . فقال لي ند : « انت ابق هنا . سنحضره انا وليكورغوس .

فوقفت قرب افربي عند السياج . وقـــد عادت تمسك بذراعي . كانت يدها ما تزال ترتجف قليلا . وخرج نـــد وليكورغوس يقودان الحصان . وتطلع ند ناحيتنـــا وقال بسرعة : « اين الآخر ؟ » فقـال بطش : « لا تقل ان معك حصانين ! »

لكنني فهمت ما عناه ، وكذلك افربي . فالتفتت بسرعة ونادت اوتيس،ولكنه كان قد اختفى. فقال ند للكيورغوس: « اركض ، إن لم يكن قد دخل البيت بعد يمكنك ان تعيقه عن ذلك . قل له ان عمته تريد رؤيته . ثم ابق معه » . ولم ينتظر كيلورغوس ليقول شيئاً ، بل اعطى مقود الجواد لند وركض مسرعاً . ووقفنا نحن قرب السياج . وكانت افربي تحاول ان تبقى دون حراك . كان هذا كل ما تستطيع ان تفعله لتمحو آثار ماضيها . اما بون فقد كان هائجاً محتدمـاً ، يجرب ان يتمالك أعصابه ، وهو الذي لم يملك اعصابه في حياته

أمام اي حدث . لم يكن الخوف هو السبب . ولم يكن خائفاً من المسدس او الشارة : كان يستطيع ان ينتزعهما من بطش ويقذف بالمسدس بعيداً ، ثم يدفع بطش نحوه . كان ذلك ، من جهة ، بسبب ولائه . كان يحرص على ان يجنبني اناوعائلتي نتائج معركة كهذه ايا كان المنتصر فيها . أما الدافع الآخر فكانت فروسيته : كان يريد ان يحمي امرأة ، وان مومساً ، من مخالب السفلة الذين يستغلون شاراتهم للتسلط على جنسها العاجز .

وقال بطش : يا للشيطان ، لا يمكنه أن يفوز في أي سباق بمجرد وقوفه هكذا مقيداً . اذهب . دعه يركض قليلاً . فقال ند : أرسلنا في طلب فارسه . عندما يحضر يمكنك ان تراه وهو يركض . إلا إذا كنت مضطراً للعودة بسرعة . فقال : الى اين ؟ فاجاب : « إلى عملك في خدمة القانون ، في بوسم أو حيثما كان . » فقال : « بعد ان قطعت كل هذه المسافة لأرى حصان سباق ؟ ولكنني ولم أر غير لوح نصف مائل ! » فأجاب ند : « سرني أنك أخبرتني بهذا . حسبتك غير مهتم للموضوع . » ثم التفت إلى بون وقال: « لذلك ربما كان من الأفضل أن تذهب أنت والآنسة كوري إلى البلدة لانتظار الآخرين في المحطة . يمكنك أن ترسل العربة للسيد بطش ولوشيوس والصبي الآخر ، بينما نكون قد روضنا لاتينينغ في هذه الأثناء . »

فضحك بطش ساخراً . ثم تحرك الى حيث يقف بون وراح

يراقبه بينما وجه كلامه الى ند : « لا أقدر أن أدع هذا الفتى الحلو يذهب وحده يجب أن ألازمه وإلا أثار المتاعب . لدينا هنا قانون يمنع إخراج الجميلات خارج حدود الولاية لما يدعونه غايات خليعة . والفتى غريب هنا ، ولا يعرف أين يقع حد الولاية ، قد تحيد قدمه عنه عندما يكون ذهنه غارقاً في شيء آخر . أليس صحيحاً يا فتى ؟

وضرب بون على ظهره ، كما يضرب الرجال المرحون بعضهم بعضاً ، لكن هذه كانت أشد قليلاً . ولم يتحرك بون بل ظلت يداه ممسكتين بقضبان البوابة العلوية . كانت الشمس قد أحرقت يديه وصبغتهما الأقذار فلم تبيضا وهما تشدان على القضبان . لكنني رأيت عضلاتهما ، كما رأتها إفربي كذلك ، فصاحت تنادي بون بصوت خافت . وقال العم بارشم بسرعة : « ها قد أتى الصبي الآخر . »

كان أوتيس قادماًعند زاوية البيت،وقد ظهر ليكورغوس خلفه وكأنه اطول منه مرتين . وكان ند يحدّق فيه بحدة . وتقدم اوتيس بلطف ، وقال على مهل : « هل ارسل أحدكم في طلبي ؟ »

فقال ند : « أنا أرسلت في طلبك . لم أرك من قبل في ضوء النهار .وقد أغير رأيي .» ثم قال لليكورغوس ان يتقدم الجميع .

وهكذا توجهنا جميعاً الى المرعى نتبع ليكورغوس وند نحو الحلبة . حتى بطش نفسه أبدى اهتماماً بالموضوع الذي

كان يشغلنا . ولعله كان يتيح لافربي فرصة كي تستريح وتجمع قوتها كي تهجم على تلك النجمة الصغيرة المعلقة فوق قميصه المبلل بالعرق . وعندما وصلنا الى الحلبة كان ند وأوتيس يقفان متواجهين ، ووقف ليكورغوس خلفهما ممسكاً بالحصان
وكان ند يبدو متعباً . فقد ظل مستيقظاً طوال الليل ، إلا اذا كان قد نام مدة ساعة فوق القش في عربة القطار . لكنه لم يكن منهوكاً بسبب قلة النوم ، بل كان منزعجاً وحسب . وقال وهو ينظر الى اوتيس : « ولد مطلع . مطلع اكثر من اي صبي رأيته . آمل ، حين تبلغ ضعفي عمرك أن تبقى لديك نصف خبرتك. » فشكره اوتيس . وسأله ند اذا كان يمكنه ان يمتطي حصاناً ، فاجاب : « كنت أعيش في مزرعة في أركنساس منذ سنوات عديدة . والآن كم ستدفعون لي لامتطي الحصان ؟ » فصاحت به افربي ، لكن ند قال بلطف : « لم نصل الى ذلك بعد . يجب أولاً أن تصل في الطليعة بعد الأشواط الثلاثة ، أو في اثنين منها على الأقل . ثم نفكر في المبلغ الذي سندفعه لك . » وقال اوتيس : « هه ، هه ، هه . أي انك لا تقدر أن تدفع قبل أن يفوز الحصان . ولا تقدر أن تربح ما لم يركب الحصان شخص ما - وهو أنا . أليس هذا صحيحاً ؟ »

فصاحت به افربي ، لكن ند تابع قائلاً : « هذا صحيح ، كلنا نعمل شراكة . لذلك سنقتسم جميعنا المبلغ فيما بعد . وعلى حصتك أن تنتظر شأن حصصنا . » على ان

اوتيس مانع في ذلك ، فسأله ند : « وكم تريد ؟ » فأجاب اوتيس :

« لن يروق لك طلبي ، لان الحصان لم يركض في الشوط الاول بعد ، فضلا عن الفوز في السبـــاق . لكنني سأخبرك بصورة شخصية . لنقل عشرة دولارات » .

وطلبت افربي من اوتيس ان يخجل من نفسه ، ولكن ند استمهلهسا وأخرج كيساً من جيبه وفتحه وأخرج عنه حافظة نقوده المهترئة وفتحهـــا قائلاً لليكورغوس ان يمد يده فمد ليكورغوس يده ، فوضع ند في كفه ستة دولارات مهترئة، ثم عد قبضة من القطع المعدنية المنوعة . وقال ان المبلغ ينقص خمســـة عشر سنتاً، ولكن السيد هوجانبك سيدفع له هذه القيمة . فقال اوتيس : « اية قيمة ؟ » .

« القيمة التي تتمم المبلغ الذي حددته . أي عشرة دولارات . »

« يبدو أنك لا تسمع . قلت عشرين دولاراً . »

وهنا تحرك بون قائلاً : « ايها اللعين ! » فأشار عليه ند ان ينتظر قليلا . واخذت يده تسترجع قطع النقود من يد ليكورغوس وتضعها في المحفظة ، ثم تضع المحفظة في الكيس، وترجع الكيس إلى الجيب . ثم قال لأوتيس :

« اذن لن تمتطي الحصان ؟ »

« لم أر اجرتي بعد . »

« السيد بون هوجانبك يستعد أن يدفع لك الآن اي مبلغ

تطلبه . لكن لماذا لا تتكلم كالرجال وتقول انك لا تريد أن تقود الحصان ؟ نحن لا يهمنا السبب . » ونظر واحدهما الى الآخر . فقال اوتيس :

« لا . لن اقود هذا الحصان . » ثم قال شيئاً آخر ، شيئاً بذيئاً وهو من طبيعته ، شيئاً خبيثاً وهو من طبيعته ، شيئاً غير ضروري مطلقاً وهذا ايضاً من طبيعته . وهذه المرة امسكت به افربي وهزته بشدة . فسبّها وقال :

« حاذري . لم انه كلامي بعد » . فقال بطش : « مرني فاضربه حتى اخرج الشياطين منه . اضربه لا حباً بالضرب ، بل مبدئياً لا اعرف كيف سمح له هذا الفتى الحلو انيتمادى الى هذا الحد ، دون ان يضربه ضربة واحدة » . فقالت افربي وهي تقبض على ذراع اوتيس : « كلا . سيذهب الى البيت في اول قطار يمر من هنا . » فأجاب اوتيس : « هذا كلام معقول . لولاك كنت هناك الآن » فأفلتته وقال : «عد الى العربة » . لكن بون تدخل بسرعة قائلا : « لا يمكنك ان تجازفي . ستضطرين للذهاب معه . حسناً ، اذهبوا كلكم الى البلدة . يمكنكم ان ترسلوا في طلبنا انا ولوشيوس عند المغرب » . لقد فهمت ماذا كان يعني ، وأية فكرة صارع حتى توصل الى هذا القرار . لكن بطش خدعنا . وقال : بالتأكيد ارسلوا في طلبنا . فذهبت افربي وأوتيس ، فقال بطش : الآن وقد سويت تلك المسألة ، فمن سيقود الحصان ؟ فأجاب ند : هذا الصبي . فهذا الحصان يحتاج الى فارس بيد واحدة .

فقال بطش وكان يضحك هذه المرة فعلا : هه ، هه ، هه . رأيت هذا الحصان يركض في الشتاء الماضي . اذا كانت يد واحدة تقدر ان توقظه ، فإنه يحتاج الى ايد اكثر من ايدي العنكبوت كي يسبق حصان الكولونيل للسكومب . فقال ند : « قد تكون مصيباً . هذا ما سنكتشفه الآن » . ثم قال ليكورغوس : « يا بني ، اعطني معطفي . » ولم اكن قد لاحظت المعطف بعد ، وكذلك القضيب المقشر . ولبس ند المعطف وقال لبون وبطش : « اذهبوا جميعا واجلسوا هناك في فيء الاشجار مع العم بوسم كي لا تلفتوا انتباه الحصان ثم قال لي : اعطني قدمك . ففعلت ، وقذفني على ظهر الحصان، بينما ذهب بون وبطش وليكورغوس الى فيء الاشجار حيث يجلس العم بارشم .

ومع أننا لم ندر سوى دورات ثلاث حول الحلبة ذلك الصباح فقد رسمنا معالم طريق يمكن أن يتذكرها لايتنينغ. وقاده ند إلى النقطة التي بدأنا منها في الصباح ، وراح يكلمه بهدوء ودونما انقطاع . لم يكن العم ريموس في تلك اللحظة . ولم يكن قط كذلك حين لا يكون الى جانبه غيري وغير أفراد جنسه . قال لي : « المسافة المحددة للسباق ليست اكثر من نصف ميل ، لذلك يجب أن تدور حوله مرتين . وهي مثل هذه الأرض تماماً ، لذلك حين يرى الحصان الحلبة الحقيقية غداً ، يجدها مألوفة لديه، ويعرف كيف يتصرّف. مفهوم ؟»

— نعم . أقوده في دورتين حول الحقل .

فأعطاني القضيب وقال : « دعه ينطلق بأقصى سرعته » فاجئه بضربة شديدة ، ولا تلمسه ثانية حتى أقول لـــك إلكزه بكعبيك ، وكلمه ، لكن لا تثقل عليه : ما عليك إلا أن تجلس حيث أنت . ركز كل انتباهك على انك ستدور دورتين ، وحاول ان تجعله يركز انتباهه على ذلك ، كما كنت تفعل مع جياد ماك كاسلن . لا يمكنك أن تفعل مثل ذلـك الآن ، لكن هذه المرة بيدك قضيب . انما لا تلمسه بـا حـتى أقول لك . » وأدار ظهره . كان يفعل شيئاً ما متستراً بمعطفه. كان يخبىء في يده شيئاً دقيقاً ، وفجأة شممت رائحة كان يجب أن أعرفها فوراً ، انما لم يكن لدي متسع من الوقت آنذاك . واستدار ند نحونا ، ولامس خياشيم لايتنينغ كما فعل صباحاً عندما أدخله الى عربة القطار . وبعد أن لامست يداه خياشيم الحصان تراجـع محاولاً أن يتبعه ، لكنني شـــددت اللجام وحولته عنه . وصرخ به ند : « اذهب. » ثم قال لي ان اضربه . وعندما ضربته قفز الى الامام من الخوف ، وقـد استغرق نصف خطوة كي يرجـع رأسه . واجتاز خطـوة اخرى قبل أن يدرك اننا نريده أن يتبـع الطريق السابق نفسه ، ثم انطلق بأقصى سرعته ، ولم أرخ له الا القليـل من العنان لأبقيه في الخط . كنت أدق كمي بخاصرتيه ، حـتى قبل ان يتبدد خوفه . وحصل ما حصل في الصبـاح : كان يركض جيداً ، بانقياد كاف ، وقوة عظيمة ، لكنني شعرت كما شعرت في الصباح بان رأسه لا يريـــد التحرك الى اي

مكان ، حتى بدأنا شوط العودة ورأى نـــد في الطرف الآخر للحلبة . آنذاك انتزع اللجام مني ، وشرد عبر الحقل في خط مستقيم باتجاه ند ، قبل ان استعيد توازني وأنحني لاستعيـــد اللجام بيدي السليمة وأشده لأرجعه الى مسار السباق . كان عليّ أن أبقيه على طرف الحلبة وأوجهـــه ليمضي في شوط الذهاب من نقطة تمكنه من رؤية ند ثانية ، وللمرة الثانية اتجه نحو ند ، فاضطررت لاستعمال كلتا يدي لابقيه في الخـــط ، وبدا لي ذلك دهراً الى ان تكلم ند قائلا :

– اضربه ثم ارم القضيب .

وهكذا فعلت ، ثم رميت القضيب .وقفز ثانية ؟ لكنني ملكت زمامه هذه المرة لأن العملية اقتصرت على اللجام الخارجي فقط لإبقائه في الخط المعين أثنـاء شوط الذهاب . واعددت العدة لجموحه عندما يقع نظره على ند . واستمر في سرعته الى ان بلغنا نهاية الشوط ، وهناك كان ند يقف على بعد عشرين ياردة خلف خط الوصول ، وتكلم بصوت مرتفع كي يسمعه الحصان ، وكانت لكلامه نفس النغمة التي كلّمه فيها في عربة القطار الليلة . ولم أكن بحاجة الى القضيب لأنه لم يكن هناك مجال لاستعماله . كنت حتى تلك اللحظة أحسب انني امتطيت على الأقل حصاناً واحداً مهماً : كان حصاناً نصف بري ، نصف أليف من أحصنة ابن العم زاك . لكنه لم يكن لديه شيء من هذا الاندفاع والمجيج ، وكأننا كنـا حتى الآن نشد حبلا ربطت الى نهايته حزمة حطب ، حتى

علا صوت ند وقطع الحبل إذ قال :هيا يا بني ، اعددتها لك .

وهكذا توقفنا هناك ؛ ودفن لايليلينغ وجهه بين يدي ند . ولم أشم آنذاك غير رائحة الحصان ، ولم أر غير باقة من العشب راح يلتهمها وند يقول : هه ، هه ، هه . وصاح بون وهو مقبل : « ماذا قلت له ؟ »

– « لا شيء ، سوى انه كان يريد عشاءه فليسرع ليتناوله . » وتقدم بطش ورفع شفة الجواد وتفحص نيرة اسنانه ، ثم نظر الى عينيه وقال : « ألا تعلم أن تخدير الحصان المعد للسباق مخالفة قانونية ؟ لعلكم انتم الذين تعيشون في مستنقعات ميسيسبي لم تسمعوا بذلك ، لكنه قانون سارٍ هنا . » فأجاب ند :

« نحن أيضاً عندنا أطباء في ميسيسبي . ارسل في طلب بيطري ليفحصه ويرى ان كان مخدراً . » ثم قال لي ان ارجع الحصان الى الاسطبل .

«ودعه يبرد بعد ذلك سنغسله» .

وراقب بطش هذه العملية ايضاً . ورجعت الى الاسطبل وجاء ليكورغوس بدلو ماء وخرقة ، ثم غسل الحصان ونشفه قبل ان يربطه ويقدم له العلف . وهنا طلب بطش من ليكورغوس ان يذهب الى البيت كي يحضر له ماء وسكراً ويضعها على الشرفة الامامية ، لانه يريد ان يشرب وسكي مع الصبي الحلو . لكن ليكورغوس لم يتحرك حتى امره العم بارشم بذلك . فذهب يتبعه بون وبطش . ووقف العم بارشم

على باب الاسطبل يراقبها . اعني يراقب بطش . وكان العم بارشم شيخاً نحيلا دراماتيكيـــاً ، يتجاوز في هيئته الاسود والابيض ، اذ كان يرتدي بنطلونا أسود وقميصاً ابيض . كان وجهه اسود وقبعته سوداء فوق شعر ابيض وشاربين ولحيـة بلون ابيض .

قال : «قانون» . قال هذا بهدوء وبرود ، وازدراء . فقال ند :

« رجل لا علاقة له بمعنى الشارة التي يحملها ، الا انهـــا تركب رأسه بسرعة تجعل رأسك أيضاً يدور » .

وهنا عاد لكيورغوس وقال لي :

« انهم ينتظرونك . العربة » .

« هل عادت من البلدة الآن ? »

« لم تذهب الى البلدة قط . لم تبتعد . كانت جالسة مع ذلك الصبي بانتظاركم ، وقـد أرسلتني في طلبك فاستوقفني ند : كان الجورب ما يزال في يدي وحسبت انه يعنيه ، لكنه لم يهتم به وظل يحدق فيّ ثم قال : « ستصطدم بالنـــاس الآن ». فسألت : « أي ناس ? »

« لقد انتشر خبر هذا السباق الآن . »

« كيف انتشر ? »

« وكيف تنتشر الاخبار ? لسنا بحاجة الى رسول . كل ما نحتاج اليه جوادان يبعدان احدهمـا عن الاخر ، عشرة أميال . كيف تتصور بأن القانون جاء الى هنا ? ربمـا لانه

شم رائحة الصبية عن بعد أربعة أميال او خمسة مثل كلاب الصيد . كل ما رجوته هو ان ندخل السباق بهدوء ودون ضجة ، ولا فرق بعد ذلك ربحنا ام خسرنا . فإما ان نرجع إلى البيت ، انا وانت وبون او نذهب حيثما شئنا ، شرط ألا تطالنا يد الرئيس بريست . لكن لم يعد الامر سراً . ستلتقي بهم من الان فصاعداً ، وسيكونون غداً اكثر ازدحاماً . »

« تعني ان بإمكاننا دخول السباق ؟ »

« يجب ان ندخله . ربما صرنا مضطرين إلى ذلك منذ ان اعتقد بون أن الرئيس قد نفض يده من قضية السيارة منذ اربع وعشرين ساعة . الآن لا بد من دخول السباق . »

« ماذا تريدني ان افعل ؟»

« لا شيء . اردت ان اخبرك فقط ، كي لا تفاجأ . كل ما علينا هو ان نحصل على جوادين يركضان في خط واحد ويتجهان جهة واحدة ، فتعتلي انت ظهر لاتينيننغ وتفعل كما أخبرتك . اذهب الآن قبل ان ينادوك .»

الفصل التاسع

كان ند على صواب . اعني فيما يتعلق بنشر الأخبار . لم يكن في يدي شيء غير عادي عندما نزعت عنها إفربي جورب الركوب . اعني انها كانت مثل أية يد أصابها جرح على طول الاصابع في الليلة البارحة . ولا اعتقد انها نزفت ، حتى حين استعملتها لشد لا يتنينغ ، عندما جمح بعد ظهر اليوم لكن كان لافربي رأي آخر . وهكذا توقفنا عند طبيب ، ابتعد بيته حوالي ميل . كان بطش يعرفه ويعرف مكانه . ولا اعرف كيف اقنعته افربي بأخذنا اليه . او ربما لم تكن افربي هي التي أقنعته ، بل زجاجة الخمر الفارغة . ذلك لأن الكأس الثانية كانت يجب ان تشرب في فندق بارشم فقد كان انني حين اقتربت من البيت ، رأيت أم ليكورغوس واقفة على طرف الشرفة وبيدها سكرية ودلو ماء وقرعة يقطين مفرغة . وكان بطش وبون يحتسيان آخر قطرة من

الخمر ، بينما كان ليكورغوس يلتقط الزجاجة الفارغة التي رماها بطش في عليقة مزهرة .

وهكذا قادنا بطش الى بيت الطبيب – كان بيتاً صغيراً أبيض وسط ساحة صغيرة ملأى بالازهار المغبرة ، التي تتفتح في اواخر الصيف وفي الخريف . واستقبلتنا امرأة بدينة رمادية الشعر تضع نظارتين على أرنبة أنفها ، وتبدو مثل معلمة متقاعدة ، ظلت تكره الاولاد حتى بعد تقاعدها بخمس عشرة سنة . وحالما رأتنا التفتت نحو داخل البيت ونادت : إنهم جماعة حصان السبق . اذن كان ند على صواب . ودخل بطش قبلنا وقال : مرحباً ايها الطبيب ! جئتك بمريض .

كان الطبيب رجلاً رمادي الشعر يلطخ لحيته عصير التبغ ، يرتدي قميصاً أبيض كقميص ند ، لكنه لم يكن في نظافة قميص ند . كما كان يرتدي سترة سوداء عليها بقعة مشرورة من آثار صفار البيض . كانت رائحته تشبه شيئاً ، لا كالكحول ، أو بالأصح لم تكن كلها كحولاً . وقال بطش :

« أنا والأخ هوجانبك سننتظر هنا في الردهة . لا تزعج نفسك ، أعرف أين زجاجة الوسكي . » ثم قال لبون :

« لا تقلق بشأن الطبيب . انه لا يمس الوسكي إلا عند الضرورة . فالقانون يسمح له بجفنة مخدر لكل مريض كجزء من العلاج ، سواء كان مرضه جرحاً او كسراً في العظم . فإذا كانت الحالة مجرد جرح قديم أو اصبع مفزور كهذا ، فإن الطبيب يتقاسم العلاج مع المريض فيشرب كل المخدر ويترك

للمريض كل العلاج . هه ، هه ، هه ، من هنا . »

وهكذا ذهب بطش وبون الى الردهة بينما تبعنا ، أنا وافربي ، الطبيب الى غرفة فيها اريكة من وبر الجياد تعلوها وسادة قذرة. وكانت هناك مكتبة تعلوها زجاجات الادوية، وعلى اطرافها رماد نيران الشتاء الماضي، الذي لم يمسسه احد. كما كانت هنـــاك مغسلة عليها طست وابريق لم تفرغ ماؤه منذ مدة طويلة . ولو أن أمي كانت موجودة ، لما سمحت له بلمس جرح في اصبعها . ويبدو أن افربي كانت تفكر على طريقة أمي ، فسارعت بنزع الضماد عن يدي . كانت بحالة جيدة كما قلت . ونظر اليها الطبيب من وراء نظارتيه ، ثم سأل افربي عما وضعت عليها ، فأخبرته . فقال لها الطبيب: كيف تيسر لك ذلك ؟ ثم رفع النظارتين ونظر اليها ، ثم أعاد النظارتين وتنهد ثم قال : لم أزر ممفيس منذ خمس وثلاثين سنة . نعم ، خمس وثلاثون ... لو انني مكانك لمـــا فعلت لهذا الجرح شيئاً . ثم قال لي : هل أنت الصبي الذي سيمتطي الحصان غداً ؟

فأجابته افربي بالايجاب ، فقال : تغلب على حصان لنسكوب هذه المرة – لعنه الله . فهزت افربي برأسهاموافقة واستفهمت عن المبلغ الذي يطلبه بدل المعاينة . فقال الطبيب ان لا داعي لذلك ، لأنهـــا هي التي عالجت الجرح وشفته . فعادت افربي تلح على الدفع لمجرد أنه طمأننا عن حـــالة الأصابع . ولكن الطبيب أصر على رفضه . ونظر اليهـا من

وراء نظارتيه ، بعينين واسعتين غير مركزتين على شيء معيّن وقال لها :

« لو ان معك منديلا اضافياً أو شيئاً ما ... نعم ، خمس وثلاثون سنة . كان لديّ واحد عندما كنت شاباً ، منذ خمس وثلاثين سنة . بعد ذلك تزوجت و ... نعم ، خمس وثلاثون سنة ! »

وأدارت افربي ظهرها وانحنت ، فسمعت حفيف ثوبها الذي لم يكن طويلا . ثم سمعت الحفيف ثانية حين وقفت واستدارت وفي يديها ربطة ساقها . وتناهى الينا صوت بطش المرتفع ونحن خارجون. وكان يقول : ما قولك ؟ هذا الصبي الحلو لا يرغب في كأس اخرى ، حين يكون الشباب يتخاطفون الشراب . لقد اهانني !

ثم وقف ينظر الى بون باستهزاء ويبتسم بتسلّط وانتصار. اما بون فقد كان منظره مخيفاً تلك اللحظة . وكان ند مرهقاً لقلة النوم. انما كان على ند ان يحمل عبئاً واحداً هو الحصان، بينما كان على بون ان يحمل إفربي والشارة التي على صدر بطش، وان يظلا عبئه الثقيل وشغله الشاغل . وكان بطش ما يزال يضحك . وهمّ بأن يضربه على ظهره مرة اخرى ممازحاً ، لكن بون اوقفه هذه المرة ، وقال له : لا تعدها ! فتوقف بطش ، ولكنه ظل يبتسم ساخراً وقال لبون : اسمي لف ميدن ، انما يمكنك ان تناديني بطش . فقال بون لف ميدن !

وسألنا بطش عما إذا كان الطبيب قد عالجني كما يجب . واقترح بون أن نذهب ، فخرجنا . حينئذ سألت إفربي عن اوتيس ، فاخذت تناديه ، لكن بهدوء ودون إلحاح . فقال بون انه ربما سبقنا ، إذ أين يمكنه أن يذهب هنا . وقال اننا سندركه في الطريق ونأخذه معنا ولم يفته ان ينعته بابن الكلبة وابن المومس . وصعدنا الى العربة وأجلستني إفربي قربها ، حيث كان يجلس اوتيس . ولم أجد في حياتي شخصاً يفقد ثقة الناس بهذه السرعة . اذ لم يكن في العربة من يثق به . ولو قضى في بارشم وقتاً طويلاً ، لارتابت به البلدة كلها .

وصلنا الى الفندق . وهناك اكتشفت ان ند كان على خطأ ، أعني بصدد تقاطر الجماهير لمشاهدة السباق . فقد توقعت أن أجد شرفة الفندق مزدحمة بمتفرجين ينتظرون مشاهدتنا عندما نصل . لكنني لم أر أحداً . كان يمكن ان يحصل ذلك في الشتاء ، في موسم الصيد ، لا في الصيف . لبارشم فصل صيف ، لأن الناس يذهبون إلى أماكن أخرى . لم تعد الحال هكذا في هذه الأيام . إذ ما حاجة الناس الى الاصطياف أو الاشتاء ، ما دامت أجواء البيوت تكيّف فتنخفض الحرارة كثيراً في الصيف ، وترتفع كثيراً في الشتاء ، حتى ان أمثالي يضطرون للخروج منها هرباً من بردها في الصيف وهرباً من حرها في الشتاء . وكذلك السيارات . فقد كانت من قبل ضرورة اقتصادية فصارت اليوم ضرورة اجتماعية . لم نكن اذن في موسم نشاط البلدة — موسم الصيد والمسابقات

الوطنية – حين يعج الفندق الفخم بالزوار من ذوي الثروات والالقاب ، وبالخدم ومظاهر الابهة ، حـين يكون موشى بألوان البنود المختلفة ، وتختلط في ارجائه أصـداء الكؤوس الفضية ببريق المال والأصوات التي تتحدث بلذة وشهيـة عن المال .

وهكذا ، فحين بلغنا الفندق لم نجد شيئاً من كل هذا. كان الشارع الهادىء خالياً إلا من غبار شهر ايار . كان خاليـاً حتى من اوتيس ، الذي ربما كان داخل الفندق . ولكن شدّ ما أدهشني ان يتغيب بطش . فقد اوصلنا الى الباب واستدار راجعاً ليلقي نظرة ساخرة قاسيـة على افربي وأخرى على بون . غير ان افربي ردت على نظرته بعبارة لا تقل قسـوة وسخرية :

« لا تشغل بالك . سأرجـع . اذا كانت لديك مشاغـل معلقة ، فالأفضل أن تحلها قبل أن أرجـع . والا وقـع حادث ما . »

ولكنه تابع طريقه . ربما كان لديه مكان يذهب اليه هو أيضاً . كنت ما أزال جاهلا وبريئاً (ليس بقدر جهلي وبراءتي منذ أربع وعشرين ساعة) لكنني كنت في جانب بون ، وانمـا ليس فيما يتعلق بإفربي . وكنت قد جمعت معلومات منذ البارحة ، سواء هضمتها أو لم أهضمها بعد، تجعلني أتمنى ان تكون له زوجـة في المكان الذي ذهب اليه ، زوجة بريئة اختطفت من أحـد الاديرة ، حيث كانت بلا صديق او احد

يثأر لها حين يغدر بها . لقد تمنيت هذا ليتضاعف وزر بطش في الدناءة والقسوة الفطرية . لكنني كنت مخطئاً ، اذ كان بطش عازباً .

ولم نجد اوتيس داخل الفندق . ولم يكن فيه غير كاتب يجلس في ردهة نصف معتمة ، وخادم يعبث بفوطته وهو واقف بباب غرفة الطعام التي لم يكن فيها غير مائدة واحدة، أعدت لمناسبات كهذه . ولم يكن اوتيس هناك أيضاً .وشعر بون بتساؤلنا عنه فقال : لست مهتماً بمكان وجود اوتيس الآن ، ولا بما يكون قد ارتكبه دون علمنا . فقالت إفربي : لم يرتكب شيئاً . انه ولد .

« نعم، ولد صغير مسلح ! ولكنه عندما يكبر، يستطيع ان يسرق ... » فقاطعته إفربي تحاول اسكاته ، غير انه استأنف كلامه قائلاً :

« حسناً ، حسناً . إذن ، اجمعي مالاً يكفي كي يشتري سكيناً طول نصلها ستة بوصات بدل تلك السكين الصغيرة . فيصبح على كل من يدير له ظهره ان يلبس واحداً من تلك الدروع التي تغطي الجسم كله ، كالتي ترينها في المتاحف » . ثم قال بعد لحظة: « يجب ان أكلمك . سنتعشى حالا ، ثم ننتظر القطار . لأن ذلك الحصان الذي يضع شارة من تنك سيأتي في أية لحظة . » ثم امسك بذراعها وقال لها تعالي .

جرى ذلك عندما بدأت اصغي لبون . اعني عندما اضطررت . وقد اجبرتني إفربي على ذلك ، حين رفضت أن

تذهب معه بدوني . فذهبنا إلى ردهة السيدات . ولم يكن أمامنا متسع من الوقت : كان علينا أن نتناول العشاء بسرعة ثم نذهب الى المحطة لاستقبال الآنسة ريبا . ففي تلك الأيام لم يكن باستطاعة النساء الدخول والخروج من غرف الرجال في الفنادق كما يفعلن اليوم . بل لقد سمعت أنهن ينتقلن مرتديات ما تسميه الجرائد بـ « الشورت » أو الثياب القصيرة التي تعطي المرأة الحرية التي تحتاج اليهـــا في نضالها من أجل التحرر . والحقيقة انني لم أر في حيـــاتي امرأة تدخل فندقاً بمفردها (لم تكن امي تذهب بدون أبي) وما زلت اذكر كم استغربتُ ان تستطيـع إفربي دخول الفندق دون خاتم زواج. كان للفنادق آنذاك ما يدعى بردهة السيدات ، وهي عبارة عن صالة صغيرة مؤثثة بشكل فخم . وحين بلغناهـــا كنت ما ازال بجانب بون ، لذلك لم أدخل بل بقيت خارج الباب ، بحيث تعرف إفربي اين اكون وتستنجد بي عند الحاجة دون ان تضطر الى الصراخ . لذلك سمعت ، بل أصغيت . كنت مضطراً الى ذلك على أية حال . وكنت قد سمعت الكثير من القذارات وحقائق الحياة كي أصبح عن التوقف الآن . لذلك سمعت . كانت إفربي تكلم :

« كلا ! لا أريد.! اتركني . »

« لكن ، لمـــاذا ؟ قلت أنك أحببتني . هل كنت تكذبين علي ؟ »

« احبك . لهذا لا أريد . اتركني ! افلتني ! لوشيوس ! لوشيوس.»

« اسكتي . اسكتي . »

ثم ساد صمت قصير . فلم أنظر ، ولم أوصوص ، بل اكتفيت بالإصغاء :

« إذا لاحظت أنك تخدعينني وتهتمين بذلك اللعين صاحب شارة التنك ... »

« كلا ! كلا ! أبداً . » ثم تبادلا كلاماً لم أستطع سماعه إلى ان قال بون :

« ماذا ؟ تركتِ ؟ ماذا تعنين بقولك تركتِ ؟»

« نعم ! تركت ! لن افعل ذلك بعد الآن ! أبداً !»

« كيف ستعيشين ؟ ماذا ستأكلين ؟ أين ستنامين ؟»

« سأجد عملا . اقدر أن أشتغل .»

« بماذا تستطيعين أن تعملي . لست متعلمة اكثر مني . ماذا يمكنك أن تعملي لتكسبي عيشك ؟»

« أقدر أن أغسل الاطباق . أقدر أن أغسل وأكوي . أقدر انأتعلم الطبخ.أقدر أن أقطف القطـــن . دعني اذهب يا بون ، أرجوك ، أرجوك . يجب ان اترك ، ألا ترى ذلـــك ؟ »

ثم سمعت وقع أقدامها وهي تركض ، بالرغم من سماكة السجادة ، وهكذا أمسك بي بون هذه المرة . لم يكن منظر وجهه مسراً . كان ند محظوظاً . كان لديه همّ واحد ، هو

السباق ، وقال بون ووجهه يكاد ينفجر : « انظر الي . انظر إلي جيداً . ما عيبي ؟ بحق الشيطان ما علتي ؟ كنتُ عادة ... » وازداد احتقان وجهه ثم تابع : « لكن لماذا أنا ؟ بحق الشياطين لماذا تختارني من بين كل الناس لتهتدي على حسابي . انها مومس . لماذا لا تفهم هذه الحقيقة ؟ انها تقبض اجرتها لتكون ملكي منذ ان تضع قدمها حيث اكون ، تماماً كما يستخدمني الرئيس والسيد موري واكون تحت تصرفهما منذ ان اضع قدمي حيث يكونان . لكنها تركت ، ولاسباب خاصة . لا يمكنها أن تعود كما كانت . ولا يحق لها ان تترك دون موافقتي ... » ثم توقف عن الكلام . كان محتاجاً وخائباً . وكان يرغي ويزبد لكنه كان عاجزاً ، بل كان مذعوراً .

وتوقف عندما وقف الخادم الزنجي بالباب يلوّح بفوطته . لقد بذل بون مجهوداً عظيماً . ولقد كان ند مرتاحاً ، اذ لم يكن عليه إلا ان يكسب السباق . ثم اخبرني بون برقم غرفتها وسألني ان أذهب وأدعوها للعشاء ، لنتمكن من ملاقاة القطار .

فذهبت ودعوتها ، لكنها رفضت ان تخرج . وهكذا أكلنا وحدنا ، انا وبون . لم يكن وجهه قد هدأ بعد ، فكان يأكل بشكل آلي ، دون اية رغبة في الطعام او نفور منه . فقلت له بعد لحظة : لعله في طريقه الى أركنساس . فأجاب بون : أكيد . لعله سبقها ليجد لها وظيفة ، او لعله هو نفسه

اهتدى ، فيذهبان معاً الى السماء مباشرة دون ان يتوقفا في اركنساس أو غيرها . نعم ، سبقها ليجد طريقة تمكنها من المرور بمفيس دون ان يراهما احد .

وكان وقت الذهاب قد حان وحين جاءت افربي،اخذتُ أراقب طرف تنورتها من وراء باب غرفة الطعام . ثم ذهبنا نحن الثلاثة باتجاه المحطة . لم يكونا يتخاصمان الآن بل كانا يستطيعان أن يتبادلا الكلام ، إنما كان على بون ان يأخذ المبادرة . واقتربنا من المحطة ، ولم يبق لنا إلا أن نقطع خط السكة لنصل الى الرصيف . واقترب القطار . ومرت أمامنا القاطرة ترعد والشرر يتطاير من فراملها ، ثم توالت مقطورات الركاب وبينها المقطورة الخاصة ثم تلتها مقطورة الشحن .

كان هذا قطار سام كالدويل . واذا كانت افربي واوتيس قد جاءا الى بارشم بقطار شحن ، فإن الآنسة ريبا ستكون في قاعة الاستقبال ، هذا ان لم تكن في مقطورة رئيس الجمهورية الخاصة . ووقف القطار ولم تفتح أية مقطورة ، ولم نشاهد حمّالين يرتدون المعاطف البيضاء . ومع هذا ، فقد كنا متأكدين ان سام يبحث عنا . وفجأة قال بون : يا للشيطان ، انه في عربة التدخين . وانطلق يركض .

عند ذاك رأيناهم . كان السيد كالدويل على الدرج يساعد الآنسة ريبا على النزول ، ومعها امرأة تتبعها . ولم تنزل من عربة التدخين بل من العربة التي يسافر فيها الزنوج . واقتربت المرأتان ووقفتا على رصيف المحطة قرب الحقائب . كانت

الآنسة ريبا جميلة أنيقة اللباس ، وبقربها تقف ميني ، كأنهـا الموت . وقالت الآنسة ريبا : حصلت لنا متاعب ، أين الفندق؟ فذهبنا الى الفندق ، وهناك في ضوء الردهة استطعنا ان نرى وجههـا . لم يكن يشبه الموت – فالموت هادىء مسالم ولم يكن في وجهها ما يوحي بأي هدوء او سلام . وجـاء كاتب الفندق فقالت الآنسة ريبا : أنا السيدة بنفورد ، هل وصلتك برقيتي التي طلبت فيها اضافة سرير غرفتي لخادمتي ؟ فأجابها : نعم ، يا سيدة بنفورد . عندنا جناح خاص بالخدم مع غرفـة طعام خاصة بهم . فقالت : أبقهـا لغيرنا . قلت. أريد سريراً اضافياً في غرفتي . أريدها ان تكون معي . سننتظر في الصالة الى ان تهيء ذلك . أين هي ؟

كانت قد عرفت موقع صالة السيدات فذهبت وتبعناها .

وقالت الآنسة ريبا : أين هو ؟ فأجابت افربي : من ؟ .

وفجأة عرفتُ من هو . وبعد لحظة اخرى كنت سأعرف السبب ، ولكن لم يكن أمامي وقت . وطلبت الآنسة ريبا من ميني ان تجلس ، لكنها لم تتحرك . فقالت لهـا : حسناً اخبريهم . وهنا ابتسمت ميني أمامنا . كانت ابتسامة شاحبة باهتة – بمجرد فتحة فم عصبية شرسة . وبدا فمها مثل جرح أسود أطلت منه اسنان بيضاء جميلة ، اصطفت بانتظام حول الفتحة السوداء حيث كان السن الذهبي . آنذاك عرفت لماذا هرب اوتيس من بارشم سيراً على قدميه . وقالت ميني :

« انه هو ! اعرف انه هو ! اخذها عندما كنت نائمة ! »

فأجاب بون : « بحق نيران الجحيم ، هل يمكن ان يأخذ احد سناً من فمك ولا تشعرين به ؟» فقالت الآنسة ريبا : « عليك اللعنة ، اسمع . اوصت ميني على صنع تلك السن بشكل يمكنها من نزعه ووضعه . فاشتغلت اعمالاً إضافية ووفرت – كم سنة يا ميني ؟ ثلاث اليس كذلك ؟ – الى ان تجمع لديها ما يكفي لخلع سنها الأصلية والحصول على تلك السن اللعينة . أوه طبعاً ، حاولت ان اثنيها عن ذلك ، عن افساد هذه الاسنان الطبيعية الرائعة التي يتمنى أي شخص ان يدفع ألف دولار مقابل الحصول على مثلها ، هذا فضلاً عما دفعته زيادة « ليصبح بامكانها نزع السن عندما تأكل ... » وهنا صاح بون قائلا : « تنزعها عندما تأكل ؟ بحق الشيطان لاي شيء توفرها ؟ » فقالت ميني : « منذ زمن طويل وانا أتمنى الحصول على تلك السن . وقد اشتغلت ووفرت حتى حصلت عليها . ولم ارد أن يفسدها شيء كالطعام ! »

ثم اوضحت الآنسة ريبا انها لم تكن تبعد السن عنها، وانها كانت تضعها على طرف الصحن امامها وهي تأكل ، وانها لم تنسها قط. وأكدت ميني أنها أعادتها الى فمي بعد ان تناولت طعامها للمرة الأخيرة . انما كانت متعبة ، منهوكة القوى . وهنا تولت الانسة ريبا شرح ما جرى ليلة سرقت السن ، فقالت : « أظنني كنت ثملة قليلا عندما أتيتم ليلة البارحة. ولم اشفَ جيداً واتوقف عن الشراب حتى الفجر . فطلبت من ميني ان تشرب جرعة من الجن وتذهب لترى ان كان الباب

الامامي مقفلا ، ثم تذهب الى فراشها . وأيقظت جاكي وطلبت منها أن تبقي الابواب مقفلة وان لا تستقبل احداً قبل السادسة من هذا المساء. لذلك عادت ميني الى فراشها في غرفة المستودع . وفي البداية حسبت انها نسيت ان تقفل بابها . وهنا قاطعتها ميني لتؤكد أنها أقفلته لأنها تعرف ان البيرة فيه، وقد دأبت على قفله منذ جاء اوتيس أول مرة . وقالت الانسة ريبا متابعة كلامها :

« وهكذا كانت حالها . منهكة وغارقة في نوم عميق ، بعد ان اقفلت الباب ، ولم يخطر لها شيء حتى ...» وهنا تولّت ميني الكلام فقالت :

« ... حتى استيقظت . كنت ما ازال مرهقة وتعبة ، فلم اغادر السرير. ولم افطن لشيء . انما شعرت بشيء غريب في فمي ، فحسبتها قطعة من بقايا الطعام ، ولم اعرف الحقيقة حتى ذهبت الى المرآة ... انه هو الذي فعل هذا . كان يضايقني كل يوم سائلا : كم يكلف، ولماذا لا أبيعه ، وكم يدفعون لي اذا عرضته للبيع ، وأين يمكن أن أبيعه ... » فعلّقت الانسة ريبا قائلة :

– « طبعاً . لهذا صرخ مثل قطة متوحشة هذا الصباح عندما اخبرته أنه لن يعود الى اركنساس ، بل سيأتي معك الى بارشم . ولهذا هرب عندما سمع صفير القطار . أين هو الآن ؟ سأستعيد سن ميني . » فاجابت افربي :

. « نعرف اين اختفى من العربــة حوالي الخامسة والنصف وحسبناه هنا ، اذ ليس لديه مكان آخر يذهب اليه . لكننا لم نعثر عليه . »

« لم تفتشوا جيداً . فهو ليس من النوع الذي يحضر اذا صفرت له . يجب خنقه بالدخــان كي يخرج مثل الجرذ أو الأفعى . »

وجاء مدير الفندق واخبر الانسة ربما أن غرفتهــا جاهزة ، فنهضت وقالت انها ستذهب لتؤمن نوم ميني وتبقى معهــا حتى تنام ثم تعود لتناول العشاء . وخرجت بصحبة ميني .

كنا ما نزال واقفين ، إذ لم يجلس احد منــا . وكانت إفربي واقفة هناك بهدوء . كانت صبية ضخمة تناسبهــا الرصانة ، وكذلك الحزن . ربمــا لم يكن الحزن هو الذي استولى عليها ، آنذاك ، بقدر ما كان الشعور بالعار . وبعد لحظة قالت :

« لم تتح له اية فرصة هناك . لهذا فكرت ...بإحضاره، ولو لاسبوع ، خلال الصيف الماضي ، وهذه السنة ايضــاً ، خاصة بعد ان سمعت انكما آتيان . وحالمـا رأيت لوشيوس عرفت انني هكـــذا أردت ان يكون اوتيس . لكنني لم أعرف كيف أفهمه ذلك،او اعلمه . لذلك حسبت ان وجوده مع لوشيوس ، ولو لثلاثة أيام ... » فتقدم منها بون

وربت على ظهرها مهدئاً . ولم يحاول وضع ذراعه حولها هذه المرة . وقال :

« بالتأكيد . اردت ان يكون مهذباً . لكن لا بأس . فعلت كل ما تعرفين . هيا بنا الآن . » وجاء الخادم وأخبر بون أن سائق عربته في المطبخ . فأبدى بون استغرابه قائلا ليس لديه سائق عربة . لكنني عرفت . كان ند . لذلك مشيت وتبعاني نحو المطبخ . وهناك كان ند يقف قرب الطاهية . وكانت زنجية ضخمة تجفف الاطباق . وسمعناه يقول لها :

« ان كان المال هو ما يشغل بالك يا حلوتي فأنا الرجل ... »

وتوقف لدى رؤيتنا . وكأنما قرأ افكار بون في ومضة ، فقال : « ارح بالك . انه هناك عند بارشم . ماذا فعل هذه المرة ؟» فلم يفهم بون عما يتكلم ند . فقلت : انه يعني اوتيس فقد وجده ند . فقال ند :

« لست انا الذي وجده . لم اضعه أبداً . كلاب العم بوسم وجدته . حاصرته خلف قن الدجاج حتى ذهب ليكورغوس وأتى به . رفض ان يأتي معي ، وقد تصرف وكأنه لا ينوي الذهاب الى اي مكان . ماذا فعل هذه المرة ؟ » فأخبرناه ، فقال : « اذن ، هي ايضاً هنا . هه ، هه ، هه . واذن ، لن أجده عندما أعود » . فسأله بون عما يعني ، فأجاب : « أكنت تبقى لو انك مكانه ؟ انه يعرف ان البنت قد

أفاقت وافتقدت السن . ولا بد انه صار يعرف الآنسة ريبا جيداً ليدرك انها لن ترتاح حتى تقبض عليه وتنفضه حتى تسقط منه السن » . فقال بون :

« حسناً ، وماذا سيفعل بها ؟ »

« لو كانت مع شخص غيره ، لفكر بثلاث طرق للتخلص منها . بيعها او اخفاؤها ، أو اعطاؤها لشخص مـــا . وهذا ما لن يفعله هو طبعاً . فبيعها يقتضي ذهابه الى ممفيس أو أية مدينة اخرى . وهذا يكلفه نفقات ، ولا رغبة لديـه في دفع شيء من جيبه . لذلك فان أفضل مكان يبيعها فيه هو ميدان السباق ، حين يتجمع الناس غداً . وهناك يمكنه ان يبيعها او يراهن بها . لكنه ليس اهلا للرهان . لان الرهان عملية بطيئة وغير مضمونة . لكن يمكننا ان نبحث عنه هنـــاك . ومن المؤسف انني لم اعرف القصة حين رأيته . ربما كنت استطعت إخراجها منه . » فقالت افربي :

« هل يمكنك ان تعثر عليه غداً ؟ يجب ان أجده . انـه ولد . سأدفع ثمن سن اخرى لميني . يجب ان أجده . سوف ينكر ويقول انه لم يرها مطلقاً . » فقال ند : « طبعاً . هكذا كنت افعل لو انني مكانه . سأحـاول . سآتي باكراً لرؤية لوشيوس . لكن افضل فرصة للعثور عليـه هي في الميدان ، قبل بدء السباق » ثم التفت إلي وقال :

« ما زال الناس يتوافدون على بيت بوسم . ربما ليعرفوا من نظن ، بعد الان ، ان هذا الحصان يقدر ان يركض .

لذلك سيكون هناك حشد كبير غداً . الوقت متأخر .اذهب ونم قليلا . انا ايضاً يجب ان اعود ، وارجع البغلة كي تنام . الان ؟ تصبحون بخير . » وخرج .

وذهبنا الى غرفة المائدة ، حيث كان الخادم يقدم العشاء الى الانسة ريبا فسألتها افربي اذا كانت قد نامت ، فاجابتها « نعم . ذلك الصبي ابن ... عفواً . حسبت انني رأيت كل شيء في مهنتي ، لكن لم يخطر لي ان احداً سيسرق سناً في احد بيوتي . اكره البناديق الصغار . انهم مثل الأفاعي الصغيرة . يمكنك ان تتدبري امر الافاعي الكبيرة ، لأنك تكونين حذرة ومستعدة لها . اما الصغيرة فتلسعك من وراء ظهرك قبل ان تتبيني ذلك . »

في تلك اللحظة بدت قاعة الطعام غاصة بالناس . على الرغم من اتساعها ، كما يحصل دائماً عندما يلتقي بون وبطش داخل اربعة جدران . لأن كل شيء يتضخم ويتضاعف ولا تبقى هناك اية فسحة . كان بطش قد رجع الى الطبيب ، او الى اي مكان آخر يقدم كأساً مجانية لمن يحمل شارة الشرطة . ونهضت افربي مسرعة ، ودارت حول المائدة ، وجلست على كرسي قرب الانسة ريبا . وكان بطش ينظر اليها ، وكنت انا ، هذه المرة ، قد مللت من اهمية بون واعطيت افربي المكان الأول . ولم يكن بون يحمل غير عبء واحد هو بطش ، بينما كانت إفربي تواجه عبئين : بون وبطش معاً . وقال بطش :

« هل سيأتي سكان شارع كاتالبـــا كلهم الى بوسم ؟ »
فحسبته صديقاً للآنسة ريبا ، او ان لها علاقـــات عملية معه . لكنه لم يذكر اسمها . ومع انني كنت في الحادية عشرة من عمري ، فقد كنت اعرف آنذاك ان مثل بطش لا يذكرون أحداً إلا عندما يحتاجون اليه . ولم يكن مـــا يحتاج اليه سوى امرأة اخرى ، بصرف النظر عمن تكون ، شرط ان تكون فتية الى حد ما، ومقبولة. ام تُراه لم يكن يحتاج اليها : انما وجدها صدفة ، شأن الأسد الذي يكون في طريقه إلى مقاتلة اسد آخر في نزاع حول غزال . ومع ان الأسد يكون واثقاً من فوزه على غريمه ، يكون مجنوناً إن لم يرم في طريق الغريم بغزال آخر يكون قد لقيه في طريقه ، فيصرفه عن طريدته الاصلية . وهكذا كان . إلا ان الآنسة ريبا لم تكن غزالا ، بل اسد . وقـــال بطش : « الصبي الحلو يستعمل عقله . لمـــاذا نتطاحن على قطعة لحم ، اذا كان هنالك قطعة اخرى تماثلها في التفاصيل ، مـــا عدا فارقاً بسيطاً في اللون ؟ » فقالت الآنسة ريبا لافربي :

« من هذا ، اهو صديقك ؟ » فاجابت افربي : « كلا ، ارجوك. » فقال بون: « لم يعد لها اصدقاء . لم تعد تريدهم. لقد تركت هذه المهنة. وحالما نلتهي من هذا السباق، ستذهب الى مكان ما وتجد وظيفة غسالة صحون . اسأليها ! »

وكانت الانسة ريبا تنظر الى افربي ، فقالت هذه : « ارجوك . » فسألت الانسة ريبا بطش عما يريد فاجاب :

«لا شيء . لا شيء مطلقاً . كنـا ، انا وهذا الحلو ، على خلاف منذ قليل . لكنك جئتِ ، وصار كل شيء على ما يرام . » ثم تقدم وأمسك بذراع افربي وطلب اليهـا ان ترافقه الى العربة في الخارج. فأمرتني الانسة ريبا بصوت مرتفع ان انادي المدير . وقبل ان اتحرك ، أطـــل مدير الفندق من الباب فقالت له الآنسة ريبا :

« هل هذا الرجل يمثل القانون هنا ؟ » فأجاب : « نعم . كلنا هنا يعرف بطش ، يا سيدة بنفورد . أصدقاؤه في بارشم كثيرون . انه من هاردويك ، إذ ليس عندنا في بارشم شرطي لأن بلدتنا لا تستحق شرطياً بعد ! »

لقد اثرت ضخامة بطش وحماسته في نفس المدير قبل ان يدخل الباب ، وكأنما قد أغرقه هذا التأثير فتضاءل وامحى ، كما تتوارى فأرة في السقيفة . وبدت آنذاك عينـــا بطش باردتين قاسيتين . وقال للمدير :

«ربما كان هذا ما ينقصكم هنا ربما لهذا السبب لا تتقدمون. انكم تحتاجون الى قليل من القانون » فقالت الآنسة ريبا :

« تعني ان باستطاعه اي رجل ان يدخل من الشارع ويجر اية امرأة تحلو له من نزيلات الفندق ، ويأخذها الى أقرب سرير ، كأنك تدير بيتاً للقطط ؟ » فقال بطش :

« من الذي يجر والى اين ؟ وبماذا ؟ بدولارين ؟ » فنهضت الانسة ريبا ، وقالت لافربي :

« هيا ، يوجد قطار الى ممفيس ، الليلة . أعرف صاحب

هذه المزبلة . واظنني سأذهب لمقابلته غداً ... » فقال مدير الفندق مقاطعاً :

« أو ، بطش . انتظري ، يا سيدة بنفورد ..» فقال له بطش :

« اذهب الى الباب الأمامي . قد يأتي الآن نزلاء أثرياء ولا يجدون من يسجل لهم أسماءهم . نحن هنا أصدقاء .» فذهب المدير ، واقترب بطش من افربي ثانية وأمسك بذراعها قائلاً : « الآن وقد سويت المسألة ... » فقاطعته الآنسة ريبا قائلة : هكذا اذن ، تعال معي الى الباب الأمامي ، أو الى أي مكان منعزل . لدي ما أقوله لك .» واستفهم بطش عن الموضوع الذي ستكلمه فيه ، لكنها لم تجب ، بل سارت نحو الباب ، فقال : « هل قلت الى مكان منعزل ؟ انني على استعداد للاعتناء بأية حسناء في مكان منعزل .» ثم خرجا ، وغابا خلف باب صالة السيدات ، حوالي دقيقة أو اكثربقليل، الى أن عادت الآنسة ريبا ، كما ذهبت ، وهي تسير بهدوء . ثم سمعنا بطش يقول : « هكذا إذن . سوف نرى . » وتابعت الآنسة ريبا خطواتها الثابتة الى حيث كنا ننتظر . ووقفت تراقب بطش وهو ينصرف . ثم سألتها إفربي قائلة : « هل انتهينا منه ؟ » فأجابت بالايجاب وقالت لبون : « هذا يسري عليك أيضاً . » ونظرت الي . وقال بون : «بحق الشيطان ، ماذا فعلت له ؟» فأجابت وهي تنظر الي : « لا شيء . حسبت انني عرفت مشكلات بيوت القطط

كلها ، حتى واجهت منها مشكلة الأولاد ! » ثم قالت لافربي: « أنت أحضرت ولداً يسرق الأسنان المتحركة ، ويشرب في الخفاء بيرة بما يساوي اربعة عشر دولاراً . وكأن لم يكفنا هذا ، فأحضر لنا بون هوجانبك ولداً آخر يدعو بناتنا الى الحشمة والفقر . أنا ذاهبة للنوم وانت ... » فقال بون :

« انتظري . ماذا قلت له ؟ »

« انتم ، سكان المدن الكبرى ، كجفرسون وممفيس ، لا تعرفون الكثير عن القانون . يجب ان تأتوا الى اماكن صغيرة كهذه . انا اعرف لأنني نشأت في قرية صغيرة . يوجد هنا مفوض شرطة . يمكن ان يمضي أسبوعاً في جفرسون او ممفيس دون ان تشعروا بوجوده . لكنه هنا ، بين الذين انتخبوه . لا يكترث لعمدة المقاطعة او حاكم الولاية ، حتى ولا لرئيس جمهورية الولايات المتحدة . انهم يتحدثون عن براعة ذلك الفرعون القديم في حكم المملكة ، وعن شخص آخر ذكره الكتاب المقدس اسمه قيصر . انما كان عليهما ان يزورا شرطياً من أركنساس او ميسيسيبي اوتنيسي ولو مرة . » فقالت إفربي :

« لكن كيف عرفته ، كيف عرفت بوجود شرطي هنا؟»

« يوجد مثله في كل مكان . ألم أقل انني نشأت في مكان صغير كهذا ؟ لم اكن بحاجة الى ان اعرفه . كل ما أردته هو ان اعرّف ذلك القط بأنني أعرف بوجود واحد مثله هنا . »

لكن بون ألح قائلا : « لكن مـاذا قلت له ؟ تكلمي . احب ان اذكر هذا » .

« قلت لك لا شيء . ان كنت لم اتعلم حتى الآن كيف اتدبر امر هؤلاء الملعونين الذين يحملون شارة الشرطـة بيد ونزواتهم باليد الأخرى ، لكنت ذهبت الى ملجأ الفقراء منذ سنوات .قلت له انني اذا رأيت وجهـه ثانية أرسلت مدير الفندق ليوقظ مفوض الشرطة ويخبره ان احد رجـال عمدة هارديك قد سجل اثنتين من مومسات ممفيس في فندق بارشم. أنا ذاهبة للنوم ، والافضل ان تناموا أنتم ايضاً . تعـالي يا كوري » . فذهبتا . وذهب بون ايضاً . ولعله تبع بطش الى الباب الأمامي ليتأكد من ذهاب العربة . وفجأة اندفعت إفربي نحوي وقالت : « ألم تحضر غير هذه الملابس ؟ انهـا لم تغيرهـا منذ غادرت البيت . هات لاغسلها لك » . فقلت : « ليس لدي ما ألبسه . » فقال : « لا بأس . يمكنك ان تجلس في الفراش . ستجدها جاهزة حالما تستيقظ . هاتها . »

وهكذا خلعت ملابسي وجواربي ، وجوارب السبـاق وكل شيء ، ثم دخلت ورميتها لها من شق الباب وتمنيت لها ليلة سعيـدة ، ودخلت في الفراش . وبعد قليل ، دخل بون وكنت نصف نائم ، وسألني ماذا فعلت بثيابي ، فاجبته ان افربي أخذتها لتغسلها . وكان قد خلع بنطلونه وحـذاءه وذهب ليطفىء المصباح . ولكنه توقف لدى سماع جوابي وسألني : « ماذا قلت ؟» وإذاك كنت قد صحوت . ولكن

الوقت كان قد فات . وبقيت متمدداً مغمض العينين دون حركة . وقال ثانية :

« أي اسم ذكرت ؟»

« الآنسة كوري .»

« قلت شيئاً آخر .» وشعرت بنظراته علي : « دعوتها إفربي » وشعرت بوقع نظراته علي : « هل هذا اسمها ؟» وشعرت بوقع نظراته عليّ : « إذن اخبرتك عن اسمها الحقيقي .» ومن خلال جفني المغمضين شعرت بالعتمة تسود الغرفة وأزيز السرير عندما استلقى عليه بثقله . وقال :

« تصبح على خير .» فأجبت : « وانت بخير !»

الفصل العاشر

ثم كان صباح اليوم التالي : يوم سباقي الفعلي الاول (فاذا ربحت في السباق ، أصلحت ما ارتكب بون وند –ونجوت؛ فلا أعود طفلاً ، بل أصبح نداً لهما – أصبـح حراً في العودة الى البيت ، ويستطيعان العودة هما أيضاً) . ذلك السبـــاق لذي جرنا اليه هربنا وآلاعيبنا وسرقة سيارة جـــدي . وقال لي بون :

« إذن ، كشفت لك اسمها الحقيقي ؟» لقد افلت الأمر مني . كنت نصف نائم عشية البارحة ، فلم أكن بكامل وعي. لذلك اجبته بالايجاب ، على الرغم من ان ذلك كان غـير حقيقي : لأنها لم تخبرني . بل لم تعرف انني عرفت وانـــني ادعوها افربي منذ ليل الاحد . فقلت لبون :

« يجب أن تمدني بأنك لن تذكر هذا الاسم بصوت مرتفع حتى تذكره هي اولاً .» فقال :

«أعدك . لم أكذب عليك بعد .اعني كذبة مسيئـــة . أعني ... حسناً ، أعدك . »

كانت ملابسي كلها : القميص والجوارب والثياب الداخلية وجوارب الركوب ،مغسولة ومكوية ومطوية بعنـــاية ، وموضوعة على كرسي قرب بابنا . فناولني اياها بون وقال :

« ما دامت ثيابك كلها نظيفة ، يجب أن تستحم ثانية .»

« يوم السبت جعلتني أغتسل . »

« كنـــا في الطريق مساء السبت ، ولم نبلغ ،مفيس حتى الأحد . »

« حسناً ، الأحد . »

« واليوم هو الثلاثاء . مرّ على حمّامك يومان . »

« بل يوم واحد . ليلتان ، ولكن يوم واحد فقط . »

« منذ ذلك الحين وأنت تسافر . صار عليك طبقتان من الوسخ . »

« اقتربت الساعة السابعة ، تأخرنا عن الفطور . »

« يمكنك ان تستحم أولاً . »

« يجب أن ألبس ثيابي لأتمكن من شكر إفربي على غسل ثيابي . »

« استحم أولا . »

« سأبلل ضماد يدي »

« ارفعها فوق عنقك » .

« لم لا تستحم انت إذن ؟ »

« دعني جانباً . نتكلم الآن عنك » .

وهكذا ذهبت الى الحمام واغتسلت ولبست ثيابي وذهبت الى غرفة الطعام . كان ند مصيباً . فعشية البارحة لم تكن هناك غير مائدة واحدة . وهذا الصباح كان هناك سبعة رجال كانوا جميعاً غرباء بالنسبة لنا نحن الذين لا نعيش في بارشم (ولم يكن أحد منهم ، اي ممن يدخنون السيجار ويرتدون الملابس الداخلية الحريرية . لأننا لم نفتتح موسم الرياضات الشتوية في منتصف أيار . كان بعضهم يرتدي بزة عمل ، وكانوا جميعاً إلا واحداً دون ربطات عنق) . وبالاضافة الى الخادم ، رأيت ظهر خادمة في زي الخدمة الخاص وهي تعبر الباب الى المطبخ وكان على مائدتنا رجلان يتحدثان الى بون والآنسة ريبا . لكن افربي لم تكن هنا . وللحظة ، مرت في خيالي صورة مرعبة لبطش وهو يترصدها ، ويقبض عليها بالقوة وهي تعبر الممر باتجاه غرفتنا حاملة الكرمي وعليها ثيابي المغسولة . ثم فكرتُ انها اذا كانت قد غسلت لي ثيابي الليلة الماضية ، فلا بد أنها ظلت حتى ساعة متأخرة من الليل لتغسل ثيابها أيضا ، وربما ثياب الآنسة ريبا ؛ وانها ما تزال نائمة . هكذا اتجهت الى المائدة عندما قال احد الرجلين :

« هذا هو الصبي الذي سيمتطيه ؟ يبدو انك اعددته لمباراة في الملاكمة » . فوافق بون وهو يدفع صحن لحم الخنزير نحوي . وقدمت لي الآنسة ريبا البيض وهي تقول :

« جرح يده وهو يأكل البارحة » . فأجاب الرجل :

« ياه ، ياه . على كل حال ، ان حمله هذه المرة اخف » .
فقال بون :
« طبعاً ، إلا إذا أكل السكاكين والشوك والملاعق في غفلة عنا » .
« ياه ، ياه ، رأيته يركض العام الماضي ، ويبدو لي أنه سيحتاج الى اكثر من خفة وزن الفارس . وهنا يأتي دور السر . هه ؟ »
« طبعاً . حتى لو لم يكن لدينا أي سر يجب ان نتصرّف وكأن في الأمر سراً . »
فقال الرجل وهو ينهض : « حظاً سعيداً ، على كل حال. »
وجاءت الخادمة تحمل لي كوب حليب وطبق بسكوت ساخن . وكانت مبني في ثياب خدمة جديدة . ويبدو أن الآنسة ريبا أعارتها للفندق أو أجرتها له . كان وجهها ما يزال كامداً لم يصفح ، لكنه كان هادئاً . لا بد أنها نامت واستراحت. ولكن لم تصفح بعد. وذهب الغريبان . ثم قالت ألآنسة ريبا دون ان توجه الكلام الى أحد : « كل ما نحتاج اليه هو حصان مضمون ومليون دولار نراهن بها . »
فقال بون :
« سمعت نـد عشية الأحد . أنت الذي صدقته ، أعني ، أنت التي قررت تصديقه . كان موقفي مختلفاً . بعد اختفاء تلك السيارة الملعونة لم يبق لنا سوى الحصان . كنت مضطراً لتصديقه . »

« حسناً ، حسناً » ثم قال لي بون : « كف أنت عن القلق . ذهبت الى المحطة تتفقده لترى ان كانت الكلاب قد ضبطته ثانية في الليل ،وإن كان ند قد اوصله الىالقطار». فسألت :

« هل وجده ند ؟»

« لا . ند في المطبخ الآن . يمكنك أن تسأله . الافضل أن تظل قلقاً . لقد خلصتك الآنسة ريبا من صاحب الشارة، ولكن الآخر – ما اسمه ؟ كالدويل ؟ جاء في قطار الصباح . » فسألت الانسة ريبا .

« عمّ تتكلم الان ؟ » فأجاب :

« لا شيء . ليس لدي ما أتكلم عنه . لقد انتهى دوري. لوشيوس هو الذي يهتم الان بالمنافسين من أصحاب الشارات والبزات الرسمية . »

لكنني كنت قد نهضت لانني عرفت أين أجدها . فسألتني الانسة ريبا :

« أهذا هو فطورك ؟ » فقال بون : « دعيه وشأنه . إنه عاشق » .

وعبرت الردهة باتجاه صالة السيدات . كانت جالسة هناك تبكي . كانت وحدها للمرة الثالثة . بل الرابعة . لم يطلب احد اليها المجيء ، بل جاءت من تلقاء نفسها ، لذلك يمكنها ان تجلس حيث تشاء . مع ذلك كانت تبكي للمرة الثانية منذ جاءت الى بارشم . اعني انها وإن كانت تختزن فيضاً غزيراً من

الدموع ، فان اورتيس لا يستحق ان تضيع عليه قطرة منها .
وقلت لها :

« انه بخير . سيجده ند . شكراً على غسلك ثيابي . اين السيد سام ؟ حسبت انه قادم في ذلك القطار » .

« اضطر للعودة الى ممفيس ليخلع البزة . لا يمكنه حضور سباق خيل وهو يرتديها . سيعود في قطار الظهر . لا اعرف اين منديلي » .

فوجدته لها . وقلت : «اذهبي واغسلي وجهك . عندما يجده ند سيأخذ منه السن .» فقالت « لا أبكي على السن . سأشتري لميني سناً غيرها . أبكي ... لانه ليس منه أمل. انه ... هل وعدت أمك أيضاً بان لا تسرق؟»

« لا حاجة لمثل هذا الوعد . الانسان لا يأخذ ما ليس له .»

« لكن ، هل كنت تعدها لو سألتك ذلك؟»

« ما كانت لتسألني . لا يأخذ الانسان ما ليس ملكه .»

« صحيح . لن أبقى في ممفيس . كلمت سام في المحطة هذا الصباح وقد أعجبته الفكرة . يقدر أن يجد لي عملاً في تشاتانوغا أو غيرها . لكنك ستبقى في جفرسون ، لذلك قد أرسل اليك بطاقة بريدية وأعطيك عنواني كي ...»

« سأكتب لك . قومي .. ما زالوا على مائدة الفطور.»

« هناك أشياء لا تعرفها عني . ولا يمكن ان تحزرها .»

« بلى ، أعرفها . اسمك افربي كورنليا . منذ يومين أو

ثلاثة وأنا أدعوك هكذا . أوتيس اخبرني . ولن أخبر أحداً. لكنني لا أفهم السبب ! »

« السبب انه اسم قروي قديم . هل يمكنك أن تتصور أن يأتي أحدالى بنسيون ريبا ويقول ارسلي لي افربي كورنليا؟ كانوا سيخجلون. كانوا سيموتون من الضحك . لذلك فكرت أن أبدأ باسم إيفون أو بيلي أو كن . لكن ريبا قالت لا بأس باسم كوري . »

« سخافة . »

« أتعني انه لا بأس به ؟ الفظه ! »فلفظته وهي تصغي الي . ثم ظلت مصغية وكأنها تنتظر رجع صداه. ثم قالت :

« هذا سيكون منذ الآن . »

« اذن تعالي وتناولي فطورك . ند ينتظرني ويجب أن اذهب . »

لكن بون وصل قبل ان نتحرك وقال لي : في الخارج أناس كثيرون . ربما كان يجب أن لا أخبر ذلك الرجل بأنك ستقود الحصان في السباق . ربما كان يجب ان لا أدعك تغادر جفرسون » .

وكان هناك باب صغير خلف الستار في مؤخرة الغرفة ، فأخرجني منه . وعبرنا ممراً آخر حتى وصلنا الى المطبخ . كانت الطاهية تقف قرب حوض الغسيل ثانية ، وند ينهي فطوره ، لكنه كان يتكلم قائلا : « عندما أعد امرأة ، لا

يكون وعدي كلاماً فارغاً ... » ثم توقف لدى رؤيتنا ونهض على الفور وقال لي :

« هل انت مستعد ؟ لقد حان وقت ذهابي أنا وانت الى الحلبة . يوجد هنا اناس كثيرون . إذا كانوا جميعاً يملكون المال كي يراهنوا ، واذا راهنوا على الحصان الخامس ، وكنا نعرف الحصان الرابح ونملك المال للمراهنة عليه ، فلن نأخذ السيارة وحدها الى جفرسون ، بل سنأخذ معها بوسم كلها . وربما هدأ ذلك غضب الرئيس بريست . فهو لم يملك بلدة من قبل ، وقد يروق له ذلك . » فقال بون :

– « انتظر . الا تهيء خطة ما ؟ فأجاب ند :

– « الوحيد الذي يحتاج الى خطة هو الحصان «لايتنينغ». والخطة الوحيدة التي يحتاج اليها هي ان يركض في المقدمة ولا يتوقف حتى يأمره شخص ما بذلك . لكنني أعرف ماذا تعني . سنجعله يركض في حلبة الكولونيل لنسكويب. سيبدأ الشوط الأول في الساعة الثانية . ان المكان يبعد اربعة اميال من هنا . الأفضل ان تبكروا في الذهاب . اذهبوا حالما ينزل السيد سام من القطار ، لأن عليكما ان تهتما بأمر المراهنات ، وان تحصلا على بعض النقود للمراهنة . »

وفي تلك اللحظة وصلت ميني تحمل صينية فيها اطباق ملوثة . كان وجهها كقناع مأساوي هادىء متعطش ، لا يتعزى . وقال لها ند :

« هيا ابتسمي ثانية لأرى أين سأضع السن حين استعيدها

لك الليلة !» فقالت الطاهية :

« لا تجيبي يا بنية . لا تقبضي هذه الاقوال المعسولة ، قد يستطيع صرفها في ميسيسيبي ، لكنها لا تشتري له شيئاً في تنسي . أو على الاقل في هذا المطبخ.» وقبل ان يخرج نـد قال له بون :

« انتظر .»

« انتظر أنت حتى يأتي السيد سام . وبالمناسبة ، بينما نكون أنا ولوشيوس مهتمين بالفوز في السباق ، قد تستطيعان العثور على ذلك المسخ وأخذ السن .»

كانت معه عربة العم بارشم هذه المرة كان على حق . لقد تغيرت حال البلدة عن اليوم السابق . ليس لأن عدد الناس زاد عن اليوم السابق ، بل لان حماساً جديداً ساد الجو وللمرة الأولى تحققت انني سأمتطي حصان سباق،حتى لقد شعرت ان طعم لعابي تغـير وصار لاذعاً . وقلت لند: « حسبتك قلت الليلة الماضية ان اوتيس يكون قد ذهب قبل ان تعود من المدينة » فقال : « كان سيذهب . لكن ما كان ليبتعد . ليس لديه مكان يذهب اليه . لقد نبحت الكلاب جهة المستودع مرتين اثناء الليل . فحتى الكلاب شعرت ،كما يشعر الناس،بنفور سريع منه . والارجح انه ذهب في طلب طعام الفطور ، حالما خرجت .»

« لكن لنفرض انه باع السن قبل ان نقبض عليه؟»

« لقد تدبرت هذا الامر . فهو لن يبيعه ... لن يجد من

يشتريه . اذا لم يظهر وقت الفطور ، فسيأخذ ليكورغوس الكلاب ومحاصره . وسيخبره انني لما عدت من بارشم البارحة قلت ان رجلاً في ممفيس عرض على ميني ثمانية وعشرين دولاراً نقداً ثمناً للسن ، وسيصدق ذلك . فلو انني اقول مئة دولار او خمسين لما صدّق . لكنه سيصدق ان مبلغاً كهذا عرض عليها . ربما لأنه يحسبه مجحفا . ولذلك فانه عندما سيحاول بيعها في حلبة السباق ، عصر اليوم ، لن يجد من يدفع له مثل هذا المبلغ . وهكذا فلا يبقى امامه غير الانتظار حتى يستطيع الوصول الى ممفيس . لذلك اصرف اهتمامك عن السن وركزه على السباق . او على الشوطين الاخيرين ، لاننا سنخسر الاول . فلا تهتم لذلك...»

« ماذا ؟ ولِمَ ؟ »

« ولِمَ لا ؟ كل ما نحتاج اليه هو الفوز في شوطين . »

« لكن لماذا نخسر الأول ؟ لماذا لا نفوز فيه ؟ »

« مشكلة هذا السباق انه معقد كثيراً ، يحضره اشخاص كثيرون ويتألف من اشواط كثيرة . لو كان شوطاً واحداً فقط يجري في مكان لا يوجد فيه غيرنا ، انا وانت ولايكليننغ والحصان الآخر وفارسه ، لكنا بألف خير . فقد اكتشفنا البارحة اننا نستطيع ان نجعل لايكلنينغ يركض مرة واحدة . لكن عليه الآن ان يركض ثلاث مرات » .

« لكنك كنت تجعل ذلك البغل يركض في كل مرة » .

« هذا الحصان ليس ذلك البغل . بل انه لا يملك من تلك

الحاسة قدر ما تملك بعض الخيول . هكذا باستطاعتك ان ترى مشكلتنا . انني استطيع ان اجعله يركض مرة ، وربما مرتين لا اكثر . نحن نأمل وحسب ، لذلك لا يمكننا ان نجازف بالشوط الذي اؤكد اننا سنربحه حتى يحين وقته . فاذا كنا سنربح شوطين ونخسر شوطاً ، علينا ، اذن ، ان نجعل شوط الخسارة في البداية ، بحيث يمكن ان يتعلم الحصان منه شيئاً يفيده للشوطين التاليين .

كفّ الآن عن التفكير والاهتمام ، لا اعني التفكير في السباق ، بل في الفوز . فكر فيما علمك اياه لاتينينغ البارحة عن كيفية إمتطائه . هذا كل ما عليك . وسأهتم بالباقي . هل احضرت جورب الركوب ؟ »

فقلت نعم . لكننا لم نكن ذاهبين الى بيت العم بارشم ، بل لم نكن نسير في ذلك الاتجاه . وبعد لحظة قال ند :

« حصلنا على اسطبل خاص بهذا السباق . انه يخص احد اعضاء كنيسة بوسم ، وهو قريب من الحلبة ، بحيث يمكننا ان ننتظر دون ان يعرف بوجودنا احد فيزعجنا . لقد اخذ ليكورغوس والعم بوسم الحصان الى هناك بعد الفطور مباشرة . » فقلت : « هل هناك حلبة رسمية ؟ »

كان لا بد من وجود حلبة رسمية ، ولكن فاتني ان افكر في ذلك ولو انني فكرت فيه ، لظننت ان الشخص الذي سيمتطي الحصان الآخر ، كان يحضره الى مرعي العم بارشم ، وهناك يجري السباق فاجاب ند :

«نعم ،حلبة رسمية . انها تشبه الحلبات الكبرى ، لكن مداها نصف ميل فقط ، وليس فيهـا امكنة لبيـع الوسكي والبيرة . انها في مرعى الكولونيل لنسكومب الذي يملك الحصان الآخر . لقد ذهبنا ، انا وليكورغوس ، عشيةالبارحة وتفقدناها . لكنني لم أر الحصان بعد . انما سيتاح لنا ان نراه اليوم وعلينا ان نعد خطة كي نجعل الحصان الآخر خلف لايتنيننغ ، في النصف الاخير من كل شوط. لذلك يجب ان اكلم الصبي الذي سيمتطيه .فهو زنجي ، وليكورغوس يعرفه. انني سأكلمه بطريقة هينة ، فلا يكتشف ما وراء كلامي حتى يحصل ما سيحصل . » فقلت : « لكن ، كيف ؟ فقال : « دعنا نصل اولاً . »

ومضينا . كان المكان ، بالنسبة لي ، غريباً . كنا نجتاز مزرعة الكولونيل لنسكومب . وعندما صرنا في وسطهـا انعطفنا وسلكنا طريقاًفرعيّة تمر في غيضة،ثم بلغنا الاسطبل. كان المكان هناك منعزلا ، آمناً ، ومريباً اذا شئناه كذلك . وكان لايتنيننغ واقفاً وقد امسك ليكورغوس بزمامـه ، بينما كان العم بارشم في حلته البيضاء والسوداء يجلس تحت شجرة. كانوا ينتظروننا . وفي اللحظة التالية أدركت الخطأ . اذ كانوا ينتظرونني انا فقط . ووجدتني اقف قرب لايتيننغ على بعـد ألف قدم من الحلبة عندما رأيت ان مصير الحصان ليس الوحيد الذي يرتبط بمصيري الآن ، بـل ان مصيري ومصير الحصان يعينان مصير بون وند . فعلينا كان يتوقف ذهابهما

الى البيت او عدمه – وهي حالة غامضة معقدة، كان يجب ان لا تلقى على عاتق طفل في الحادية عشرة . وقـــال نـد لكيلورغوس :

«هل أبلغته ما قلته لك؟» فأجاب ليكورغوس بالايجاب، ثم قال للعم بارشم :

« أخبرني ثانية عما حصل في سباق الشتاء المـاضي . قلت انه لم يحصل شيء . كيف كان ذلك ؟ » فأجـــاب العم بارشم :

« آه ، كان السباق يتألف من ثلاثة أشواط ، كما هي الحال الآن . ولكن الحصانين لم يركضا الا شوطين . اذ لم تكن هناك حاجة للثالث ففي الشوط الأول بدأ حصانك يركض بسرعة وفي الشوط الثـــاني بدأ متأخراً . فلعل ضربة السوط التي عاجلته بها في المرة الأولى كانت سريعة بينما أبطأت في المرة الثانية . على اية حال ، فقد قفز لدى الضربة الأولى الى المقدمة وتجاوز الحصان الآخر بمسافة كبيرة ، وظل كذلك طوال الدورة الأولى ، حتى بعد ان تلاشى اثر الضربة . وعندمـــا اقتربا من خط الوصول ، ورأى حصانك الحلبـــة فارغة أمامه ، وقال في نفسه انه غريب ، وان هذا ليس لائقاً ، تراجع مسافة كافية كي يجعل رأسه بموازاة ركبة الفارس الذي يمتطي حصان الكولونيل لنسكومب . وظل كذلك حتى أمر بالتوقف . وفي الشوط الثاني بدأ يركض ، وكأن الشوط الاول لم ينته . وظل رأسه يوازي ركبة فارس الحصان

الاخر . وعندما تلقى الضربة الأخيرة وقفز ، لم تفد لانه رأى أمامه الحلبة الفارغة ثانية . » فقال ليكورغوس :

« ربما لم تأت الضربة متأخرة حتى تخيف ماك ويلي . » فسأل ند :

« كم كانت سخيفة ؟ » فقال ليكورغوس :

« مقداراً كافياً . » حينئذ قال لنا ند أن نذهب الى الاسطبل الآخر ونلقي نظرة على ذلك الحصان . وأوصاني بأن أترك الكلام لليكورغوس ، وان لا أتلفت الى الوراء اثناء العودة . ولم اسأله عن السبب . ولو سألته لما اخبرني . وذهبنا . لم يكن الاسطبل الاخر بعيداً . واجتزنا الحلبة حتى بلغنا الاسطبل . ولم نر احداً في طريقنا . لا ادري ماذا كنت أتوقع : ربما كنت اتوقع رؤية حشد آخر من الرجال بملابس العمل ودون ربطات عنق ، يمضغون التبغ مثل الذين رأيتهم في غرفة الطعام وقت الفطور . ربما كان الوقت مبكراً ، وربما كان هذا ما جعل ند يرسلنا في هذا الوقت . وهناك رأينا زنجياً ينظف الاسطبل ، وغلاماً ملوناً يصلح ان يكون توأم لليكورغوس في الحجم واللون والعمر ، يجلس على كومة من العشب اليابس ويستند الى الجدار . وقال ليكورغوس :

« مرحباً يا بني . هل تبحث عن حصان ؟ » فأجابه قائلاً :

« أبحث عن اثنين . ظننت انني قد اجد الثاني هنا. »

« هل تعني ان السيد فان توش لم يأت بعد ؟»

« لن يأتي ابداً . هناك اشخاص آخرون سينزلون كوبرمين الى السباق . رجل ابيض اسمه هوجانبك . وسيقوده هـذا الصبي الابيض .» ثم قال لي : « هذا ماك ويلي.»

ونظر إلي ماك ويلي لحظـة ، ثم ذهب الى باب مكتب الاسطبل وفتحه وقال شيئاً ما وعاد ، فخرج في اثره رجـل ابيض . واخبرني ليكورغوس هامساً انه مروض الخيول وان اسمه والتر . وقال الرجل الابيض :

« صباح الخير ياليكورغوس . اين تخبئون ذلك الحصان ؟ ام انكم تعدون لنا خدعة؟ » فأجاب ليكورغوس :

« كلا ، يا سيدي . اظنه لم يغادر البلدة بعد . حسبنام ارسلوه الى هنا ، فجئنا لنراه .»

« هل مشيتما طوال الطريق من بوسم ؟»

« كلا ، يا سيدي . امتطينا بغلين .»

« أين ربطتهما ؟ لا ارى لهما اثراً . ام لعلكما صبغتموهما بصبغة إخفاء ، كما فعلتما بالحصان عندما اخرجتماه من عربة القطار ، صباح البارحة !»

« كلا ياسيدي . امتطيناهما حتى المرعى ثم أفلتناهما ، وقطعنا هذه المسافة سيراً على الاقدام . »

« حسناً ، ما دمتما قد جئتما لرؤية حصان ، فلن نخيبكما. أخرجه يا ماك ويلي كي يلقيا عليه نظرة . » فقـال لنـا ماك ويلي :

« انظر الى وجهه على سبيـــل التغيير . الذين قادوا كوبرمين لم يروا غير مؤخرة ايكرون طوال الشتاء ، ولم ير أحدهم وجهه . هكذا يبدأ هذا الصبي بمعرفة هيئتـــه من الامام ، ما اسمك يا بني ؟»

فأجبته فسألني : « ألست من هنــــا ؟ » فقلت : « كلا سيدي . من جفرسون في ميسيسيبي » . وأضـــاف ليكورغوس قائلاً : « انه مسافر مع السيد هوجانبك الذي سينزل كوبرمين في السباق . » فسأل السيد والتر : « وهـل اشتراه السيد هوجانبك ؟»

واخرج ماك ويلي الحصان . ورفع الغطاء عنه هو والسيد والتر . كان اسود اللون اكبر من لاتيننغ بقليل ، لكنه كان شديد العصبية ، فكان يحرك اذنيه الى الوراء كلما تكلم احد بالقرب منه ، ويرفع حافر قائمته الخلفية كأنما يريد ان يرفس بها ، فكان السيد والتر وماك ويلي يكلمانه بهمس ويراقبانـه باستمرار . وقال السيد والتر لماك ويلي :

« حسناً . اسقه واعده . » ثم سار وتبعناه . فقال لي :

« لا تدعه يثبط عزيمتك . مهما تكن الحـــال فليس سوى سباق خيل . » فقال ليكورغوس .

« صحيح ياسيدي . هذا ما يقولونه . شكراً لسماحك لنا برؤيته . »

وشكرته انا ايضاً . فقال السيد والتر : « الى اللقاء . لا تدعا البغال تنتظر . أراكما وقت السباق بعد ظهر اليوم . »

ومشينا مارين قرب الاسطبلات ، ثم عبرنا الحلبة . وقال ليكورغوس :

«اتذكر ما قاله لنا السيد ماك كاسلن ؟»

« ماك كاسلن ؟ أوه ، نعم .» وهذه المرة ايضاً لم أسأل عما قال . فقد ظننت انني عرفت . أو لعلي لم أرد أن أصدق انني عرفت . اذ لم أرد ان أصدق أنني تقدمت بتلك السرعة وصرت أفهم من التلميح . ولو انني سألته عما قال ند لكان في ذلك اعترافاً بانني عرفت . قلت : « ذلك الحصان سيء . »

« انه مذعور . هذا ما قاله السيد ماك كاسلن ليلة البارحة .»

« ليلة البارحة ؟ حسبتكما أتيتما لرؤية الحلبة .»

« وماذا نبغي من رؤية الحلبة ؟ لن تنتقل من مكانها . انه جاء لرؤية الحصان .»

« في الظلام ؟ أليس لديهم حارس ؟ ألم يكن باب الاسطبل مقفلاً ، أو اي شيء من هذا القبيل ؟ »

« عندما يقرر السيد ماك كاسلن أن يفعل شيئاً ، فإنه يفعله . ألم تكتشف هذا ؟»

ثم مضينا دون ان نلتفت الى الوراء . وعندما وصلنا كان ند يجلس مقرفصاً قرب العم بارنثم ، بينما جلس رجل آخر – زنجي – قريباً منهما . لقد عرفته ، اذ كنت قد رأيته في مكان ما . وقال ند : « هذا بوبو » فتأكدت . كان

من نسب ماك كاسلن ايضاً واسمه بوبو بوشام ابن عم لوكاس كونيتوس كارودرز ماك كاسلن بوشام ، الذي قالت جدتي انه يشبهه في كل شيء ما عدا اللون. كان بوبو يتيماً آخر ،فقد امه فتمهدته العمة نيني الى ان صار نداء العـالم البعيد أقوى من مقاومته ، فذهب الى ممفيس منذ ثلاث سنوات. وقـال ند ثانية :

« بوبو يعمل عند الرجل الذي كان يملك لاتيننغ . وقد جاء ليراه وهو يركض » . فعرفت الشيء الذي كان يزعجني: لعل بوبو يعرف مكان السيارة . والحقيقة انها قد تكون عنده لكن ذلك كان خطأ ، اذ لو كان الامر كذلك ، لاستطاع بون وند أخذها منه . ثم انني أدركت فجأة انني لا اريـد ذلك ، إذ كنـا نستطيع استرجاع السيارة بمجرد ان نطلبها من بوبو ، فماذا نفعل هنـا اذن ؟ وفيم كل هذه المتاعب وهذا القلق ؟ ولماذا نخبىء لاتيننغ ونغير شكله واسمـه وننقله في منتصف الليل عبر شوارع ممفيس الى المحطة، ونلجأ الى الوساطة والحيلة لننقله في عربة قطار الى بارشم ، هذا فضلاً عما تلا ذلك ، من مقاومة بطش ، وسرقـة سن ميني ، وغزو بيت العم بارشم ، وعدم النوم والحنين الى البيت (وبالنسبة لي) عدم تغيير ملابسي الداخلية ، وكل ذلك الصراع والاحتيال للاشتراك في السباق بحصان ليس ملكنا ، كي نستعيد سيارة لم يكن لنا شأن بها في الاصل . فيم كل هذا إن كان كل مـا علينـا ان نفعله لاسترجاع السيارة هو ارسال الصبي الزنجي

لاحضارها ؟ فيم كل هذا او لم يكن مدار هـذا كله الفوز في السباق ؟ فيم كل هـذا لو لم نكن أنا ولاتيننغ الحصن الاخير الذي يحمي بون وند من غضب جدي، إن لم يكن من شرطته؟ لو كان ند وبون يستطيعان العودة الى جفرسون (ملجئهما الأخير والوحيد) وكأن شيئاً لم يكن دون الفوز في السباق او حصوله على الأقل ، لكنـا جميعاً مشتركين بلعبة العسكر واللصوص التي يلعبها الأولاد . لكن يحتمل ان يكون بوبو عارفاً بمكان السيارة ، لذلك سألت ند فأجابني :

« أظنني قلت لك ان تكف عن الاهتمام بالسيارة . ألم اعدك بأن أهتم بشأنها عندما يحين الوقت ؛ لديك أشيـاء كثيرة تشغل بها فكرك : لديك سباق خيل ، ألا يكفي هذا ليشغل فكرك ؟ »

وكان بوبو قد ذهب ، فقال ند لليكورغوس : « هـات الزوادة . هذا وقت مناسب للأكل ما دام المكان ما يزال هادئاً . » فأحضر ليكورغوس الطعـام الذي كان مغطى بملاءة نظيفة ووضعه أمام الرجلين . وسألني العم بارشم إن كنت قد تناولت فطوري ، فأجبته كلا ، حينئذ نصحني بألا أتناول غير كسرة خبز وجرعة ماء . وأضاف ند : « صحيح ، الأفضل أن تمتطي الجواد ومعدتك خاوية . »

وهكذا أعطاني قطعة من خبز الذرة . وجلسنا جميعاً حول العم بارشم والطعام بيننا، ثم سمعنا وقع خطوة او خطوتين خلفنا ، وتلا ذلك صوت ماك ويلي يقول :

« مرحباً بالعم بارشم . صباح الخير يا محترم » . وكان يعني ند . وتقدم وهو ما يزال ينظر الى لايتيننغ ثم قال : « تماماً . هذا هو كوبرمين بعينه . هذان الصبيان أخافا السيد والتر هذا الصباح فحسب أنكم ستنزلون في السباق حصاناً آخر . هل انت الذي تتولى ذلك يا محترم ؟ » فقال العم بارشم : « ادعه السيد ماك كاسلن . »

« سمعاً وطاعة ، هل أنت الذي تسابق به ، يامستر ماك كاسلن ؟» فأجاب ند :

« لا ، رجل ابيض اسمه السيد هوجانبك . ونحن الآن بانتظاره . »

« من المؤسف ان ليس لديكم غير كوبرمين كي تسابقوا به ، إذ لكان إيكرون يقوم بسباق حقيقي . » وقال ند :

« قلت مثل هذا للسيد هوجانبك . » ثم بلع اللقمة وشرب على مهل ، ومال ويلي يراقبه . وقال ند ثانية :

« تفضل شاركنا الطعام . »

« شكراً . أكلت . ربما لهذا تأخر السيد هوجانبك . ربما كان ينتظر كي يحضر حصاناً آخر . »

« لم يبق وقت لذلك. سيضطر للاكتفاء بهذا الآن .المشكلة هي ان الوحيد الذي يقدر ان يسبق هذا الحصان هو الذي يدرك طبيعته الخاصة ، فلا يدعه يركض في المؤخرة . لأن هذا الحصان لا يحب ان يركض في الطليعة ، فهو يظل متخلفاً حتى يلوح له خط الوصول ويرى هدفاً ما يركض نحوه ،

حينئذ ينطلق بأقصى سرعته . انا شخصياً لم اره يركض من قبل ، لكنني لم اراهن على انه كلما أبطأ الحصان الذي يتقدمه، ركز هو انتباهه على ألا يحتل الطليعة حيث لا زميل له . وهو يظل كذلك الى ان يرى خط الوصول ويدرك انه في سباق . وكل ما يحتاج اليه راكبه هو ان يدعه هادىء البال لاهيا ، حتى اذا ما لاح خط الوصول ، جاء ذلك بعد فوات الأوان. المؤسف ان الذي يعرف هذا هو الفريق الآخر . » فسأل ماك ويلي :

« من ؟ »

« الشخص الذي سيمتطي الحصان الآخر اليوم . »

« انه أنا . لا تقل ان العم بارشم وليكورغوس لم يخبراك بهذا . »

« لو ان الأمر كذلك ، لما كنت تكلمني . اجلس وكل . أتانا العم بوسم بزاد وافر . »

« أشكرك . حسناً ، سيسر السيد والتر حين يعرف ان الحصان هو كوبرمين دون غيره . كان يخشى ان يقحم في سباق مع حصان جديد . سأراك في السباق . » قال هذا وانصرف .

وانتظرت دقيقة أخرى وقلت : « لكن لماذا ؟» فأجاب ند : « لا اعرف . قد لا نحتاج الى ذلك : قلت هذا على سبيل الاحتياط . اتذكر ما قلته لك هذا الصباح عن هذا السباق ؟ ثم ان هذا البلد ليس بلدنا ولا الحلبة حلبتنا ، حتى

ولا الحصان حصاننا ، إلا على سبيل الاعارة . لذلك نحتاج الى احتياطات كثيرة . لكن لماذا لا يأخذونه الى ممفيس أو لويزفيل او شيكاغو للاشتراك في سباقات حقيقية بدلاً من بقائه هنا في مرعى خاص حيث لا يسابق الا الجياد العابرة التي تتخلف عنه ، مثل حصاننا ؟ لقد عرفت السبب عندما رأيته البارحة . فهو حصان ضعيف يهبط من تحتك قبل أن تدرك ذلك إن أنت قدته بسرعة عظيمة ، أكثر من السرعة التي اعتاد عليها . لذلك كان الصبي يحسب ان كل ما عليه هو ان يعتلي ظهره ويوجهه في الاتجاه المناسب . وقد فعل ذلك ففاز مرتين ، وكان سيفعل مثل ذلك هذه المرة ، لولا أننا ادخلنا في رأسه شيئاً آخر فصار فيه شيئان متناقضان لا ينسجم احدهما مع الآخر. لذلك سننتظر ونرى ، وبينما نحن ننتظر ، الأفضل لك ان تذهب وتنام قليلاً خلف هذه الشجيرات . لقد انتشر الخبر الآن وسيبدأ الناس بالمجيء . وهناك لن يزعجك أحد .»

ففعلت كما قال : ولم اكن طوال الوقت نائماً لأن الأصوات كانت تصلني ، كما انني لم ابق طوال الوقت مستيقظاً ، لأنني عندما فتحت عيني كان ليكورغوس يقف فوق رأسي . لقد جاء ليخبرني ان الوقت قد حان . فنهضت وذهبت معه . ولم يكن مع لايتيننغ غير ند والعم بارشم . كنت اتوقع ان ارى بون وسام وربما افربي والآنسة ريبا . (لكنني لم اتوقع رؤية بطش . بل لم أفكر فيه ، اذ لعل الآنسة ريبا تخلصت منه

نهائيــاً ، فذهب الى هاردويك . كنت قد نسيته) .
فسألت :
« ألم يأتوا بعد ؟ » فأجاب ند :
« لم يخبرهم احد الى اين يجب ان يأتوا، ولسنا الآن بحاجة الى بون هوجانبك ، هيا . »
« ربما كانوا يبحثون عن أوتيس .»
« ربما. هذا مكان مناسب لاصطياده، سواء وجدوه او لم يجدوه . »
ومشينا. كان ند والعم بارشم يتقدمان لاتيننغ ، وكان ليكورغوس سيأتي بالعربة والبغال لو انه وجد فسحة لهــا . ذلك ان المرعى المجاور للحلبة كان قد امتلأ بالعربات والدواب واستطعت ان ارى الناس سوداً وبيضاً ، دون ربطات عنق، يرتدون بزات العمل ويمضغون التبـغ وقــد تجمهروا على طول الحاجز وحول حظيرة الخيول . كان سباقاً ديمقراطياً . امــا الكولونيل لنسكومب ، البــارون الارستقراطي ، فلم يكن موجوداً . وعلى ما اعلم لم يكن احد يعرف اين هو ، بل لم يهتم احد بذلك . كان يملك احد الحصانين (ولم اكن بعد قد عرفت مالك الحصان الذي امتطيه) كما كان يملك الارض التي سنتسابق عليها والحاجز الابيض الجميل الذي يسورها والحقل الذي وقفت فيه العربات والدواب ، والسياج والحظيرة . ومع ذلك لم يكن احد يعرف اين هو ، او يهتم بمعرفة ذلك .
وذهبنا الى الحظيرة . فقد كانت لنــا نحن ايضاً واحدة .

كان لدينا كل ما يلزم السباق ما عدا بسطة توضع عليها المشروبات ، من بيرة ووسكي ...

كانت الهيئة الحاكمة تتألف من عامل التلغراف الليلي في المحطة ، والسيد ماك ديارميد الذي يدير غرفة الطعام في المحطة ايضاً والذي اشيعت عنه خرافة تقول انه يقدر ان يقطع الجامبون الى شرائح رقيقة جداً ، حتى انه استطاع ان يأخذ عائلته بكاملها في رحلة الى شيكاغو من الارباح التي جناها من كتلة جامبون واحدة . وكان وكيلنا احد مدربي الكلاب.

ثم رأيت بون وسام يقفان بانتظارنا . وقال بون :

« لم اقدر ان اجده . ألم تره أنت ؟ » فأجاب ند : « من؟ » ثم اشار علي بالنزول عن الحصان. كان الحصان الآخر هناك ايضاً ، وما زال عصبياً أو خائفاً كما قال ليكورغوس وند . وقال بون : « وذلك الصبي الملعون ! قلت هذا الصباح سيكون هنا . » ثم التفت الي قائلاً : « ماذا علمك هذا الحصان البارحة ؟ قدته دورتين حول الحلبة . فماذا علمك ؟ فكر . » ففكرت . ولم أستنتج شيئاً . فقلت : « لا شيء . كل ما فعلته هو ان احول دون ذهابه إليك مباشرة عندما رآك . »

« هذا بالضبط ما اريدك ان تفعله في الشوط الاول . ابقه في وسط الحلبة فقط ، ودعه يركض دون ان تزعجه . لا تزعجه ابداً . على اية حال سنخسر الشوط الاول وبعد... »

فقاطعه بون :

« نخسره ؟ ماذا تقول ؟ » فقال ند :

« اتريد ان تتولى هذا السباق أم ستترك امره لي ؟»

« حسناً ، حسناً . قلت ان ذلك الصبي اللعين ... »

فقاطعه ند قائلا : « اذن دعني اغير السؤال : اتريدني ان اهتم بهذا السباق ام اتركه للبحث عن تلك السن ؟ » فقال سام : « ها قد اتوا . اعطني قدمك » . ورماني على ظهر الحصان .

وهكذا لم يعد امامنا وقت كي يعطيني ند تعليمات اخرى. لكننا لم نكن بحاجة الى ذلك . اذ لم يكن فوزنا في الشوط الاول متوقفاً علي وعلى لايتيننغ ، بل على ند وماك ويلي. والحقيقة انني لم اكن في البداية اعرف ماذا يجري ، وذلك بسبب صغري وقلة خبرتي ، فضلا عن الحالة التي كان الحصان الآخر يصير اليها تدريجياً . كان المتفق عليه ان يقودنا الخدم الى حبل الانطلاق ، حيث يفلتون الجياد مع كلمة انطلق . وهكذا فعلنا . كان لايتيننغ يتصرف كعادته عندما يكون ند قريباً منه كي يشمشم يده أو معطفه ، وكان ايكرون يتصرف كعادته عندما يكون احد قرب رأسه ، فكان ينطنط ويدفع الخادم هنا وهناك ، لكنه كان يسير باتجاه الحبل . وكانت البداية متوقعة في أية لحظة ، وقد رأيت منظم السباق يتنفس ملء صدره كي يصرخ : انطلق ! ولم اعرف آنذاك ماذا حصل . اذ قال لي ند فجأة « تماسك » ، وشعرت برأسي وذراعيّ وكتفيّ وكل ما في ينخطف . لا

اعرف ما الذي استعمله ، مخرز او مثقب ثلج او مسمار كان في يده . لم اشعر بغير قفزة الحصان . وسمعت صوتاً يصرخ لكنه لم يقل انطلق بل كان يقول : قف ! قف ! دي ،دي. فتوقفنا،انا ولايتيننغ ، واستطعنا ان نرى سائس ايكرون على ركبتيه حيث قذفه ، بينا كان ايكرون ينطلق بأقصى سرعته ويجتاز مرحلة منالدورة الاولى . وكان ماك ويلي يروح ويجيء على ظهره ويلوي عنقه جانباً . لكن لجامه كان قد افلت ، فركض منظم السباق واربعة من المتفرجين ليوقفوه . على ان ماك ويلي كان قد اوقفه . كانت المسألة مسألة اختيار : هل يكمل الدورة ويأتي الى خط الانطلاق ام يعود من حيث اتى، لانه كان في منتصف المسافة ؟ واختار ماك ويلي (او لعله ايكرون) طريق العودة. وكان ند يتمتم عند ركبتي قائلا : « على اية حال ، لقد تعب اكثر منا اذركض نصفميل.هذه المرة عليك ان تبدأ بنفسك لأن المحكمين سوف ... » وقبل ان يتم كلامه كانوا قد وصلوا . فأبعدوه ، لكنهم لم يجدوا معه شيئاً : لقد افلت رأس لايتيننغ قبل ان تعلو الصيحة آمرة بالانطلاق . لذلك تطوع هذه المرة شخص من بين الجمهور ليمسك رأسه . وكان ماك ويلي يتفرس في وايكرون ينطنط تحته ، بينا كان السائس يحاول ارجاعه الى المكان المحدد . وفي هذه اللحظة آل الشرف الى ماك ويلي . أفهمت ما اعني ؟ حتى وان لم تكن اللافضيلة تعرف شيئاً عن سباق الخيل في الريف، فلم تكن بحاجة الى ذلك . كل ما

كان يلزمها هو ان تدعمني بشخص مثل سام لامشي تلــك الخطوة البعيدة في الشر بطريقة لاشعورية كصعود النسغ في الاشجار .

كنا واقفين ننظر الاشارة عندما رأيت حــذاء سائس ايكرون ، فيما كان هو نفسه ينطلق في الحلبة راكضاً . وكنا انا ولاتيننغ ، ساكنين لا نقوم بحركة . لكن مــاك ويلي كان ممسكاً بزمام ليكرون فأوقفه قبل ان يبلغ المنعطف .فأسرعت اليه فرقة الطوارىء وامسكت به واعادته . وهكذا كانت النتائج الى جانبنا حتى الآن. لكن كسبنا الأم كان ماك ويلي لأنه لم يتملكه الغضب وحسب بل الذعر ايضاً ،ثم راح يحدق فيّ ،وفي عينيه شيء اكثر من الغضب .وكان سائسان يمسكان إيكرون ، فابتعدنا قليلاً،انا ولاتيننغ ، لنفسح له الطريق، ثم علت كلمة انطلق .

وانطلقنا . كان لاتيننغ قوياً ومندفعاً ،لكن دون هياج . وكان يتحلى بكل ما نريده من مميزات حصان السباق .غير ان ذهنه لم يكن قد ادرك بعد انه في سباق . كان ماك ويلي يشد إيكرون جانباً فلحقنا به وتجاوزناه عند المنعطف الاول. وأخذ لاتيننغ يتباطأ شيئاً فشيئاً حين واجــه الحلبة الخالية أمامه ، إلى أن لحق بنا إيكرون وتجاوزنا بالرغم من كل مــا فعله ماك ويلي . آنذاك أسرع لاتيننغ ثانية ، وقد صار لديه رفيق . وحين درنا حول المنعطف الثــاني كان عنق ليكرون يتقدمنا . وبدأ جمهورنا يهتف وكأنما حصل على لقاء مــا دفعه

من مال . ولاح لنا خط الوصول ، فضرب ماك ويلي حصانه ضربة عنيفة . وكان عليّ ان اضرب لاتيننغ ايضاً . ولو كان امامنا بعدُ عشرون قدماً لسبقنا . لكن لم تكن امامنا تلك المسافة . ونظر الي ماك ويلي من فوق كتفه للمرة الاخيرة . كانت نظرته نظرة هياج وذعر ، لكنهـــا كانت ايضا نظرة ظفر ، بينما كنت اوقف لاتيننغ . آنذاك رأيت : لم تكن معركة ، كانت شغباً وغليان رؤوس واكتـــاف وظهور الجمهور حول منصة المحكمين ، ومن وسطهـا نهض بون فجأة مثل شجرة سرو ترتفع وسط الغاب . كان قميصه ممزقاً وبيده هراوة يتعلق بها رجلان او ثلاثة . وكنت استطيع ان أراه يجأر . ثم اختفى . ورأيت ند يركض باتجـاهي . ثم خرج بطش من الجمهور ومعه شخص آخر ، وسارا باتجاهنا ، فقلت لند :ماذا ؟ فقال وهو يتناول اللجام باحدى يديه بينما راحت يده الاخرى تبحث في جيبه : « لا تهتم . إنه بطش . خــذ، « خـــذ » لن يزعجك » . كان ذلك كيس تبغ من القماش فيه قطعة جامدة بحجم الجوزة . وقال :

« اخبئها . واحتفظ بها . انما لا تنس من اين جاءت : من ند وليام ماك كاسلن جفرسون ميسيسيبي . فقلت نعـــم ، وخبأتها في جيبي الخلفي . ثم حاولت ان استوضح لكنه لم يدعني أنهي كلامي ، فقال لي : ابحث عن العم بوسم باسرع ما يمكنك وابق معه . لا تهتم بشأني انا وبون والبقية . إذا أخذوه أخذوا البقية . اذهب مباشرَة الى العم بوسم وابق

معه . انه يعرف ما يجب ان يفعل . فقلت نعم .

وكان بطش والرجل الأخر قـد وصلا الى بوابة الحلبة . كان قسم من قميص بطش قد ذهب ايضاً . وكانا ينظران إلينا. وسأل الرجل : أهذا هو ؟ فأجاب بطش : نعم . وهنا قال الرجل لند : هات الحصان يا ولد . انني أريده .

فأشار علي ند بأن أبقى هادئاً . ثم قاد الحصان الى حيث كانا ينتظران . وقال لي الرجل بلطف : انزل يا ابني . لا أريد منك شيئـاً . فنزلت . ثم قال لند : أعطني اللجام . فامتثل ند . حينئذ قال له الرجل :

« ستذهب معي . انت موقوف ! »

الفصل الحادي عشر

كان الجمهور يوشك أن يحيط بنا . كنا نقف هناك قبالة بون والرجل الآخر الذي كان يمسك بلايتيننغ . وقال ند: ما الحكاية يا اخواني البيض ؟ فأجاب الرجل : « الى السجن. هكذا نسميه هنا . لا أعرف ماذا تسمونه في بلدكم ».

« نعم سيدي . نحن أيضاً عندنا مثله . لكنهم عندنا يذكرون السبب حتى للزنوج .» فقال بطش :

« اوه ، انه محام ! لعله يريد ان يرى ورقة . أره ورقة. لا بأس سأريه أنا .» واخرج شيئاً من جيبه الخلفي . رسالة في مغلف مختوم . فتناولها ند . وظل في مكانه هادئاً يمسكها بيده . فقال بطش :

« ما قولك في هذا ؟ رجل لا يحسن القراءة ، مع ذلك يطلب أن يرى ورقة ، شمها اذن . لعل رائحتها صحيحة.» فأجاب ند :

« نعم سيدي ، صحيحة ». وكان الجمهور قد وصـــل . فاستعاد بطش المغلف من ند ووضعه في جيبـــه ثم خاطب الناس :

« لا شيء، يا شباب . انها مجرد مشكلة قانونية تتعلق بمن يملك هذا الحصان . لم يُلغَ السباق . سيبقى للشوط الاول . الشوطان الباقيان يؤجلان الى الغد . أتقدر ان تسمعني انت هناك ؟ »

فأجاب صوت من بين الجمهور :

« لا نقدر ان كانت المراهنات قد الغيت . » ثم علت قهقهة وتلتها اثنتان . فأجاب بطش :

«لا افهم .كل من رأى هذا الحصان يركض في العام الماضي وعاد يراهن عليه ، فقد ألغى نقوده لحظة راهن بها عليه . » وانتظر القهقهة لكنها لم ترتفع . ثم عاد الصوت ذاته يقول (او ربما صوت آخر) :

« هل يرى والتر كلاب مثل هذا ؟ لو طال الشوط عشر أقدام بعد لسبق هذا الحصان اليوم . »

« حسناً ، حسناً، نسوّي هذا الامر غداً . لم يتغير شيء. الشوطان التاليان تأجلا الى الغد . والدولارات الخمسون عن كل شوط باقية ولم يربح الكولونيل غير دفعة واحدة منهـا . هيا الآن ، يجب ان نوصل الحصان وهؤلاء الشهود الى المدينة حيث نستطيع ان نوضح كل شيء ، ليصبح بالامكان متـابعة السباق غداً . ليناد احدكم باحضار عربتي » .

ثم رأيت رأس بون يرتفع بين الجمع . كان وجهه هادئاً ، ما تزال تعلوه خطوط دامية وقد ربط طرفي قميصه الممزق حول عنقه . ثم رأيت سام ايضاً ، وكأنما لم يبد عليه اثر . كان هو الذي تقدم اولا . فقال له بطش :

« سام ، منذ ثلاثين دقيقة ونحن نحاول العثور عليك ، لكنك لم تدعنا نراك » .

« نعم . اسألك ثانية ، ولتكن الاخيرة : هل نحن موقوفون ? » فسأل بطش : من الموقوف ?

« انا وهوجانبك وهذا الزنجي . » فالتفت بطش الى الرجل الآخر ، فعرفت بسرعة انه كان هو السلطة في بارشم؛ وهو الذي حدثتنا عنه الآنسة ريبا عشية البارحة . كان مفوض الشرطة ، ولم يكن بطش بالقياس له غير ضيف آخر مثلنا . وقال بطش :

« هو ذا محام آخر . ربما كان هو ايضاً يريد ورقة . » فقال المفوض لسام : « كلا . يمكنك الذهاب متى شئت . » فقال سام : « اذن انا عائد الى ممفيس لاجد سلطة ما ، اعني نوعاً من السلطة . » وكان قد رآني فقال لي : « تعال معي. » فاجبته : كلا ، سأبقى هنا» . فنظر الي المفوض وقال: يمكنك ان تذهب معه اذا شئت . فقلت : كلا سيدي سأبقى هنا . فسأل المفوض : لمن هذا الصبي ? فأجاب ند : انه معي . فسأل المفوض وكانه لم يسمع ما قال ند : من أتى به الى هنا ? فأجاب بون : أنا ، انني اعمل عند ابيه . وقال ند :

انا اعمل عند جده ، ونحن مكلفان بالاهتمام به . وقال سام : انتظروني ، سأحاول ان اعود الليلة . حينئذ نبحث كل شيء. فقال المفوض : وعندما تعود تذكر انك لست في ممفيس او ناشفيل او حتى في هاردويك . عندمــــا تنزل الى المحطة من القطار تكون في النقطة رقم اربعة . فقال بطش معلقاً :

« هكذا يجب ان تفهمهم . نحن في ولاية تنيسي الحرة ».

« كنت أعنيك انت ايضاً . ربما كنت اول من يجب ان يذكر هذا . »

وكانت العربة قد وصلت الى حيث أمسكوا ببون . وأشار المفوض الى ند ان يصمد . وفجأة بـدأ بون يقاوم . فقال له ند شيئاً ما . حينئذ التفت المفوض نحوي وقال :

« ذلك الزنجي يقول انك ستذهب مع العجوز بوسم هود».

« نعم سيدي » .

« لا استحسن هذا : صبي ابيض بين اسرة من الزنوج . تعال معي الى البيت » .

« كلا يا سيدي » .

« بلى . اسرع . لدي اعمال كثيرة » . وهنا قال ند:

« لكل شيء حد ! » فتوقف المفوض دون حراك . ثم قال : « أصبت . ولكن هل هذا هو المكان الذي تريــــد الذهاب اليه ؟ اعني عند العجوز بوسم ؟ » فقال : نعم سيدي. وسأل بطش ، وقد اخذ اعنة الجياد من الرجل الذي احضر العربة : ماذا ستفعل بالزنجي ؟ هل ستجعله يقود حصانك ؟

فقـال المفوض لند : ستقود حصاني . اصعد ، انت الخبير بالخيول هنا .

فأخذ ند الأعنة من بطش وصعد وضغط على العجلة ليصعد المفوض الى جانبه . وجلس سام وبون في المقعد الخلفي . وكان بون ما يزال ينظر اليّ . وبدا وجهه مرضوضاً مهشماً . وقال لي : تعـال مع سام . فأجبت : انني بخير . فقال المفوض : أعرف بوسم هود . سأذهب لأخذه ان قلقت عليه . سُقْ يا ابني .

وتحركوا . وبقيت وحدي وشعرت بالوحدة . لم أشعر بغير الوحدة . كنت جزيرة وسط تلك الحلقة من القبعـات والقمصان التي بلا ربطات عنق ، وبذات العمل والوجوه التي بلا اسماء التي انصرفت عني دون كلمة نعم او لا ، او اذهب او ابق . ورأيتني انا المتروك ، أترك ثانية . فعندما تكون في الحادثة عشرة فقط لا تكون كبيراً حتى تستحق هـذا القدر من الهجر . هذا يجعلك تطمس ، تمحى ، تنحـلّ ، تتبخر تحت وطأته واخيراً قال شخص من الآخرين :

« هـل تبحث عن بوسم هود ؟ أظنه هناك في عربته ينتظرك . »

كان هناك فعلا بانتظاري وكانت العربات كلها قد انصرفت ولم يبق غير عربته فمشيت اليها وتوقفت . لا أعرف لماذا . توقفت ، وهذا كل ما في الامر . ربما لم يكن هناك مكان آخر كي اذهب اليه . اعني لم اجـد فسحة لاخطو الى

الامام . فتوقفت الى ان حرك العربة شخص ما . وقال لي العم بارشم :

« اصعد ، سنذهب الى البيت وننتظر ليكورغوس» .

فقلت :

«ليكورغوس؟» وكأنني اسمع الاسم المرة الاولى. فأوضح العم بارشم قائلا :

« ذهب الى البلدة ليستفهم عن القضية ويعود ليخبرنا . وسيسأل عن موعد تحرك القطار الى جفرسون » .

« جفرسون ؟ » .

« كي تذهب الى البيت . اذا أردت » . قال هذا دون ان ينظر اليّ .

« لا اقدر ان اذهب الآن . يجب ان انتظر بون » .

« قلت اذا أردت . اصعد » فصعدت . ومضينا عبر المرعى ، ثم خرجنا الى الطريق . فقال لي : انزل واغلق البوابة . آن ان يتذكر هذا الامر شخص ما .

فنزلت واغلقتها وعدت الى العربة ، فقال لي : هل قدت يوماً بغلا يجر عربة ؟ فقلت : كلا يا سيدي . فناولني القياد . فقلت انني لا اعرف كيف اقودها ، فاجاب :

« اذن يمكنك ان تتعلم الآن . البغل ليس كالحصان . عندما تلسرب الى رأس الحصان فكرة خاطئة ، عالجه بضربة سوط او ربما بمجرد الزجر . انما البغل بخلاف ذلك . فهو يستطيع ان يحتفظ في رأسه بفكرتين في وقت واحد . ولكي

تغيرهمايجب أنتتصرف وكأنك تصدق انه اعتزم ان يغيرهما قبل ان تطلب ذلك . وهو يعرف ان تظاهرك غير صحيح ، لأن البغال ذكية . لكن البغل جنتلمان، فاذا جاملته وعاملته باحترام،بادلك المجاملة والاحترام ، شرط الا تبزه في ذلـك . لهذا لا تدلل البغل كما تدلل الحصان ، فهو يعرف انك لا تحبه. يعرف انك تحاول خداعه واستمالته ليفعل شيئاً لا يريد ان يفعله ، وهذا يهينه . عامله هكذا . انه يعرف الطريق الى البيت . كما يعرف انني لست من يمسـك بالقياد . لذلك كل ما عليك ان تفعله هو ان تخبره بواسطة الرسن انك انت ايضاً تعرف الطريق . ولكن ، بمـا انه هو ابن البلدة وانت الغريب ، فانك تريده هو ، لياقة ، ان يتقدمك ! »

ومضينا .وسار البغل برشاقة وانتظام . لم يكن ما يثيره من الغبار مقدار نصف ما يثيره الحصان ، فأدركت الان مـا عناه العم بارشم .كنت اشعر من خلال الرسن بذكائه وحكمته بالاضافة الى قوته . لم تكن لديه المقـدرة على الاختيار المضبوط واتخاذ القرار الصحيح عند اللزوم وحسب ، بل كانت لديه الارادة التي تتعمد ذلك ايضاً . وسألني العم بارشم :

« ماذا تفعل في بلدك ؟ »

« اعمل ايام السبت . »

« اذن ستوفر بعض المال . فماذا ستفعل به ؟ »

وفجأة وجدتني انطلق بالحديث واخبره عن كلاب صيد

الارانب ، وكيف اردت ان اصبح صياد ثعالب مثل ابن العم زاك ، وكيف قال ابن العم زاك ان الطريقة الوحيدة لتعلم ذلك هي بالحصول على بضعة كلاب صيد الارانب والتدرب على اصطيـاد الارانب اولاً . واخبرته ان ابي يدفع لي عشرة سنتات كل يوم سبت في الاسطبل العمومي ، وان ابي سيدفع مبلغاً مماثلا لما سأدخره كي استطيع شراء اول زوج من الكلاب لابدأ الصيد . وقلت له ان ذلك يكلف اثني عشر دولاراً ، وانني ادخرت ثمانية دولارات وعشرة سنتات .ثم فجأة بدأت أبكي وانتحب : كنت تعباً ، ليس لانني ركبت في سباق ميل واحد ، فأنا قد ركبت اكثر من هذه المسافة من قبل ، بل ربمـــا لانني استيقظت باكراً ورحت اعبر البلدة جيئة وذهاباً ، وكل ما أكلته وقت الغداء هو كسرة من خبز الذرة . وهكذا كنت جالساً اشهق كطفل ، وقد ألصقت وجهي بقميص العم بارشم ، بينما كان يحضنني باحدى ذراعيه ويتناول الرسن باليد الثانية ، دون ان يقول كلمة . واخيراً قال : « الآن يمكنك ان تكف . كدنا نصل الى البيت . امـــامك وقت يكفي لتغسل وجهك قبل ان ندخل . مـا احسبك تريد ان تراك النسوة هكذا » .

وهذا ما فعلت . أعني ، فككنا البغل أولا وسقينـــاه وعلقنا السرج وادخلنا البغل الى الاسطبل وعلفناه ، ودفعنا العربة تحت سقيفتها . ثم غسلت وجهي بالماء وجففته بجورب الركوب وتبعتهم إلى البيت . كان العشاء جاهزاً مع ان الساعة

لم تكن قد بلغت الخامسة ، وذلـك على عادة المزارعين من أهل الريف . وجلسنا ، انا والعم بارشم وابنته ، ولم يكن ليكورغوس قد عاد بعد من البلدة . وسألني العم بارشم ان كنت اتلو صلاة شكر قبل الطعام في بيتنا . فاجبته بالايجاب حينئذ قال لي :احن رأسك .فحنيت رأسي،فتلا صلاةمختصرة بمهابة ولباقة ودون تذلل . كان كرجل مهذب ذكي يخاطب آخر : يخبر الاله اننا نوشك ان نأكل واننا نشكره على نعمته ولكنه يذكره في الوقت نفسه بأنه لو لم يكد ويعرق إنسان اسمه هود اوبريجنز (وهذا اسم ليكورغوس) لكانت صلاة الشكر تتلى فوق صحون فارغة . وانهى العم بارشم صلاته وفتح فوطته وادخل طرفها تحت يافطته كما يفعل جدي تماماً . وشرعنا نأكل.وحين انتهينا لم تكن الشمس قد غربت بعد . وهكذا كان الليل بطوله امامي . ولم اكن اعرف انني سأنام . كان العم بارشم جالساً امامي ينكش أسنانه بمسواك ذهبي ، مثل مسواك جدي ، ويقرأ افكاري وكأنه يسلـط عليها مصباحاً سحرياً . ثم قال لي :

« هل ترغب في الذهاب الى صيد السمك ؟ » ولم اكن في الحقيقة احب صيد السمك ، لكنني وافقت بسرعة ، فأضاف :

« هيا نذهب ، ربما يكون ليكورغوس قد عاد . »

كانت هناك ثلاث قصبات مجهزة بالخيوط والصنانير وكل شيء ، تستند الى جدار الرواق الخلفي بين مسمارين . فأخذ

اثنتين منها . كان هناك دلو ثقب غطاؤه عدة ثقوب بواسطة مسمار . وقال لي : ان ليكورغوس يحفظ فيه الجنادب التي يستعملها كطعم ، اما انا فأفضل الديدان .

كان يحفظ الديدان في صينية خشبية فيها قليل من التراب. وعندما هم باخراج بعضها سألته ان يدع ذلك لي . فحفرت التراب بشوكة عتيقة وأخرجت الديدان من التراب ووضعتها في علبة صفيح . وحملنا العدة ونزلنـا باتجاه السانية مارين بين اشجار الغابة ، حتى بلغنا الساقية . كان المـــاء يجمع الاضواء الباهتة بلطف ، ثم يعكسهـــا بلطف مماثل . وقال العم بارشم :

« في هذا الحوض تصيـــد ابنتي . ندعوه حوض ماري . تستطيـــع استعماله الآن . اما انا فسأنزل على طول الضفة لأجد مكاناً مناسباً . »

وذهب . كان الضوء ينسحب بسرعة ، وامسى الليـــل قريباً . فجلست على جذع شجرة وضع هناك خصيصـــاً ، بين طنين البعوض . لم يكن الأمر صعباً . كل ما كان علي أن أفعله هو أن أقول في نفسي عند الحاجة « لن افكر » . وبعد فترة فكرت في إنزال الصنارة الى الماء . وتوالت علي أفكار مختلفة ، كأن اضع احد جنادب ليكورغوس في الصنارة ، لكنني عدت وفكرت بأنه يصعب علي الامساك بالجنادب ، ففضلت ان اتركها لليكورغوس . وعدت اقول بيني وبـين نفسي ، يجب ألا افكر . لم اكن استطيع رؤية العم بارشم

او سماعه ، ولم اعرف كم ابتعد على طول الضفة . وشعرت ان هذا هو الوقت المناسب لأن اتصرف كطفل ، لكن ما الفائدة من التصرف كطفل إن لم يكن قربك من يشعر بذلك ويمنحك عطفه . وإذا كنت اريد العطف ، او حتى العودة الى البيت ، فما اردته حقيقة هو فراش طري أليف ارقد عليه ثانية على سبيل التغيير . وسمعت صوت طائر الليل . ومن خلف الآجام علا صوت بومة . وفكرت انه لا بد ان تكون في الجوار غابات كبيرة . وإذا كانت كلاب ليكورغوس (او ربما كلاب العم بارشم) تمكنت من القبض على اوتيس ، فلا بد انها تستطيع ان تصيد الأرانب . كان الليل قد حلّ منذ قليل . وتكلم ليكورغوس بهدوء وهو يقف ورائي، ولم أكن قد سمعت وقع خطواته :

« هل اصطدت شيئاً ؟»

« لست صياد سمك ناجحاً. كيف كان صيد كلابك ؟»

« جيد » .

وحمل ليكورغوس القصبتين وتبعناه الى البيت . كان النور مضاء . وكان على المائدة صينية وُضع عليها عشاء ليكورغوس . فقال له العم بارشم :

« اجلس . قص علينا ما جرى لك ، ونحن نأكل ».

فجلس قائلا :

« ما زالوا هناك » . فسأله العم بارشم :

« ألم يأخذوهم إلى هاردويك بعد ؟ فليس في بوسم سجن » .

« سجنوهم في مستودع الحطب ، خلف المدرسة ، الى ان يستطيعوا أخذهم الى السجن في هاردويك . اعني الرجال . لم يوقفوا نساء من قبل » . فقال ليكورغوس :

« كلا ، ياسيدي . السيدات ما زلن في الفندق ، وعلى بابهن حارس . السيد هوجانبك وحده في مستودع الحطب . السيد كالدويل عاد الى ممفيس في القطار رقم واحد وثلاثين ، ومعه الصبي » فقلت لأوتيس : هل استرجعوا السن منـــه ؟ فأجاب ليكورغوس :

« لم أعرف شيئاً عن هذا . الحصان أيضاً بخير . ذهبت ورأيته . انه في اسطبل الفندق . وقد كتب السيد كالدويل قبل ذهابه تعهداً بشأن ند ليتمكن من مراقبة الحصان » . ثم أكل لقمة وتابع قائلاً : « هناك قطار يذهب الى جفرسون في العاشرة إلا ثلثاً يمكننا اللحاق به ان نحن اسرعنا . »

فأخرج العم بارشم ساعة فضية من جيبه ونظر اليها . قلت : « لا اقدر . يجب ان انتظر » . فأعـــاد العم بارشم ساعته الى جيبه ونادى ابنته دون ان يرفع صوته . كانت في الغرفة المقابلة ، ومع ذلك لم اسمع لها صوتاً . وسرعـان ما وقفت في الباب وقالت : « لقد اعددتـــه » . ثم قالت لي : « ستنام في سرير ليكورغوس حيث نمت البارحة » . فأجبت : « لا حاجة بي الي سرير ليكورغوس . اقدر ان انام قرب

العم بارشم . لا يهم ». فنظروا إلي بهـــدوء تام وفي عيونهم النظرة الثابتة نفسها . وعدت الى القول :

« نمت مع الرئيس مرات عديدة . هو ايضاً يشخر . لا يهمني » . فسأل العم بارشم قائلاً :

« الرئيس ؟ »

« انه جدي ، هكذا ندعوه . هو ايضـــاً يشخر . انني لا أهتم ».

وذهبنا الى غرفة العم بارشم . كانت على حاملة المصبـاح رسوم أزهار ، وفي الجدار صورة كبيرة ضمن إطار مذهب تمثل امرأة في منتصف العمر . وكان هنـــاك كرسي هزّاز لكنني لم أجلس عليه ، بل بقيت واقفاً . وبعد قليل عـاد يرتدي جلباب نوم وهو يملأ الساعة . وقال لي ان اخلـــع ملابسي ، فخلعتها . حينئذ سألني :

« هل تدعك أمك تنام هكذا في البيت ؟»

« كلا ، يا سيدي » .

« أليس معك شيء تلبسه ؟»

« كلا ، يا سيدي » . فوضع الساعة من يده وذهب الى الباب ونادى ابنته كي تحضر لي أحد قمصـــان ليكورغوس النظيفة . فغابت قليلاً ثم عادت تمد يدها من فتحة البـاب بالقميص . فلبسته ، وسألني :

« هل تصلّي قبل النوم راكعاً ام جالساً في سريرك؟»

« راكعاً »

« إذن إتل صلاتك» .

فجثوت قرب السرير وصليت ثم دخلت في الفراش . فأطفأ المصباح ثم سمعت صرير السرير ثانية . كان القمر سيتأخر قبل أن يرتفع في السماء ، إنما كان هنـــاك نور كاف فاستطعت رؤيته وهو يستلقي ، وكل ما فيه بياض على سواد أو سواد على بياض . كان يستلقي بسواده فوق الوســـادة البيضاء ، بينما كان شارباه الابيضان ولحيته القصيرة البيضاء فوق وجهه الأسود . وقال لي :

« غداً صباحاً سآخذك الى البلدة لترى السيد هوجانبك . فاذا قال انك قمت بكل ما عليك هنا وطلب منك العودة الى البيت ، فهل تعود ؟ »

« نعم ، يا سيدي» .

« الآن نم ».

كنت أعرف ان هذا ما أريده قبل أن يقوله . ربما كان ما تمنيته منذ البارحة هو الذهاب الى البيت . لا احد يحب أن يجلد ، لكن لا يمكنه تفادي ذلك احيانـــاً ، وكل ما يستطيـــع فعله هو ان لا يتراجـع . وهكذا فعل بون وند ، اي انهما لم يتراجعا ، وإلا لما كانا حيث هما الآن. وقد لا يقولان انني تراجعت اذا طلبا مني الذهاب الى البيت بنفسيهما . أرأيت ؟ كانت الحقيقة البسيطة انني اردت الذهاب الى البيت ولم اكن املك الشجاعة الكافية للتصريح بذلك ، فكيف بتنفيذه . وهكذا حين اعترفت اخيراً بانني لم اكن

فاشلاً وحسب ، بل جباناً ايضـــاً ، استراح فكري فصار بامكاني ان انام كطفل . كان العم بارشم قد نام . لكنه نادراً ما شخر . ولم يكن ذلك مهمـــاً ، ما دمت سأذهب الى البيت غـــداً وليس معي شيء - لا حصان مسروق ولا مومسات ولا عامـــل سكة حديد متجول ولا ند او بون .
وصحوت على صياح ارتفع مرتين او ثلاثاً . وحين تقلبت كان موضع العم بارشم خالياً . فجلست في الفراش ، وكانت قـد أشرقت الشمس . وسمعت الصياح من جديد خارج البيت . كان احدهم ينادي ليكورغوس . فقفزت من الفراش وركضت الى النافذة حيث يمكنني ان اطل منها على الساحة الامامية . فرأيت ند ومعه الحصان .

الفصل الثاني عشر

هكذا مرة أخرى . كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، فهيأت أنا وماك وبلي خطة السباق (وكانت خطته هو على أية حال) - وكنا قد أخفنا مستر « كلاب » بما فيه الكفاية يوم أمس ، وقدناه إلى الموقع النصفي ، فظفر ماك وبلي بذلك - ووقف ينتظر الجوكي للانطلاق .

سبقت ذلك بضعة أشياء . منها ند . كان مظهره سيئاً ومخيفاً . ولم يكن ذلك بسبب قلة النوم ؛ فالنوم كان ينقصنا جميعاً . لكنني كنت قد أمضيت أنا وبون الليالي الأربع على الأقل في الفراش منذ أن تركنا جفرسون ، بينما لم يمض ند أكثر من ليلتين ، إحداهما في عربة يجرها حصان والأخرى في الاسطبل مع الحصان ، ولم يفترش غير التبن ، هذا إذا كان قد افترش أي شيء . أضف الى ذلك ثيابه ؛ فقد كان قميصه وسخاً ، ولم يكن بنطلونه الأسود في حال أحسن .

أما من جهتي فكانت افربي قد غسلت ، على الاقل ، بعض ثيابي في الليلة قبل الاخيرة ، في حين بقي هو لابساً ثيابه دون أن يخلع شيئاً منها . وها هو الآن يجلس وقد لبس بزة باهتة اللون نظيفة من بزات العم بارشم ، وهي في الواقع عبارة عن بنطلون وسترة عمل . وكانت ماري تغسل قميصه وتبـــذل جهدها لتنظيف بنطلونه . وكنا ، أنا وهو ، نجلس الى طاولة المطبخ ، نتناول فطورنا ، ومعنا العم بارشم ، يصغي .

قال ان احد الرجال البيض – ولم يكن المفوض السيـــد بوليموس – أيقظه من نومه حيث كان مستلقيـــاً فوق بالات التبن ، واخبره ان يأخذ الحصان ويغادر البلدة . فقلت له : « وحدك انت ولايلتننـــغ دون بون والآخرين ؟ » وتابعت متسائلا : « اين هم ؟ » فقال ند : « حيث وضعهم الرجال البيض . هكذا قلت لهم انني شاكر كثيراً ، ايهـا الاصدقاء البيض ، واخذت لايلتننغ بيدي و... » فسألته : « لماذا ؟ » فأجاب :

« وماذا يهمك من السبب ؟ ما نحتاج اليه الآن هو ان نقف خلف ذلك الشريط، الساعة الثانية بعد الظهر ، ونسبقهم ونوقف سيارة الرئيس ، ثم نعود الى جفرسون التي كان من الافضل في الواقع الاّ نغادرها . »

« لا يمكننا ان نعود دون بون . لمـــاذا لم يسمحوا له بالذهاب ، اذا كانوا قد سمحوا لك وللايلتننغ ؟ »

« انتبه . عند كل منا ، انت وانا ، ما يكفينا لان نشترك في سباق الخيل . لماذا لا تنهي فطورك وتعود فتستلقي وتستريح حتى أدعوك في الوقت المناسب . »

وقال العمّ بارشم لند ، وهو يأكل بسرعة ، ورأسه مائل فوق صحنه ، وقد بدا متعباً ولم تكن عيناه محمرتين وحسب، بل كانتا فاقعتي الاحمرار :

« كُفّ عن الكذب عليه » .فقال ند :

« لن يذهب السيد بون هوجانبك الى أي مكان . إنه الآن في السجن . سينقلونه الى هارديك هذا الصباح حيث يشدون وثاقه . هذا يكفي ، وانسيا ذلك . فما علينا القيام به هو » فقاطعه العم بارشم قائلاً :

« أخبره . لقد تحمّل كل ما سببتموه له منذ ان جئتم به الى هنا . فما الذي يحملكم تشكون أنه لا يستطيع أن يتحمل بقية ما سيلاقيه ، حتى يمكنكم الانتقال الى الجانب الآخر وتتمكنوا من ارجاعه الى البيت ؟ ألم يكن عليه أن يراقبها أيضاً ، هنا تماماً في حديقتي وبيتي وهناك في حقولي ، هذا دون أن أذكر ما كان باستطاعته أن يراه في البلدة مذاك – ذلك الرجل يدفش تلك الفتاة ويزحمها ، وهي تحاول ان تتخلص منه ، ولم يبق لها سوى هذا الولد ، ذي الاحد عشر ربيعاً لتلتجىء اليه ؟ ولم تكن تستطيع الاعتماد على بون هوجانبك ،ولا على القانون ، ولا على الرجال البيض،

بل عليه هو فقط ؟ أخبره » . وكان في داخلي شيء يقول : كلا ، كلا لا تسأل . اتركها اتركها . وقلت : « ماذا عمل بون ؟ » .

واستمر ند يأكل فوق صحنه ، وعيناه ترتجفان كما لو أن فيهما رملاً ، وقال : « ضرب ذلك المفوض وضرب بطش ، حتى كاد يقضي عليه . أطلقوا سراحه قبلي وقبل لايتيننغ . ولم يتوقف ، بل توجه رأساً الى تلك الفتاة » فقلت :

« انها الآنسة ريبا . الآنسة ريبا ».

« كلا ، كانت الاخرى ، تلك الكبيرة . لم يذكروا اسمها أمامي – وضربها واستدار »

« ضربها ؟ بون ضرب الآنسة كوري ؟»

« هذا هو اسمها ؟ نعم واستدار وعاد الى ان عثر على المفوض وضربه بالرغم من مسدسه وكل ما لديه ، قبل ان يقدروا على تخليصه »

« ضربها بون . ضربها . »

«نعم . هي السبب في اطلاق سراحنا . انا ولايتننغ .فقد اكتشف بطش انه لا يقدر ان ينالها بأية طريقة أخرى ، وعندما عرف ان علينا انا وانت وبون ان نربح هذا السباق اليوم قبل ان نجرؤ على العودة الى البيت ، واننا نعتمد على لايتننغ للفوز بالسباق ، أخذه وسجنه . هذا ما حدث . هذا كل ما في الامر . أخبركم العم بوسم كيف رأى الواقعة تقترب

يوم الاثنين ، وربما كان علي ان اراها انا ايضاً ، ولعلي كنت استطيع لو لم اكن مشغولاً بلايتننغ الى هذه الدرجة ، او او كنت اعرف بطش اكثر . »

« لا اصدق ذلك . »

« نعم . هذا ما حدث . كان مجرد سوء حظ . ذلك النوع من سوء الحظ الذي لا يستطيع الانسان ان يحسب له حساباً قبل وقوعه . وجد نفسه صدفة حيث كان عندما رآها يوم الاثنين . وتصور رأساً انه يستطيع بذلك المسدس وبتلك الشارة على صدره ، ان يفعل كل شيء . لعل ذلك راجع الى انه اعتاد رؤيتهما حوله . لكنهما هذه المرة فقط لم يفيداه ، وهكذا كان عليه ان يبحث عن وسيلة أخرى . فكان لايتننغ الذي نعتمد عليه لنربح ذلك السباق للتمكن من استرجاع سيارة الرئيس ، وربما عدنا الى البيت . » فقلت :

« كلا ، كلا لم تكن هي . ليست هنا . عادت مساء امس الى ممفيس مع سام . لم يخبروك . كان شخصاً آخر . شخصاً آخر . »

« كلا ، كانت هي . رأيتها يوم الاثنين هنا . »

اوه ، نعم . وفي طريق عودتنا ذلك المساء وعند الطبيب ، وفي الفندق تلك الليلة حتى أفزعته الآنسة ريبا وهرّبته وظننا ، انا على الاقل ظننت ، أنه ذهب الى غير عودة ، لأن الآنسة ريبا كانت ايضاً مجرد امرأة . قلت :

« لماذا لم يساعدها شخص آخر؟ رجل ما . ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي أخذك انت ولايتننغ ، والذي اخبر سام وبطش ان بامكانهما ان يكونا اي شيء يريدانــه في ممفيس اوناشفيل اوهاردريك ، ولكنه هنا في بوسم هو وحــده السلطة » .

«ثم صرخت : لا أصدق هذا !» فقال ند :

« نعم . انها هي التي اطلقت سراح لايتيننغ ليدخــل السباق مرة اخرى اليوم . انا لا اتكلم عن نفسي وعن بون والآخرين ، بطش لم يهتم بنا ابداً ، لكنه اهتم بإبعــاد بون وازاحته من طريقه حتى هذا الصباح . كان لايتيننغ هو كل ما احتاج اليه . كان عليه ان يدخلني في الموضوع ، انا وبون والبقية ، ليجعل السيد بوليموس يصدقه . وقد خدعه بطش واستخدمه الى ان حصل ما حصل هذا الصباح واطلــق سراحنا . وربما تم ذلك حين اعتبر بطش انه نال حقــه . فزعم بأن المسألة كانت كلها غلطة ، او ان الحصان كان غير الحصان . او ربما لم تكن لبطش يد في ذلك ، بل السيــد بوليموس هو الذي حلل الموقف وشك في الامر ، فأطلــق سراح الجميــع . وقبل ان يقدر ان يستدير ، ذهب بون وضرب تلك الفتاة ، ثم عاد مباشرة ، وحاول أن يطيــح برأس بطش ومسدسه وكل شيء ، بيديه وحدهما . ولا بد ان السيد بوليموس استنتج القصة بكاملها . وقد يكون السيد

بوليموس صغير الجسم او عجوزاً ، إلا انه رجل حقاً . اخبروني كيف ان زوجته أصابتها العام الماضي نازلة من تلك النوازل فلم تقدر حتى ان ترفع يدها ، وكان كل ابنائه متزوجين يعيشون وحدهم ، وهكذا كان عليه ان يغسلها ويطعمها وينزلها من الفراش ويعيدها اليه نهاراً وليلاً ، بالاضافة الى الطبخ وتدبير المنزل ، هذا اذا لم تمرّ احدى الجارات وتساعده . مع ذلك لا تقدر ان تعرفه على حقيقته قبل ان تنظر اليه وتراقبه . دخل هناك — لم أر هذا بنفسي ، بل اخبروني : كان اثنان او ثلاثة يمسكون ببون ويحاول آخر ان يمنع بطش من ضربه بالمسدس بينما كانوا يمسكون به . فتقدم رأساً الى بطش وانتزع ذلك المسدس من يده ومد اصابعه وانتزع الشارة عن صدره كما انتزع نصف قميصه وتلفن لهارديك ليعيدوهم الى السجن جميعاً ، ومعهم النساء ايضاً . وعندما يكون في الامر نساء ، يسمون ذلك حلاوة . » فقال العم بارشم مصححاً :

« زعرنة . » وقال ند :

« هذا ما قلته . بامكانك ان تسمي ذلك ما شئت . انني اسميه سجناً . » وقلت :

« لا اصدق انها تركت ذلك . » فقال ند :

« خير لنا اذن ان نعلن امتناننا لأنها بدأت من جديد . اذ لولا ذلك لكنت انا وانت ولايكلينغ — » فقلت :

« لقد اقلعت عن ذلك. وعدتني بانها ستترك.» فقال ند :

« ألم نسترجع لايلننغ ؟ أليس واجبنا الآن هو ان ندخله السباق ؟ ألم يقل مستر سام انه سيعود اليوم وسيعرف مـــا سيعمله ، وسنكون أنا وانت وبون كالعادة كما لو اننـــا عدنا الى بيوتنا ؟ »

وجلست هناك . كان الوقت ما زال باكراً . أعني كانت الساعة ما تزال تشير في تلك اللحظة الى الثامنة فقط . كان الجو يدل على ان اليوم سيكون حارّاً ، اليوم الحار الاول بدء الصيف . أرأيت ؟ إن الاستمرار في قولك لا اصدق يمكن ان يفيد في البرهة نفسها – لكن حالما تموت الكلمات والضجيج ، يبقى كل شيء هناك : الغضب والحنق والحزن وكل شيء آخر – دون تغير . وقلت للعم بارشم :

« علي ان اذهب الى البيت مباشرة . واذا قدرت ان أستخدم احد البغال ، فسأرسل لك الدراهم حالمـــا اصل الى البيت . » فنهض في الحال قائلاً : تعال . وقال ند :« قف . فات الوقت الآن . أرسل السيد بوليموس يطلب سيارة. لقد ذهبوا . » وقال العم بارشم :« يمكنه ان يقطع الطريق عليهم. المسافة بيننا وبين الطريق التي سيسلكونهـــا ليست اكثر من نصف ميل . » فقال ند : « ينبغي ان أنام قليلاً . »

فقال العم بارشم : « أعرف ذلك . أنا ذاهب معـــه . وعدته بذلك ليلة أمس .» فقلت : « لست ذاهباً الى البيت

الآن . سأذهب الى البلدة لدقيقة . ثم أرجع الى هنا » .

وقال ند : « حسناً . دعني أنهي قهوتي على الاقل » .

لكننا لم ننتظره . كان أحد البغلين قد انطلق على أية حال ، ربما الى الحقول مع ليكورغوس . أما البغل الآخر فكان موجوداً . وخرج ند قبل أن نبدأ . ودلنا العم بارشم على طريقة لاختصار المسافة الى هارديك ، لكنني لم أهتمّ . أعني أنني لم أهتم الآن للمكان الذي أحل فيه . لو لم أكن قد أرهقت من جراء سباق الخيل والنساء والبوليس وجميع الآخرين البعيدين عن بيوتهم ، لكنت فضلت أن ألقى بون في مكان خاص وبسرعة من أجلنا كلينا . لكن لم يعد هناك فرق الآن ، كان يمكن ان يتم اللقاء في منتصف الطريق او الساحة . او ربما سيارة مليئة بهم. لكننا لم نصادف السيارة، كان واضحاً انني كنت محمياً ، فقد كان امراً لا يغتفر ان افعل ما افعله بصورة علنية – كان امراً لا يحتمله الذين خدموا اللافصيلة بهذا الولاء ، طيلة اربعة ايام ، وطلبوا مكافأة لهم، شيئاً زهيداً . أعني ان لا ارى ايا منهم اكثر مما علي ان ارى. وهذا ما تيسر لي . فالسيارة التي ما زالت فارغة كانت قد وصلت لتوها الى الفندق عندما وصلت اليه : كانت مركبة لسبعة ركاب وفيها فسحة لعفش اثنين – كلا ، ثلاثة : ميني ايضاً – امرأة تقوم برحلة لمدة يومين من ممفيس الى بارشم . انهم جميعاً الآن في الطابق الأعلى يرتبون امتعتهم ، وهكذا

فان سرقة الخيول نفسها حلت من تلقائها . وأزاح ند الدولاب من اجلي لانزل ، وقال : اما تزال مصراً على ألا تخبرني بسبب مجيئك الى هنا ؟ فأجبت : كلا .

كانت الكراسي في الشرفة فارغة كلها ، وكان باستطاعة قيصر ان يحتفل بانتصاره هنا وحصوله على العزلة التي يتطلبها مركز بون وبطش الجديد . وكانت القاعة فارغة ، ويمكن السيد بوليموس ان يستخدم مثلها ، لكنه كان رجلا . كان في جناح السيدات – السيد بوليموس ، وسائق السيارة وشرطي آخر يحمل شارة ، ثم بطش وبون ، وكانت تظهر عليهما دلائل المعركة .

كان بون وحده هو الذي قرأ ما بدا على وجهي (عرف هذا الوجه مدة كافية) او لعل ضميره هو الذي استيقظ ، فقال بسرعة :

« احذر يا لوشيوس ، احذر ! » قال هذا وهو يرفع ذراعه الى اعلى وينهض بسرعة ، ويخطو الى الوراء ويتراجع ، وأنا امشي اليه ، مباشرة إليه ، ولم اكن طويلاً بمقدار نصف طوله ، ولم اجد ما أقف عليه ، كان علي ان أتطاول وأقفز وامد نفسي لأتمكن من ضربه على وجهه ! اوه ، نعم ، كنت ابكي واصرخ . لم اكن استطيع رؤيته تلك اللحظة ، انما كنت اضرب اعلى مكان استطيع بلوغه . وكان علي ان اتطاول واقفز لاضرب اعلى نقطة فيه . وكان السيد بوليموس

خلفي يقول : « اضربه ثانية . لقد ضرب امرأة . ولا يهمني من تكون . »

. وأمسك بي احدهم ، فانتزعت نفسي واستدرت نحو الباب كالأعمى . آنذاك انتبهت الى ان اليد تقودني . وقال بون : انتظر،الا تريد ان تراها ؟

كنت متعباً ، وكانت قدماي تؤلمانني . كنت على وشك الهلاك . كنت بحاجة الى مزيد من النوم . واكثر من هذا : كنت متسخاً . كنت اريد ملابس نظيفة . لقد غسلت ثيابي مساء الاثنين ، لكن الملابس المغسولة لم تكن كافية . كنت بحاجة الى تبديلها بملابس غسلت واستراحت قليـــلا ، كما في البيت ، وتفوح منها رائحة الجواري الهادئة والنشاء والبياض. لكن قدميّ بصورة خاصة كانتا بحاجة الى جوارب نظيفة ، والى حذائي الآخر . واجبت بون: « لا اريد ان ارى احداً. أريد ان اذهب الى البيت ! » فأجاب : « حسناً . من منكم هنا يوصله الى القطار هذا الصباح ؟ معي المال الكافي لذلك. » فأجبت : « اخرس ، لن اذهب الى اي مكان الآن ». ومضيت وانا لا ازال فاقد النظر ، واليد ما تزال تقودني . وقال بون :

« انتظر . انتظر يا لوشيوس ! » فقلت ثانية :

« اخرس ! » ولوتني اليد . كان أمامنا جدار . قال لي السيد بوليموس :«امسح وجهك» . ومد يده نحوي بمنديل لم

آخذه . ومسحت برباط يدي . لقد وفى جورب الركوب بالغرض . على أية حال، تلقى دموعي قبل الآن .ومن يدري؟ لو بقي معي مدة كافية ، لربما فاز في السباق . صار بإمكاني ان ارى . كنا قد بلغنا الردهة وبدأت انعطف، لكن صاحب اليد اوقفني وقال :

« انتظر لحظة . إذا كنت ما تزال غير راغب في رؤية أحد » . وكانت الآنسة ريبا وافربي تهبطان الدرج ، وهما تحملان أمتعتها . لكن ميني لم تكن معهما . كان الوكيل السائق ينتظر ، فأخذ الامتعة ، ومضوا جميعاً دون أن ينظروا باتجاهنا . كانت الآنسة ريبا كعادتها ، من حيث صلابتها ومشيتها المتعالية . وبدا لي ان الوكيل لو لم يتحرك بسرعة لتعثرت به وبالحزم وكل شيء . وتابعوا طريقهم .وقال لي السيد بوليموس :

« سأشتري لك تذكرة سفر كي تعود . اذهب في ذلك القطار . » ولم اقل له : اخرس . فتابع قائلا :

« لقد فقدت كل اصحابك الآن . سأبقى معك واوصي السائق بك . »

« سوف انتظر ند . لا اقدر ان اذهب بدونه . لو لم تفسد البارحة كل شيء ، لكنا الآن في طريق عودتنا . »

« من هو ند ؟ »

فأخبرته ، فقال ثانية :

« اتعني انك ستقود ذلك الحصان اليوم مهما كانت الحال ؟ انت وند وحدكما ؟ » أجبته بالايجاب ، فسألني :

« اين ند الان ؟ » وحين اخبرته ، قال :

« تعال . نقدر ان نخرج من الباب الجانبي . » كان ند يقف قرب البغل . وكانت مؤخرة السيارة الى جهتنا . ولم تكن ميني معهم هنا ايضاً . لعلها عادت الى ممفيس البارحة مع سام واوتيس . ولعلها ، وقد وجدت اوتيس ثانية ، لن ترفع يديها عنه الا وهي تمسك بتلك السن . هذا ما كنت افعله لو انني مكانها . وقال ند . « إذن ، قبض عليك السيد بوليموس أنت ايضاً ؟ ما الحكاية ؟ أليس لديه قيود بقياسك ؟ » فأجبته : اخرس ! فسأله السيد بوليموس : متى ستعيده الى البيت يا ابني ؟ فقال : آمل ان اعيده الليلة ، حالما اتخلص من هذا السباق . فقال :

« هل معك مال كاف ؟ »

« نعم ، يا سيدي . أشكرك . سنكون بخير بعد هذا السباق . »

واوقف ند العجلة وصعدنا . وقال السيد بوليموس وهو يمسك بالعمود العلوي :

« إذن ستسابقون حصان لنسكومب بعد ظهر اليوم . »

« سنفوز على حصان لنسكومب بعد ظهر اليوم ! »

« اهذا ما تأملونه ؟ »

« بل هذا ما نعرفه حق المعرفة ! »

وقال ند : « ليتني أملك مئة دولار لأراهن عليـــه » .
ونظر كل منهما الى الآخر . ومرت برهة طويلة ، أفلت بعدها السيد بوليموس العمود وأخرج من جيبه محفظة مهترئة تشبـه محفظة ند تماماً . كانت أطول من جورب الركوب نفســـه ، حتى انك لا تقدر أن تمـــيز من الذي يدفع ولمن يدفع ولأي سبب . ثم فتحها واخرج منها ورقتين نقديتين ، كل منهمابقيمة دولار واحد . ثم طوى المحفظة وأعطى ند الدولارين وقال:
« راهن بهذه لحسابي . اذا صدق توقعك ، يمكنك الاحتفاظ بنصفها » . وأخذ ند الورقتين وقال :

« سأراهن بهما لحسابك . لكنني أشكرك . عند غروب الشمس أكون قادراً على تسليفك ثلاثة او اربعة اضعـــاف هذا المبلغ » .

وقدنا العربة – أعني قادها ند . ولم نمر قرب السيــارة . وقال لي : « عدت تبكي صرت فارس سباق ولم تتجـــاوز مرحلة البكاء بعد » . فقلت له : « اخرس » . لكنه كانيدير العربة ثانية ويجتاز الساحة الى الجانب الاخر . وتوقف أمام مخزن وأعطاني زمام البغل ونزل الى المخزن .ولم يطل الوقت حتى عاد يحمل كيساً من الورق ، صعد به الى العربة وساقها باتجاه البيت – اعني بيت العم بارشم . ثم اخرج من الكيس الكبير كيساً صغيراً فيه سكاكر روح النعنع ، وقال وهـو يناولني الكيس :

« خذ . معي أيضاً بعض الموز . وحالما نأخذ لايتيننغ الى تلك الحظيرة الخاصة ، يمكننا عندئذ أن نستريح ونأكلها . وربما استطعت ان انام قليلاً قبل أن أنسى كيف يكون النوم. وحتى ذلك الحين كف عن تلك الصبية ، ما دمت قد سويت الحساب مع بون هوجانبك . ضرب المرأة لا يؤذيها لأن المرأة لا ترد الضربة شأن الرجل ، بل تستسلم لها . حتى اذا ما أدرت ظهرك تناولت فأساً او سكين جزار . لهذا كان ضربهن لا يكسر شيئاً . كل ما هنالك انه يترك قرب عينها علامة سوداء ، أو يجرح فمها قليلاً . وهذا لا شيء بالنسبة للمرأة . لماذا ؟ لأن لا شيء أحب الى المرأة من أثر ضربة تلقتها من رجل يفكر فيها ؟»

ثم اعتلينا الحصانين ثانية ، أنا وماك وبلي ، ووقفنا متأهبين خلف حبل الانطلاق .(كنا نتحفز ونتأهب فعلاً للسباق . وكان لايتيننغ نفسه متحفزاً .لقد تعلم من سباق البارحة على الاقل ان عليه ان يكون في مستوى ايكرون عندما يبدأ الركض ، وإن لم يكن قد اكتشف بعد ضرورة الوصول قبله عندما يتوقفان).

كانت تعليمات ند هذه المرة بسيطة وواضحة . قال : « اعرف انني اقدر ان اجعله يركض مرة ، واعتقد انني اقدر ان اجعله يركض مرتين . لكننا نريد توفير الشوط الذي اعرفه الى ان نحتاج اليه . واليك ما أريدك ان تفعله في هذا الشوط

الاول : قبل ان يصرخ المحكون «انطلق» بثانية ، قــل في نفسك اسمي ند وليام ماك كاسلن وحققها ».

« أحقق ماذا ؟» فتابــع قائلاً :

« أنا أيضاً لا اعرف بعد . لكن ايكرون حصان . ومع الحصان يمكن أن يحصل اي شيء . واذا كان فارسه زنجيــاً تضاعف الاحتمال . كل ما عليك هو ان تراقب وتتأهب ،حتى اذا ما حصل له شيء قلت في نفسك اسمي ند وليام مــاك كاسلن وتحققها بسرعة . ولا تقلق . إن لم تنجح العملية أو لم يحصل لهشيء ، سأكون هناك عند خط الوصول لأتدخل. لأننا نعرف انني اقدر ان اجعله يركض مرة ».

ثم ارتفعت الصيحة « انطلقوا » فقفز إلحصانان وانطلقنا. كان ماك ويلي هــذه المرة هو السابق . او بالاحرى انطلق اولاً . اذ انني لا اذكر ان كنت قد فعلت ذلك بنــاء على خطة او بالحدس فقط . كان ايكرون في حمى السباق يتقدمنا بثلاثة اطوال عندما اطلقت العنان للايتننغ . لكنني حافظت على مسافة الاطوال الثلاثة بيننا . كنا نركض وبيننا مجـــال لثلاثة احصنة عندما رأيت ماك ويلي يقوم بحركة يدعونهـــا اليوم قفزة مضاعفة ، ثم يلتفت بعينيه فقط بلمحة جانبيـــة خاطفة . كان ، طبعاً ، يتوقع ان يرانا عند ركبته . ثم تابع الركض بالسرعة القصوى فترة اخرى قبل ان يفطن الى اننا ، انا ولايتننغ ، لم نكن هناك . فاستدار والتفت بحركة كاملة

من رأسه الى الوراء . ما زلت اذكر بياض عينيه وفمه المفتوح. وكأنني اراه الان يشير بيديه الى ايكرون كي يخفف سرعته. واعتقد بكل اخلاص انني سمعتـه يصرخ لي : « بحق السماء ايها الصبي الابيض اركض اذا كنت تسابقني . »

كانت المسافة بيننا تقصر بسرعة لأنه كان قد شد ايكرون الى الخلف بشكل جانبي حتى اصبح بوضع يعترض مجرى السير، او على الاقل ، يجري جانباً مواجهاً الحاجز الخارجي . انـني مقتنع الآن بأن ذهن ماك ويلي الملتهب قـد ساوره بالرجوع والركض الى الخلف ليتمكن من ان يعاود الركض ولايتننـغ امامه . لا ، لم اضع اية خطة . فقط قلت في نفسي: اسمي ند وليم ماك كاسلن، وضربت لايتننغ بالقضيب بمنتهى قوتي.حتى انه عندما قفز ليجتاز المسافة بـين ايكرون والحاجز الداخلي كنا نـستطيـع ان ندفع ايكرون . ولاح لي ان قدمي ستهرس، وثبّت نفسي فوق ظهره فاقد الشعور لا انتظر غير وقـع الضربة ، والانهراس ، والصدمة ، وانبثاق الدم ، وانسحاق العظام ، واي شيء آخر . لكن ما انقذنا هو انه كانت امامنا فسحة كافية او سرعة كافية او لعله كان خطأ كافياً : فـلم تصب ساقي بل لمس ورك لايتننـغ مؤخرة ايكرون . وفي هذه اللحظة ذاتها ضربته بالقضيب باسرع ما استطيـع . ولم يكن باستطاعة اي قاض او حـكم ، او مدرب كلاب ، او صياد ، مهما بلغ دهاؤه وحذقه ان يبرهن على ان حصاني ليس

هو الذي ضرب . الحقيقة اننا كنا متشابكين بصورة كاملة في تلك اللحظة ، حتى ان ايكرون كان الوحيد بيننا نحن الاربعة ، الذي عرف مَن أُصيب .

ثم واصلنا الركض . أعـني أنا ولايتيننغ . لم التفت الى الى الوراء – لم استطع ان التفت . لذا كان علي ان أنتظر الى ما بعد نهاية الشوط كي اعرف ماذا حدث . قيل لي ان ايكرون لم يحاول أن يقفز فوق الحاجز مطلقاً ، لكنه وقف على قائمتيه الخلفيتين فارتمى وراء الحاجز وسط عاصفـة من الغبار لكنه بقي على أرجله . ثم اخـذ يركض مذعوراً في المرعى باتجاه مستقيم والمتفرجون يتراكضون من طريقه الى ان تمكن ماك ويلي من كبح جماحه . وهنا قيل ان ماك ويـلي حاول فعلا أن يقفز الحاجز ليعود الى الحلبة ويتابع الركض. لكن الوقت كان قد فات ، إذ كنا ، أنا ولايتيننغ ، قـد اجتزنا مسافة طويلة . ثم ان الحصان رفض ان يقفز وانطلق كالريح على طول الحلبة ، لكن من الخارج . وكان المتفرجون يقفزون من طريقه كالضفادع . كان ذلك عندما بدأت أسمـع وقع حوافر الحصان من جديد . كان يتقدم بسرعة ، مع ان الحاجز بيننا . وكان لايتيننغ الذي استقل بالحلبة قد اخـذ يعدو بحركة قوية منسجمة ، حـتى ليحسب من يراه انه لا يبذل أي جهد لبلوغ هذه السرعة . ومع ذلك ، كان ايكرون الذي كان قد ركض حوالي خمسين ياردة إضافية والذي كان

عليه ان يقطع المسافة نفسها ثانية ، قد تقدمنا الآن ، لكن خارج الحلبة . وعند نهاية المنعطف الأول كنت استطيع ان أرى دماغ ماك ويلي البائس يتنازعه اختياران حرجان . أن يدفع ايكرون الى الحلبة ويغلق الثغرة التي احدثها بنفسه، او ان يبقيه في الحقل حيث لا تعترضه عوائق .

وأخيراً تغلبت الفكرة المحافظة . فاذا بظهره يتقوس للمرة الثانية (عند المنعطف الثاني) ، وهكذا بدأت الدورة من جديد . ومع ان ايكرون كان في جهة الحلبة الخارجية حيث المنعطف الاطول ، فقد كان ما يزال يتقدمنا . واعتقد انني فكرت باستعمال السوط . وكان الجمهور حولنا يصرخ . ومن يلومهم ؟ وتابعنا الركض ، وايكرون ما يزال في اوج سرعته : يركض في الخط الذي شقه لنفسه ، والخط مفتوح مثل طريق السماء . وكان قد تجاوز الحلبة بطولين ، عندما بلغنا ، أنا ولاتيننغ ، خط الوصول وعبرنا تحت الشريط . وكان ايكرون يبدأ الدورة الثالثة ، عندما شده ماك ويلي بكل قوته الى المرعى واوقفه . وارتفع الصراخ حولنا :

« خطأ ! خطأ ! كلا ! كلا ! هذا ليس سباقاً ! هذا ليس سباقاً »

« بلى انه سباق ! » كلا ليس سباقاً ! اسألوا القاضي ! اسألوا إد ! ماذا يا إد ؟ »

وكان الجمهور الذي فرقه ايكرون قد بدأ يتدفق على

المكان من خلال الثغرات التي فتحهـــا ايكرون . وكنت انا ابحث عن ند . وحسبت انني رأيته ، لكنه كان ليكورغوس جاء يقفز عبر الحقل حتى وصل إلي وامسك بلجــام لاتيننغ واتجه به الى الوراء ، فسألته : « ماذا حدث؟ هل سيعتبرون هذا الشوط سليما ؟ فزنا ، أليس كذلك ؟ قطعنــا الشريط ، أليس كذلك ؟ هم استداروا حوله . خذ لاتيننغ . سأعود لأتحقق من الأمر » . فقال : « كلا ، السيد مــاك كاسلن لا يريدك ان تذهب انت ايضاً . فقد قال لي ان نبقى هنا ، انا وانت ، مع لاتيننغ، وان نهيئه للشوط التالي بعد اقل من نصف ساعة . وعلينا ان نربح هذه المرة . لان الشوط السابق قد يُلغى ، فعلينا ان نربح الشوط التالي مهما حدث » .

وهكذا تابعنا السير . ورفع ليكورغوس حاجزاً في نهاية الحلبة وذهبنا باتجاه الشجيرات مسافة مئتي ياردة تقريبــاً . كان حصان العم بارشم مربوطاً الى احدى الشجيرات .وظلت الاصوات تبلغني من منصة التحكيم . وكانت الرغبة في العودة للاستفهام ما تزال تساورني . لكن ليكورغوس كان قـــد احتاط لذلك اذ احضر الماسح والاسفنج والمناشف ، وحتى دلو الماء ، لكي نعري لايتننغ ونبدأ بتدليكه .

ثم انني حصلت على المعلومات الاولى عما حصل (ومــا يزال يحصل) عندما اخبرني ليكورغوس بالقليل الذي استطاع ان يراه قبل ان يرسله ند لملاقاتي ، وعندما اخبرني الآخرون

ايضاً فيما بعد . وهو أن الفوضى قد سادت ، اذ علا الصياح والاحتجاج والتأكيد واوشك المتجادلون على التضارب. وكان ند في وسطهم ، وقد بدا مهذباً هادئاً ، لكن صلباً عنيداً يرد كل هجوم . وقال احدهم : « لم يكن ذلك سباقاً . فالسباق يتطلب حصانين على الاقل . ولم يكن الا حصان واحد في الحلبة . » فأجاب ند : « كلا يا سيدي . كتاب القوانين لا يذكر عدد الأحصنة . انه يتكلم عن كل حصان بمفرده . فإذا لم يرتكب الحصان أخطاء ، ولم يقع الفارس ، وقطع خيط النهاية اولاً اعتبر فائزاً . » وقال آخر : « هكذا برهنت ، انت نفسك، على ان الاسود قد فاز : لأنه لم يخطىء إلا بابتعاده مسافة عشرين قدماً عن الحاجز . وهو لم يوقف سير السباق ، وقد رأيته يعبر خط الوصول قبل كوبرمين بطولين . » فأجاب ند : « كلا ، يا سيدي . خيط النهاية يمتد فقط من طرف الحلبة الى طرفها الآخر . انه لا يمتد الى نهر الميسيسيبي . فلو كانت المسألة كذلك ، لكانت هناك احصنة اخرى حول النهر تعبر خط الوصول منذ ان اشرقت شمس هذا الصباح . احصنة لم تسمع بها بعد . كلا ، يا سيدي. من المؤسف ان يقع حادث بسبب تلك الحواجز الضعيفة . لكننا كنا منشغلين بقيادة حصاننا مما لم يتح لنا الوقت الكافي لنتوقف وننتظر عودة الحصان الاخر . »

آنذاك ظهر ثلاثة اشخاص جدد فجأة ، أو على الأقل

تدخلوا في الحديث . لم يكونوا كلهم غرباء ،لأن واحداً منهم كان الكولونيل لنسكومب بنفسه وقد عرفه الجميع . وربما كان الآخران ضيفين عنده جاءا من المدينة . كانا بعمره ، يلبسان معاطف ويضعان ربطات عنق . وتقدم احدهما وتولى الحديث ، فقال :

« أيها السادة ، دعوني اتقدم بحل . هذا الرجل(يعني ند) صدق حين قال ان حصانه كان يركض ، وفقاً للقوانين ، وقطع شريط النهاية قبل سواه . لكننا جميعاً رأينا الحصان الآخر يركض بسرعة تفوق سرعة رفيقه ، ورأيناه في الطليعة عند انتهاء السباق . ان مالكي الحصانين هما السيدان الواقفان خلفي . الكولونيل انسكومب جاركم ، والسيد فان طوش من ممفيس ، وهو قريب منكم الى درجة تجعل منه جاراً لكم ، لو ازددتم معرفة به . لقد اتفقا ، وسيوافق حككم ، على اعتبار هذا الشوط معلقاً . وكون الشوط معلقاً لا يعني أنه ملغى . لم يخسر أحد ولم يربح احد . ان الشوط الاخير سيقرر ذلك ، كما ان كلا من مالكي الحصانين ما زالا يضيفان خمسين دولاراً عن الشوط التالي.من يفز في هذا الشوط يربح الشوطين السابقين . ما قولكم ؟ »

هذا ما عرفناه ، انا وليكورغوس ، فيما بعد . لكننا لم نعرف شيئاً آنذاك : بقينا ننتظر ند او اي شخص آخر ليأتي الينا او يرسل في طلبنا . وكان لاتيننغ قد نظف ولف

بالحرامات وليكورغوس يقوده صعوداً وهبوطـاً ليبقيه في حركة ، وأنا اجلس مستنداً الى جذع شجرة وقـد نزعت جورب الركوب لأجفف الضماد . وبـدا لنا الوقت دهراً ونحن ننتظر . ولكن حين اطل نـد ، في اللحظة التالية ، كان الوقت قد انعدم او تكشف . ثم جاء ند مسرعـاً . اخبرتك كيف كان مظهره ذلك الصباح . كان ذلك بسبب ثيابه . هذه المرة لم تكن المسألة مسألة ثيابه ، وان كانت ما تزال متسخة ، بل كانت مسألة وجهه . فلم يكن في ملامحه ما يدل على أنه ينعم بأية سكينة . كان كمن يواجه النهاية ، إلا ان تلك النهاية كانت تقول له : « اهدأ . امـامك ثلاثون او أربعون دقيقة قبل ان استدعيك . آنذاك يجب ان تكون مستعداً . ولكن ، حتى ذلك الحين ، توقف عن القلق واهتم بعملك » .

وذهب الى العربة فوراً وتناول معطفه الأسود ولبسه وهو يقول :

« حلوا المشكلة فان اعتبروا الشوط معلقاً ، هذا يعني ان من يخسر هذا الشوط يخسر كل شيء . استعدوا ! »

وكان ليكورغوس قد انتزع الحرام عن الحصان ولم يستغرق ذلك اي وقت . وكنت قد نهضت وتهيأت . ووقف ند قرب رأس لاتيننغ ممسكاً بالسرج ، ويده الأخرى تعبث بشيء ما في جيب المعطف. وقال لي :

« سيكون هذا الشوط هيناً عليك . حرضناه امس قليلا وخدعته انت اليوم ، وعليك الا تخدعه مرة ثانية . لكن لا يهم . لسنا بحاجة الى خداعه الآن . سأهتم بذلك بنفسي . كل ما عليك ان تعمله هو ان تبقى على ظهره حتى النهاية . لا تسقط : هذا كل ما هو مطلوب منك . ابقه بين حاجزي الحلبة ولا تسقط عن ظهره . تذكر ما علمك اياه يوم الأثنين. قبل ان يبلغ المنعطف الأول ، وقبل ان يخطر بباله اين كنت اقف يوم الاثنين ، إضربه . إجعله يواصل الركض . لا تهتم بالحصان الآخر ، مهما كان يفعل وأينما كان . اهتم بحصانك فقط . هل هذا مفهوم ؟»

« نعم ».

« حسناً . إذن هاك الشيء الآخر الوحيد الذي عليك ان تفعله . حينما تصل الى المنعطف الاخير ، عند المرحلة الاخيرة، إستدرْ نحو الشريط . لا تظن ، بل تأكد أن لايلييننغ موجود في مركز يمكنه من رؤية الحلبة أمامه . عندما تبلغ تلك المرحلة ستعرف السبب . لكن لا تفكر في ذلك قبل اوانه . تأكد انه يقدر ان يرى الحلبة حتى شريط النهاية وما وراءه. واذا كان الحصان الآخر امامك ، ادفع لايلييننغ الى الجانب الآخر من الحلبة نحو الجهة الخارجية بحيث يتمكن من رؤية الحلبة ومكان الشريط وعبر الشريط ، وتتأكد انت ان لا شيء يعيقه عن الركض . لا تأبه للمسافة التي ستخسرها

بسبب ذلك ، تأكد فقط من أنه يرى كل شيء أمامه ، .

كان قد اخرج يده الثانية من جيبه ، وأخذ لايلينغ يحك أنفه بها المرة بعد المرة . وشممت تلك الرائحة الضعيفة التي عرفتها في مرعى العم بارشم يوم الاثنين . تلك الرائحة التي استطيع ان اميزها ، انا او اي شخص آخر ، والتي كنت سأعرفها لو كان لدي وقت كاف للتفكير . ثم قال ند :

« هل تستطيع أن تتذكر ذلك ؟» قلت: نعم .

« اذن هيا . قده يا ليكورغوس ».

وشد ليكورغوس على اللجام كي يرفع رأس الحصان عن يد ند نحو الحلبة .وحاول الحصان ان يفلت ويعود الى الوراء، لكن ليكورغوس جذبه ، وقال لي « اضربه قليلاً . دعه يعد الى التفكير في ما يفعله » .فضربته ومضينا .

وهكذا وقفنا للمرة الثالثة وراء الشريط انا وماك ويلي . واذ رفض حصان ماك ويلي الوقوف في مكانه بانتظار الاشارة، فقد مدوا قطعة من الجنفيص محشوة بالقطن من طرف الحلبة الى طرفها الاخر . كانت تلك افضل انطلاقة لنا . فعندما علت صيحة الحكم : انطلق ، وارتمى الخيط ، قفز ايكرون وماك ويلي وانطلقا امامنا كالسهم . وصرخ ماك ويلي في اذني وهو يتخطانا :

« سأريك هذه المرة أيها الصبي الابيض ! » .

لكنه لم يبتعد مسافة تذكر حتى لحق بـه لاتينغ وصار

عند مستوى ركبتيه . كان لاتيننغ يتمتع بكل شيء ، بالقوة والانضباط وكل شيء. الا ان احداً لم يُدخل في عقله ان ذلك كان سباقاً . الحقيقة انني اصبحت للمرة الاولى ، عـــاملا من عوامل السباق . وكأنما الحصانان قد شدا الى بعضهما منطلقين كالصاعقة، يتأرجحان الواحد بعد الآخر او يتلاحمان ويتمايلان جنباً الى جنب . وهكذا ظل مركزنا بالنسبة للحصان الآخر يتغير بانسجام وسهولة كالحلم ، طيلة الشوط الأول . فكان كلما تقدمنا ايكرون وبدا أنه يبتعد عنا فعلاً ، لاحظ لاتيننغ المسافة التي نشأت بين الاثنين فيسرع ويجتازهـــا . كان ذلك مثل التحدي . وكنت استطيع ان اسمع جلبتهماطوال الحلبة. من لا يعرف لاتيننغ الآن ؟ كل ما هنالك انه لم يكن يرغب في البقاء وحده متخلفاً. وفي دورة العودة ، بلغ لاتيننغ المنعطف الاول وهو يفتش بعينيه عن ند . وصهل وهو ينطلق في عدوه المميت . وللمرة الاولى اسمع ان حصاناً يصهل وهو يسابق . لم اكن اتصور ان حصاناً ما يقدر على ذلك .

وضربته بمنتهى القسوة ، فانفلت ، وتأرجح ، وقفز مرة اخرى . وكنا قد تكرمنا على ماك ويلي بمسافة قامتين أمامنا وهكذا اجتزنا المسافة مرة ثانية ، وعندمـــا بلغنا المنعطف الثاني كنا متخلفين فأسرعنا ولحقنا مرة أخرى ، وأصبح رأسه بمحاذاة ركبة ماك ويلي . ثم اخذ يركض بمنتهى الطواعية . هذه الالة الرائعة التركيب التي لم تؤثر عضلاتهـا بعقل ما ، او

التي لم يبلغ عقلها مـــا تجمع في مراكز الملاحظة والخبرة ، لم يعرف عقلها، لذلك، ان الهدف الوحيد من هذا الجهد الجنوني هو الوصول الى مكان ما قبل الاخرين . كان ماكويلي يضرب حصانه بالسوط . اما انا فلم احتج الى مثل ذلك لقد كان عاجزاً عن ان يتقدم لاتيننغ او يتخلف عنه. وبلغنا المنعطف الاخير من دورة العودة ، وانا ما ازال فوق لاتيننغ، ولاتيننغ ما يزال في الحلبة. وهكذا لم يبق الا تنفيذ تعليمات ندالاخيرة فأطلقت له العنان واندفعنا ، مانحين ماك ويلي مسافة قصيرة. فصار لاتيننغ في وضع يمكنه من رؤيـة الحلبة وخط الوصول وما وراءه . ورأى لاتيننغ ند قبلي ، ولم اعرف ذلـــك الا حين مد عنقه وجمح بجسمه، وكأنه قد انفلت من عقالنير او قيد . اذ ذاك رأيت ند على بعد اربعين ياردة تقريباً من خط الوصول . وبدا لي ضئيلاً وتافهاً ووحيداً في فراغ الحلبة، بينما كانت يد ماك ويلي التي تسرع في الحض والحركة ، تبتعد عنا الى الوراء ، يتبعها وجه ماك ويلي المحتقن ، ويغيب عنا ، ثم الشريط وهو ينخطف فوق رأسي . وقال ند :

« تعال يا بني ، اعددتها لك . »

كاد لايتننغ يرميني عن ظهره وهو يتوقف فجـأة ويتجه نحو ند في نفس الانطلاقة السريعة . وعندما بلغه ، توقف عن الحركة ودفن رأسه بين يدي ند وأنا حول أذنيه امسك بكل ما تصل اليه يداي حتى يدي المجروحة . وصحت : « فزنا !

فزنا ! سبقناه ! » وقال ند : « حققنا هذا القسم من الفوز . انما بقي اعتبار هذا كافياً . »

كانت هذه هي المرة الاولى التي اشتركت فيهـــا بسباق حقيقي وفزت . اعني بسباق على مستوى الرجال ، والناس يراقبونني افوز . وقـــد راهنوا على انني سأفوز (او راهن بعضهم على الاقل) . ولم يكن لدي الوقت الـكافي آنذاك ، لألاحظ التغيير الذي اعترى وجهه وصوته ، او حتى ما كان يقوله لي . لأن الناس كانوا قد بلغوا الحلبة واجتازوا الحواجز مندفعين نحونا . كانوا حشداً صاخباً من القبعات التي يرشح منها العرق ، والقمصان التي بلا ربطات عنق ، والوجوه التي مـــا زال يعتصرها الصراخ . وقال لي ند : انتبه الان . لكنني لم اكن ارى غير الوجوه والاصوات تموج كالبحر :

« هكذا يكون السباق يا صبي ! هذا ما يسمى نصراً » . لكننا لم نتوقف . فكان ند يقود لايلينننغ وهو يقول :«دعونا نمر ايها الاصدقاء البيض ، دعونا نمر ايها الاصدقاء البيض » . فأفسحوا لنا المجال ومررنا ، لكنهم كانوا ما يزالون يتبعوننا كالموج ، حتى بلغنا البوابة حيث كان الحكم بانتظارنا . وقال ند ثانية : انتبه الان . ولا اذكر الان غير الحصان الهادىء ، وند يقف أمامه كاللوحة ، وجدي وهو ينحني فوق عكازه (ذات الرأس الذهبية) ووراءه شخصان كنت قد عرفتها منذ مدة طويلة . وصحت : « الرئيس ! » وقال جـــدي :

« ماذا فعلت بيدك ؟» فأجبت :

« نعم ، يا سيدي الرئيس ! »

« انت منشغل الان ، وكذلك انا » . قال ذلك بلطف وهدوء . لا ، ليس صحيحاً . والصحيح انه قال : «سننتظر حتى تصل الى البيت » . ثم ذهب . كان الشخصان اللذان رأيتهما وراءه • سام وميني . وكانت ميني تنظر الي بوجهها الهادىء الحزين . وبدا لي أن ند كان يربت على ساقي منـذ مدة دون ان انتبه . وقال : « اين كيس التبغ الذي اعطيتك اياه البارحة لتحفظه ؟ ألم تضعه» ؟ فأجبت: «اوه ،صحيح». وانا أمد يدي الى جيبي .

الفصل الثالث عشر

قالت الانسة ريبا لميني : « أرهم » كانوا في سيارتنـــا – اعني سيارة بون – كلا ، سيارة جـــدي : وهم افربي والانسة ريبا وميني وسام وسائق الكولونيل لنسكومب ، وهو ابو ماك ويلي . كان الكولونيل لنسكومب ايضاً يملك سيارة ، وكان السائق وسام وميني قد ذهبوا الى هاردويك ليأتوا بالانسة ريبا وافربي وبون الى بارشم ، حيث يستقل سام والانسة ريبا وميني القطار الى ممفيس . لكن بون لم يأت معهم . وظل في السجن للمرة الثالثة . فتوقفوا عند بيت الكولونيل لنسكومب لاخبار جدي . وروت الانسة ريبا الحادثة وهي جالسة في السيارة بينما وقفنا ، أنا وجـــدي والكولونيل، حولها، لانها رفضت الدخول . كانت تروي ما جرى بين بون وبطش ، فقالت :

« عندما وصلنا الى هاردويك ، كان لديهم قدر كاف

من الادراك كي يسجنوا كل منهما في زنزانة منفردة . المشكلة هي انهم لم يجدوا وسيلة يقفلون بهـــا فم صديق كوري الجديد ... » وتوقفت . لم اكن بحاجة الى النظر الى افربي . كانت صبية ضخمة ، اضخم من ان تحصل لهـــا اشياء كهذه الكومة عند عينها وهذا الجرح في فمها . وكانت تجلس هناك بهدوء وليس لديها ما تفعله ، ولا مكان تذهب اليه . وكان الدم يبقع خدها . وقالت الآنسة ريبا :

« آسفة ايها الصغير ، إنس ذلك . اين كنت ؟ » فأجاب جدي :

« كنت تخبريننا عما فعل بون هذه المرة » .

« أوه ، نعم . سجنوهما في زنزانات منفصلة على جـانبي الممر . وقد عاملونا انا وكوري بلطف . عاملونا كسيدات . أخذونا من هناك الى غرفة زوجة السجان ، الى ان ظهر بطش فجأة وقال :

« حسناً ، هناك شيء واحد . انا وهذا الصبي الحلو خسرنا بعض الدم والجلد وزوجاً من القمصان ، لكننا على الاقـــل ابعدنا عاهرات ممفيس عن الطريق . » فبدأ بون يخلـع الباب الفولاذي . لكنهم كانوا قد تذكروا ان يقفلوه . ثم جاء سام بالاوراق القانونية . ثم قالت لجدي : « أشكرك كثيراً . لا اعرف كم دفعت عني . ولكنك اذا أرسلت لي الفاتورة حـين أصل الى البيت ، فسأسدد الحساب . ان بون يعرف عنواني ويعرفني . » فقال جدي :

« شكراً . اذا كان هناك حساب ما فسأخبرك . ما الذي حدث لبون ؟ لم تخبريني بعد ؟ »

« أوه ، صحيح . اطلقوا سراح بطش بالغلط . ما كادوا يخرجون المفتاح من قفل بون حتى صار خارج الزنزانة . ولكن بون عاجله بضربة واحدة ألقته أرضاً ، ثم ارتمى عليه قبل ان ينتبه أحد . ولهذا السبب احتفظوا ببون ولم يطلقوا سراحه . » ثم صاحت : « لنتحرك . علينا ان نلحق بالقطار . لا تنس أن ترسل لي الفاتورة . » فقال الكولونيل لنسكومب :

« لا ، انزلوا في ضيافتي . العشاء جاهز . يمكنكم ان تلحقوا بقطار منتصف الليل . » فأجابت الآنسة ريبا :

« كلا ، اشكرك . مهما طال غياب زوجتك في مونتفيل فلا بد ان تعود ، وستضطر لإيضاح ذلك . »

« سخافة . انا السيد في بيتي » .

« آمل ان تظل كذلك . اوه ، صحيح . أرهم يا ميني ! »

فابتسمت ميني . لكنها لم تبتسم لهم ، بل ابتسمت لي . كانت ابتسامتها جميلة ، اذ عادت السن الذهبية تتلألأ وسط صف الاسنان الابيض المنسق . ثم اطبقت شفتيها برصانة . وكبرياء . وقالت الآنسة ريبا :

« حسناً . » فأدار أبو ماك ويلي المحرك واندفع الى الوراء فتحركت السيارة . وكان جدي والكولونيل لنسكوب قد

استدارا عائدين نحو البيت . وكنت قد ابتدأت استدير انـا ايضاً عندما علا بوق السيارة ، فرجعت . كان سام يقف الى جانب الانسة ريبا ويشير إليّ قائلا :

« تعال . الانسة ريبا تريد ان تراك لحظة . لم تخبرني ان هذا الحصان سيدخل السباق ؟ » فأجبت :

« ظننتك عرفت . ألم تعرف اننا جئنا الى هنـــا لهذا السبب ؟ »

« طبعاً ، طبعاً . ند أخبرني . الجميـع اخبروني . انمــا لماذا لم يحاول احد ان يقنعني ؟ لو كانت لي شجاعة الآنسة ريبا لكنت غطيت تلك العربة. خذ . » ومد يده نحوي بحزمـة كبيرة من الاوراق النقدية وقال : « هذه لند . قل له انـه حين يجد حصاناً لا يركض ، فلا ينتظر حتى يجيء ويأخذني ، بل ليبرق لي . »

كانت الآنسة ريبا تميل الى الخارج ، صلبة وجميلة . وكان بجانبها ، وهي من الضخامة بحيث لا يمكن ان يتجاهلها أحد. وقالت الآنسة ريبا : « لم اكن اتوقع ان ازج في السجن هنا. لكنني ايضاً لم استبعد ذلك . على اية حال ، فقد راهن سام عني : راهنت بخمسين للسيد بنفورد وبخمسة لميني . أريـــد – اعني نريد – ان نقسم الربح مناصفة ... » فقلت : « لا اريد حصتي . » فقالت : « توقعت أن تقول هـــذا القول . لذلك جعلت سام يضع خمسة اخرى لحسابك .خذها . »

« لا اريدها . » فقال سام :

« ماذا قلت لك ؟ » وقالت الآنسة ريبا :

« ألِلأنها أموال قمار ؟ هل وعدت بهذا أيضاً ؟ » ولم اكن قد وعدت اذ ربما لان المقامرة لم تخطر ببال أمي . لكنني لم اكن بحاجة الى ان اعد احداً بذلك ، ولم اعرف كيف اوضح لها ما كان واضحاً لي . وهو اني لم أقم بالسباق من اجل المال : كان المال آخر ما يمكن ان افكر فيه . لقد بدأنا شيئاً وكان عليّ ان أتابع ، انا وند ، حتى لو انسحب الجميع . لكنني لم أعرف كيف اوضح لها فقلت : « كلا ، لا أريـــده . » فقال سام : « هيا . خذه كي نذهب. يجب ان نلحق بالقطار . أعطه لند أو لذلك العجوز الذي اهتم بك . فهما يعرفان مـا يفعلان به . » فأخذت المبلـــغ ، فصارت معي حزمتان : حزمة كبيرة ، وهذه الحزمة الصغيرة . وكانت افربي ما تزال ساكنة لا تتحرك ، ويداها في حضنها . وقال لي سام :«ربت على رأسها ، على الاقل . » فقالت الآنسة ريبا : « لن يفعل ذلك ايضاً . انظر اليه . ويحكم انتم ، انتم الرجال ، حتى ولو كان واحدكم لم يتجاوز الحادية عشرة ! ألم تثبت منـــذ يوم الأحد انها تابت ؟ اذا كنت تعمل في نشر الاخشاب مـــدة طويلة كالتي أمضتها في مهنتها ، ثم كففت عن عملك يوماً، هل يضيرك أن تقطع خشبة أخرى ، حتى وان كنت قد تركت العمل وانزلت اللافتة ؟ »

على انني درت حول السيارة وذهبت الى الناحية الاخرى. لكنها لم تتحرك . كانت كبيرة ، أكبر من ان تحركها الاشياء

الصغيرة ، كبيرة في انغلاقها على نفسها كي تتفتح لاستقبال الاشياء التافهة كطائر يرتطم بلوحة أو على وجه طبل نحاسي . كانت تجلس هناك خجلة ، لكنها أكبر من أن يقلصها الخجل . وقلت لها :

« لا بأس . لا يهم » . فقالت :

« كان علي ان اتخذ تلك المهنة . لم أعرف مهنة أخرى » .

فقالت الآنسة ريبا : « أرأيت ما أهون ذلك ؟ هذا كل ما عليك أن تقوليه لنا . وسنصدقك .ليس بينكم انتم الرجال -شرط أن يكون دون السبعين- لا يقدر أن يحمل أية امرأة تعتقد بأنه لم يكن أمامها الا تلك المهنة » .

فقلت : « اضطررتِ الى ذلك . لقد استعدنا لايتيننغ في الوقت المناسب كي يدخل السباق ، ولكن هذا لم يعد مهما . الأفضل أن تتحركوا كي لا يفوتكم القطار » . فقالت الانسة ريبا :

« طبعاً . ثم ان عليها أن تعد طعام العشاء. فأنت لم تسمع بعد . هذه مفاجأة لك . لن تعود معنا الى ممفيس . إنها لم تشفَ من إغراء تلك المهنة وحسب ، بل شفيت من التجربة إطلاقاً . شرط أن يكون ما يقولونه عن بارشم صحيحاً : يقال انه ليس فيها من الاغراء غير قابليات الرجل الطبيعية . لقد حصلت على عمل في بارشم . ستغسل وتطبخ لزوجة ذلك المفوض وترفعها من الفراش وتعيدها اليه . وتخلصت لذلك من

اقتسام أرباحها مع أول رجل يحمـــل شارة الشرطة ».
ثم قالت لسام : « هيا ، لنذهب . لا يمكنك أن تجعل القطار ينتظرنا وانت هنا » .

وذهبوا ، فاستدرت ومشيت نحو البيت . كان بيتاً كبيراً بأعمدة ومداخل وحدائق واسطبـــلات (وكان لايتيننغ في أحدها) وحظائر للعربات ، وما كان يستعمـــل لسكنى العبيد – ومنها بيت بارشم القديم ، أو ما تبقى من مزرعة الرجل أو العائلة التي اعطت اسمها للبلدة وجوارها ، ولبعض الناس ، كالعم بارشم هود . كانت الشمس قد غابت ، وسرعان ما سيتبعها النهار . حينئذ أدركت للمرة الأولى ان كل شيء قد انتهى ، اعني ايام الهرج والتطاحن والاحتيال والكذب ، ولم يبـــق غير الدفع . كان جـــدي والكولونيل لنسكومب والسيد فان طوش في مكان ما من البيت ، ولا بد أنهم كانوا يتناولون الان مشروب ما قبل العشاء . لذلك اتجهت جانباً وعبرت الحديقة ومنها الى مؤخرة البيت . وهناك كان ند يجلس على الدرجات الخلفية . فقلت له ، وانا أمـد يدي بحزمة النقود الكبيرة : «خذ . قال سام ان هذه لك». فأخذها . وقلت : « ألن تعدها ؟» فقال « أظنه عدهـا ». ثم أخرجت الحزمة الصغيرة من جيبي ، فنظر اليهـــا وسألني :

« هل أعطاك هذه أيضاً ؟ »

« كلا ، الانسة ريبا اعطتني اياها . لقد راهنت لحسابي».

« هذا مال مقامرة . أنت اصغر من ان تأخذ مال المقامرة . الحقيقة انه ما من شخص عمّر الى درجة تسمح له باخذ مثل هذه الاعمال . اما انت فما تزال صغيراً جداً . »

ولم استطع ان اعرب له ، هو أيضاً ، عن مشاعري . ولكنه قال :

« انت تعرف اننا لم نفعل ذلك من اجل المال . »

فقلت :

« وانت ، الا تنوي الاحتفاظ بحزمتك ؟ »

« بلى. فات الوقت بالنسبة لي . ولكنه لم يفت بالنسبة لك . سأتيح لك فرصة . وقد لا تكون سوى حرمانك فرصة من نوع آخر . »

« قال سام انني اقدر ان اعطيها للعم بارشم . ولكنه هو ايضاً لا يأخذ اموال مقامرة . »

« هل هذا ما تنوي ان تفعله بها ؟ »

« نعم . »

فقال : حسناً ، وأخذ الحزمة الصغيرة ، واخرج محفظته ثم وضع الصرتين في داخلها . كان الظلام يوشك أن يشتد. لكنني سمعت جرس العشاء . وسألته :

« كيف استرجعت السن ؟»

« لم استرجعه انا ، بل ليكورغوس ، عندما ذهبت ذلك الصباح الى الفندق لاحضارك . ولم يكن ذلك صعباً . وبما ان لايتيننغ كان سيدخل السباق بعد الظهر ويحتاج الى

الراحة ، قرر الاستعانة بالبغل ، وقد اخبرني كيف أشهر عليه المسخ سكين جيب صغيرة ، ولكن ليكورغوس عرف كيف يتدبر ذلك » .

« وبعد ذلك ؟ كيف نجح ؟»

« اخبرتك . بواسطة البغل !»

« كيف ؟ »

«وضع ليكورغوس المسخ على البغل ، دون سرج او لجام ، وربط قدميه بعضهما ببعض ، من تحت، وافهمه انه متى قرر ان يضع السن في القبعة ويرميها فسيوقف البغـــل . وضرب ليكورغوس البغل ضربة خفيفة . وحوالي منتصف الدورة الاولى ألقى المسخ القبعة ، فلم يجد فيها شيئاً . لذلك اعاد له القبعة وضرب البغل ضربة ثانية . ويقول ليكورغوس انـــه نسي ان هذا البغل يقفز فوق السياجات ، الى ان رآه يقفز سياجاً يرتفع أربعة اقدام . وهكذا رمى المسخ القبعة للمرة الثانية وكانت السن فيها. انما كان يجب ان يحتفظ بها لمصلحتي. لقد ذهبت هي ايضاً الى ممفيس ، أليس كذلك ؟ »

« نعم . »

« هذا ما توقعته . ربما كانت تعرف كما أعرف ، ان وقتاً طويلاً سيمر قبل ان تراني ممفيس ، أو ترى بون هوجانبك ثانية . واذا عاد بون إلى السجن ثانية ، لا اتصور أن ممفيس ستراها هذه الليلة أيضاً . »

أما أنا فلم اكن اعرف . وفجأة ادركت انني لا اريد ان

اعرف . لم اكن عازفاً عن اتخاذ القرارات او الاختيار وحسب ، بل لم اكن اريد معرفة ما قرره الاخرون بشأني ، قبل ان اضطر الى مواجهة النتائج . ثم جاء والد ماك ويلي يلبس معطفاً ابيض . ولم اكن قد سمعت الجرس . وكنت قد غسلت (وبدلت ملابسي لأن جدي احضر لي حقيبة ، وحذائي الاخر ايضاً) ، فقادني الخادم الى غرفة الطعام . هناك كان جدي والسيد فان طوش والكولونيل لنسكومب والعجوز البدين لويلن بين يديه . ووقفنا جميعاً ، فتلا الكولونيل صلاة الشكر وجلسنا . ولم يكن ابو ماك ويلي الوحيد الذي يخدمنا على المائدة ، بل كانت هناك أيضاً خادمة بملابس الخدمة تبدل الصحون . وكنت قد توقفت عن الاختيار واتخاذ القرارات . فكدت انام في صحني ، في الحلوى ، عندما قال جدي :

« حسناً ايها السادة ، هل نبدأ ؟» فأجاب الكولونيل : « سنذهب الى المكتب » .

كان المكتب افضل غرفة رأيتها . وتمنيت لو ان لجدي مكتباً مثله . فالكولونيل لنسكومب كان محامياً ايضاً . لذلك كانت هناك اكداس من كتب القانون . وكانت هناك ايضاً كتب زراعية ، وواجهة زجاجية فيها ادوات صيد سمك وبنادق . وكان في الغرفة كراس واريكة ، وسجادة خاصة للجلوس قرب المدفأة ، وعلى الجدران صور أحصنة وفرسان سباق مع اكاليل الورود والتواريخ التي تفوقوا

فيها . وكان هنالك ايضاً طاولة خاصة بكتاب المراجع الضخم ، وطاولة اخرى عليها علبة مليئة بالسيكار ، وابريق ماء ووعاء للسكر . كما كانت هناك نافذة على الطراز الفرنسي تنفتح على شرفة فوق حديقة الورود ، حتى انك كنت تستطيع ان تشم رائحة الورود وانت داخل البيت .

وجاء رئيس الخدم مع ند ، ووضع له كرسياً في الزاوية. وجلسنا جميعاً . كان الكولونيل لنسكومب يرتدي بزة بيضاء ،والسيد فان طوش في ثياب اهل شيكاغو (وقد جاء منها لزيارة ممفيس فاعجب بها واشترى مكاناً لتربية الخيل وتدريبها ، وشغل في هذا العمل بوبو بوشامب منذ ست سنوات). وكان جدي يرتدي بزته الرمادية ذات الذيل التي ورثها (اعني انه لم يرث البزة بل اللون الرمادي الخاص باهل الجنوب ، ذلك لانه لم يكن جندياً آنذاك ، اذ كان في الرابعة عشرة من عمره ، وكان عليه أن يلازم امه ، بصفة الابن الوحيد . وبقي جدي مع أمه حتى ماتت عام ١٨٦٤ . وعندما تمكن الجنرال شيرمان من احتلال كارولينا ، جاء ميسيسبي للتفتيش عن قريب له يدعى ماك كاسلن ، وكان اسمه في المعمودية مثل اسم ذلك القريب ، اعني لوشيوس كوينتوس كاروثرز . ثم التقى بابنة حفيدة ذلك القريب ، اعني سارة ادموندس ، فتزوجها عام ١٨٦٩) .

وهنا قال جدي لند : « ابدأ من البداية . » فقال الكولونيل : « انتظر ! » وصب بعض الوسكي في كأس ند .

لكن ند شكره بلطف ووضع الكأس على المدفأة قربه ،
وجلس دون ان ينظر الى جدي . فقال الكولونيل :
« اشربها ، فقد تحتاج اليها . »
وأخذ ند الكأس وابتلع ما فيها دفعة واحدة . ثم جلس
يمسك بالكأس الفارغة . فقال جدي ثانية :
« ابدأ الآن . » فقال السيد ڤان طوش :
« انتظر . كيف جعلت الحصان يركض ؟ » فالتفت ند
نحو جدي للمرة الاولى وقال له :
« هل يسمح لنا هؤلاء السادة بالتحدث على انفراد ؟ »
فسأله جدي :
« عن ماذا تريد ان تتحدث ؟»
« عن الحصان ، واذا شئت ان تخبرهم انت ، بعدئذ ،
فلك ذلك » . فقال جدي للحاضرين :
« هل تأذنون لنا بالانفراد ؟» ومشى باتجاه الشرفة .
فنهضت انا ايضاً ، فسأل جدي مشيراً الي :
« ما شأن لوشيوس ؟» فأجاب ند :
« اشترك في السباق ، وله الحق في معرفة ذلك . »
وخرجنا الى الشرفة المظلمة ، حيث تعبق روائح الورود.
وتناهى الينا نباح كلب بعيد . وقال ند بهدوء :
« اطعمته سردين » . فقال جدي :
« لا تكذب عليّ . الجياد لا تأكل السردين » .
« لكن هذا الحصان يأكل .اخذته انا ولوشيوس وجربنا

ذلك . لكنني لم اكن بحاجة الى ان اجربه . فمنذ وقعت عيني عليه عرفت ان لديه الحاسة نفسها التي كانت لذلك البغل . »

« آه ، اذن هذا ما كنتما تفعلانه لذلك البغل أنت وموري . »

« كلا ، يا سيدي . لم يكن موري يعرف ذلك . لم يعرفه احد غيري وغير البغل . هذا الحصان مثله . عندما ركض المرحلة الاخيرة ، عصر اليوم ، كنت انتظره حاملاً السردين ،وكان يعرف ذلك. »

ودخلنا المكتب ثانية ، وهم ينظرون الينا . وقال جدي:
« نعم ، لكنه سر من اسرار العائلة . لن اكتمه اذا اقتضى الامر . اتسمحون لي بأن اكون الحكم ؟ بالطبع ، الكلمة الاولى للسيد ڤان طوش . » فقال ڤان طوش :

«في هذه الحال ، إما أن أشتري ند او ابيعك كوبرمين . لكن ألا يجدر بنا الانتظار حتى يحضر رجلك هوجانبك ؟» فأجاب جدي :

« انت لا تعرف هوجانبك . لقد قاد سيارتي الى ممفيس . وعندما أخرجه من السجن غداً سيقودها الى جفرسون . وبين هاتين النقطتين لن يفتقده أحد » .

ولم يأمر جدي ند ، هذه المرة ، بان يتكلم ، ولكن ند قال :

« تورط بوبو مع رجل أبيض ... »

وهذه المرة كان السيد فان طوش هو الذي قال : « أه . »
وهكذا بدأنا نعرف الحكاية : من ند والسيد فان طوش معاً. فالسيد فان طوش كان غريباً ، فلم يعش في منطقتنا مدة كافية ليدرك وضع زنجي شاب عاش طوال حياته في الريف ولم يبتعد عن بيته يوماً ، فيهرب الى مدينة كبيرة سعياً وراء المال والتسلية . ربما كانت المقامرة ، أو ربما بدأ بالمقامرة ؛ فهذه أبسط نقطة يبدأون منها . ويبدو أن ند نفسه لم يكن يعرف المشكلة تماماً – هذا ان لم يكن يعرفها بتفاصيلها . ومهما تكن فقد كانت في عالم البيض . وعلى ما أخبرنا ند ، كانت المشكلة قد تأزمت وارتفع محور المشكلة إلى مئة وثمانية وعشرين دولاراً ، وقد أدخل الرجل الأبيض في رأس بوبو أنه إذا اكتشف ذلك رجال القانون كان أقل ما يلاقيه هو الطرد من عند السيد فان طوش ؛ الحقيقة أنه جعل بوبو يعتقد بأن متاعبه الحقيقية تبدأ حين يتخلى كل رجل عن مساندته . وهكذا إلى أن تأزمت الحالة ، وتملكه اليأس ، واشتدت وطأة تهديد الرجل الأبيض . وذهب بوبو الى السيد فان طوش وطلب منه مئة وثمانية وعشرين دولاراً . وجاء الجواب كما كان يتوقعه من رجل لم يكن أبيض وغريباً وحسب ، بل كان أيضاً رجلاً مستقراً ، تجاوز العمر الذي يمكن أن يتذكر فيه أهواء الشباب ومتاعبه . كان الجواب كلا . كان ذلك في الخريف الماضي ... » فقاطعه السيد فان طوش قائلاً :

« أذكر ذلك . لقد أمرت الرجل بألا يعود إلى مزرعتي ثانية . وحسبت انه قد ذهب . »

أرأيت ما أعني ؟ كان السيد فان طوش رجلاً طيباً ، لكنه كان أجنبياً . لذلك حين فقد بوبو أمله الأخير ، الذي لم يكن شديد الاطمئنان إليه ، « دبر » – على حد تعبير ند – خمسة عشر دولاراً وأعطاهـا للرجل ، فجرت عليه ما تتوقعه وما يحتمل ان يكون بوبو نفسه قد توقعه . لكن ماذا كان يستطيع أن يفعل وإلى أين كان يمكنه أن يلتجىء ؟ لقد اشتد عليه الضغط والتهديد . اذ برهن أنه يستطيع الحصول على المـــال إذا تعرض لضغط شديد . قال السيد فان طوش :

« لكن لماذا لم يأت إلي » فأجاب ند: ذهب اليك فأجبته بالرفض . وساد صمت قصير ثم قال بلطف : « انت رجل أبيض ، وبوبو زنجي . » وهنا قال جدي :

« لماذا لم يأت إليّ أنا بدلا من ان يعمد الى سرقة الحصان، واخذه الى المكان الذي كان يجب ان لا يغادره أصلاً ؟ »

« ماذا كنت ستفعل لو ذهب إليك مبهور الأنفاس بعد أن قطع الطريق من ممفيس ، وقـال لك لا توجه إلي أي سؤال ، انما أعطني مئة وبضعة دولارات لأعود إلى ممفيس وأبدأ بتسديد المبلغ ، حالما أتمكن من ذلك ؟ »

« كان يمكنه أن يخبرني عن السبب . أنا أيضاً أنتمي الى عائلة ماك كاسلن . »

« وأنت ايضاً رجل ابيض . »

وهكذا اكتشف بوبو ان الخمسة عشر دولاراً التي تصور انها ستنقذه ، قد دمرته . ولم يعد بوبو يعرف الراحة . ولعل الرجل الابيض بدأ يخوف بوبو . ولعله خشي ان يرتكب بوبو، بدافع خوفه ويأسه وغباوة عرفه ، خطأ ما أو حتى جريمة تنسف كل شيء . هكذا كانت الحال عندما ابتدأ الرجل الأبيض يحاول اقناع بوبو بأن يضرب ضربة واحدة تخلصه من الدين والدائنين ، والهم وكل شيء . فاقترح اولا ان يسرق بوبو السروج ووسائل السباق وكل ما يمكن ان يحمل . وكانت الشبهة ستقع على بوبو فوراً ، بينما يكون الرجل الابيض قد ابتعد اثناء ذلك وصار آمناً . ولكن اذا هرب بوبو بسرعة ، وهو ما كان ينتظر ان يفعله ، فانه كان سيجد امامه الولايات المتحدة كلها ليلجأ اليها ويجد عملاً آخر فيها . ولكن الرجل الأبيض تخلى عن هذه الفكرة ، لانه ما كان سيستطيع التخلص من العربة وحمولتها دفعة واحدة قبل طلوع النهار . وكان تصريف الحمولة قطعة قطعة سيستغرق بضعة ايام .

وهكذا بدأا يفكران بحصان: بأن يكتفا العربة وحمولتها المتنوعة في قطعة واحدة تباع دفعة واحدة دون اي تأخير . هذا اذا تساهل الرجل الابيض ولم يجادل بسبب بضعة دولارات اعني ان الرجل الابيض ، وليس بوبو ، هو الذي اعتقد ان بوبو سيسرق له الحصان . لكن بوبو عرف انه ، ان لم يسرق الحصان ، فقد كان سيشهد نهاية كل شيء : نهاية الحرية والعمل

مع صباح الاثنين التالي (كانت الازمة قد بلغت ذروتها يوم السبت الماضي ، يوم غادرنا جفرسون في السيارة مع بون .
وسبب تفاقم الازمة هو انه كان للسيد فان طوش حصان تسهل سرقته ، خصوصاً انه وضع في مكانه لتلك الغاية .
كان ذلك الحصان لايتيننغ (اعني كوبرمين) الذي كان موضوعاً في أسطبل بانتظار البيع . وقد أخذه بوبو بنفسه الى اسطبل البيع ، لذلك كان يستطيع ان يذهب ويحضره دون اية صعوبة . المشكلة كانت في ان الرجل الابيض عرف هذا - عرف بأنه حصان دُرِّب على السباق لكنه لا يركض مما انزل قدره بالنسبة للسيد فان طوش والسيد « كلاب » مدربه ، حتى انه وضع في اسطبل البيع بانتظار اول شار .
وهكذا كان بوبو يستطيع ان يذهب ويأخذه دون ان يعرف السيد فان طوش الا اذا استفهم . لذلك كان امام بوبو مجال حتى صباح الاثنين التالي ليتدبر الأمر .

هكذا كانت الحال عندما تركنا ند امام منزل الآنسة ريبا عصر الاحد ودار حول المكان الى شارع بيل ودخل اول حانة وجدها في طريقه . وهناك عثر على بوبو يحاول ان يهرب من مصيره بزجاجة وسكي وهنا قال جدي :

« هذه هي الحكاية ، اذن . الآن ابتدأت افهم : زنجي ليلة السبت . بوبو سكران ، وانت تسرع من جفرسون ولسانك يتدلى عطشاً لتصل الى اول حانة يمكنك ان تدخلها » .
وتوقف لحظة ثم قال وهو يكاد يقفز :

« انتظر . هذا خطأ . لم يكن ذلك مساء السبت ، اذ

انكم وصلتم الى ممفيس مساء الاحد » .

وكان ند ما يزال يجلس في مكانه بهدوء ، الكأس الفارغة في يده ، حين اجاب :

« ليل السبت بالنسبة لنا يمتد حتى نهار الأحد . » فأضاف الكولونيل لنسكومب :

« بل حتى صباح الاثنين . انتم تستيقظون صباح الاثنين ، مرضى مصابين بوخمة السكر ، ملطخين بأقذار السجن ، تنطرحون هناك ، الى ان يأتي احد البيض ويدفع عنكم الكفالة ويأخذكم الى حقل القطن مباشرة او الى أي مكان يشغلكم فيه ولا يمنحكم فرصة حتى لتناول الفطور . ثم انكم تعرقون هنـــاك من العمل وتظلون هكذا في اليوم التالي ، واليوم الذي يليه ، حتى يأتي يوم السبت ، حين تتركون المعول أو الجرفة وتسرعون الى السجن صباح الاثنين . لماذا تفعلون ذلك ؟ والله ، لا ادري . » فأجاب ند :

« ولا يمكنك أن تدري . لست من اللون الملعون . لو استطعت أن تتحول الى زنجي ليلة سبت واحدة ، لما تمنيت أن تعود رجلاً أبيض طيلة حياتك . » فقال جدي :

« حسناً ، أكمل . »

وهكذا كشف بوبو لند عن متاعبه : كان الحصان على بُعد أقل من نصف ميل ينتظر من يسرقه ، والرجل الأبيض الذي عرف ذلك اعطى بوبو مهلة لا تزيد عن بضع ساعات..
وقال جدي : « حسناً اخبرنا عن قصة سيارتي . » فقال ند : « سأصل اليها حالاً . » هكذا ذهب ندمع بوبو الى الاسطبل لتفقد

الحصان ، وحالما وقعت عيناي عليه تذكرت ذلك البغل الذي كان عندي .

كان بوبو مثلي ، أصغر من ان يذكر ذلك البغل . لكنه ، مثلي ايضاً ، قد نشأ وهو يسمع تلك الاسطورة . وتابع ند قائلا : « هكذا قررنا ان نذهب الى الرجل الأبيض ونخبره بأن شيئاً ما قد حصل ، وان بوبو لم يستطع ان يخرج الحصان من الاسطبل كما تصوّر بوبو ، لكننا نقدر ان نأتيه بسيارة بدلاً منه . » ثم قـــال لجدي بسرعة : مهلاً ، انتظر ! كنـــا نعرف كما تعرف انت ان السيارة ستبقى آمنة مدة كافية ، نكون فيها قد انتهينـــا . وربما استطعت ، بعد ثلاثين او اربعين سنة ، ان تقف عند زاوية شارع في جفرسون وتشاهد اثنتي عشرة سيارة تمر قبل الغروب لكن ليس الآن . وربما استطعت آنذاك ان تسرق سيارة وتجد من يشتريها دون ان يهتم كثيراً بكيفية حصولك عليهـا ولماذا تريد بيعها . لكنك لا تستطيع ذلك الآن . لذلك كان من المستحيل لرجـــل كهذا ، كما اتصور هيئته (لانني لم أره بعد) ، ان يطوف المدينة محاولاً بيع السيارة بالسر وبسرعة. كان سيبدو كرجل يحـــاول بيع فيل بمثل هذه الطرقة . لذلك لم تجد انت والسيد فان طوش أية صعوبة في معرفـــة مكانه واسترداد السيارة ، أليس كذلك ؟ » فقال جدي :

« اكمل » .

« آنذاك، كان الرجل سيسأل عن حكاية السيارة ، فيترك

بوبو الجواب لي . وربما كان الرجل سيسأل عما افعله بالسيارة الآن فيخبره بوبو بأنني اريد ذلك الحصان لانني اعرف كيف أجعله يركض . وأننا سنشترك في سباق يوم الثلاثاء . وإذا كان الرجل الأبيض يحب أن يربح ثلاثة أو أربعة اضعاف المئة وثلاثين دولاراً ، فيمكنه المجيء معنا والمراهنة على الحصان . اذ ذاك لا يحتاج الى التورط بمحاولة بيع السيارة . لأنني عرفت انه من اولئك البيض الذين حصلوا على خبرة كافية لتجعلهم يميزون بين ما يباع وما يودي الى السجن . وهذا ما كنا سنفعله حتى أتيت وخربت كل شيء . كنا سندع الرجل الأبيض يراقب الشوط الاول دون رهان ، وكان سيقبل بذلك ، فيرى لايتنينغ يخسر الشوط حسب عادته . ثم كنا سنراهنه على الحصان مقابل السيارة ، دون ان نحتاج إلى افهامه بأنه إذا خسر لايتنينغ هذه المرة ايضاً ، فانه سيأخذ الحصان بالاضافة الى السيارة . »

وهنا نظر جدي والكولونيل لنسكومب والسيد فان طوش الى ند. ولن أحاول أن أصف التعبير الذي تضمنته تلك النظرة . لا أقدر. وتابع ند قائلاً : « ثم أتيت وخربت كل شيء . » فقال السيد فان طوش :

« وكل ذلك لانقاذ بوبو . لنفترض أنك فشلت في جعل كوبرمين يركض ، وخسرته أيضاً . ماذا كان سيحل ببوبو ؟»

« جعلته يركض . رأيت ذلك . »

« لكن لنفرض ذلك جدلاً ... »

« كان ذلك سيدّمره .لست أنا من نصحه بمغادرة مزارع القطن في ميسيسيبي والالحاق بمغامرات ممفيس ومقامراتها . »

« لكن السيد بريست قال انه ابن عمك . »

« لكل إنسان أقارب لم يرزقوا عقلاً اكبر من عقل بوبو ا »

فقال الكولونيل لنسكومب فجأة : لنشرب نخباً . ثم نهض وأخرج الخمر ووزعها. وقال السيد فان طوش: « حسناً» يا بريست . أنت استرجعت سيارتك وأنا استرجعت حصاني. ولعلي خوفت ذلك النذل الى درجة تكفي لإبعـــاده عن اسطبلاتي . » ثم قال لند :

« ماذا أفعل ببوبو ؟ » فأجاب ند :

« احتفظ به. الشباب منا والاولاد،لا يقتنعون بسهولة. »

« لماذا كان الزنوج وحدهم هكذا ؟ » فقال الكولونيل لنسكومب :

« ربما كان يعني آل ماك كاسلن . » فقال ند :

« صحيح . آل ماك كاسلن والعبيد منا يتصرفون بطريقة واحدة .أقصد الشبان .وان يكن هذا ماك كاسلينياً زنجياً . ربما كانوا لا يسمعون جيداً . ويجب أن تعلمهم تجاربهم أن الاحتيال لا يجدي . ولعل بوبو تعلم ذلك هذه المرة . أليس هذا أهون عليك أن تبدأ من جديد مع شخص آخر غير مجرّب؟ »

فقال السيد فان طوش : بلى .

وظلوا جميعاً في أمكنتهم صامتين . وعاد السيد فانطوش يقول :

« بلى . والآن إما أن اشتري ند او ابيعك كوبرمين .هل يمكنك ان تجعله يركض ثانية يا ند ؟ »

« نجحت تلك المرة » .

« قلت مرة ثانية . هل تعتقد ، يا بريست ، أنه يقدر يجعله يركض مرة ثانية ؟ » فأجاب جدي :

« نعم »

« الى أي حد تعتقد ذلك ؟»

« هل تخاطبني كصاحب بنك أم ماذا ؟ »

فقال الكولونيل للسكومب : « نعم ولكن بالطريقة الطبيعية العادية التي يلجأ اليها أهالي الشمال في ميسيسيبي وهم يخاطبون أهالي جنوبيها ، بكل ما أعطاهم الله من حقوق والانسان من شرائع » . فقال السيد فان طوش :

« حسناً ، أراهنك بكوبرمين مقابل السر الذي يخفيه ند . فاذا استطاع ند ان يجعل كوبرمين يسبق حصان لنسكومب ، احصل انا على السر وانت تأخذ كوبرمين .واذا خسر كوبرمين لا اريد سرك، وانت تأخذ كوبرمين او تتركه مقابل خمسئة دولار .» فقال جدي :

« أي اذا خسر كوبرمين استطيع ان آخذه مقابل خمسئة دولار . واذا رفضت اخذه ، أدفع لك خمسئة دولار لتحتفظ به لديك » . فأجاب السيد فان طوش :

«صحيح . ولكي أتيح لك فرصة للمزايدة ، أراهنك بدولارين مقابل دولار بأن ند لا يستطيع ان يحمله يركض ثانية » .

« إذن ، اما ان اربحه ، او ان اشتريه بالرغم من كل شيء » . فقال السيد فان طوش :

« نذكر انك هنا بين اصدقاء ؛ فحاول ألّا تتصرف كصاحب بنك ولو لفترة قصيرة ، حاول ! » حينئذ قال جدي :

« اثنان ونصف . » فأجاب السيد فان طوش :

« خمسة . »

« ثلاثة ونصف . »

« خمسة . »

« اربعة وربع . »

« خمسة . »

« اربعة ونصف . »

« اربعة وخمسة وتسعون . » فقال جدي :

« قبلت . » ثم قال السيد فان طوش :

« قبلت . »

وهكذا وقفنا للمرة الرابعة أنا وماك ويلي خلف شريط الانطلاق وارجل الحصانين تتواثب وتتحفز . لم يكلمني ماك ويلي هذه المرة مطلقاً . كان خائفاً ومغتاظاً ، ومحتاراً ومصمماً . وادرك ان شيئاً حدث يوم امس وما كان يجب

ان يحدث ، على الأخص لصبي مثله في التاسعة عشرة ، كان يحاول بكل بساطة ان يفوز في سباقٍ حَسِبَهُ عادياً بسيطاً. لم يختاروا لنا مواقعنا هذه المرة ، بل تركوا لنا امر اختيارها. لكن ند قال لي : « لا بأس هذه المرة . ماك ويلي بحاجة الى الشعور بالاطمئنان. دعه يختر اولاً . » لكن ماك ويلي رفض هذه البادرة ، بدافع الفروسية او الغضب ، لست أدري . لكن صوت الحكم حل المشكلة ووقفنا خلف الشريط .

ولاحظت ان ند لم يعمد الى مداعبة وجه الحصان او منخريه بيده كما فعل المرة الماضية . ولا اقول انه نسي ، لأن ند لا ينسى شيئاً . ولم يعطني تعليمات اللحظة الاخيرة،لكن ماذا كان قد بقي لديه ليقوله ؟ كان جدي والسيد فان طوش والكولونيل لنسكومب قد اتفقوا على ان يكون السباق خاصاً ، او قل سباق ثأر . ولكي يبقى السباق خاصاً في بارشم لا بد من جهود خاصة . ذلك اشبه بإبقاء المطر سرياً وخاصاً بمرعى الكولونيل لنسكومب ـ ما دامت البلدة تتكون من فندق شتوي ، ومخزنين ، ومزاق للمواشي ، ومحطة ، وتقاطع خط حديدي ، وكنائس ومدارس وبيوت مزارعين متباعدة في الريف البعيد . فكان اي خبر ينتشر في بارشم بسرعة ، فكيف نجبر سباق خيل من هذا النوع بين هذين الحصانين بالذات ؟ وهكذا حضر اهل البلدة جميعاً السباق ، بمن فيهم الحارس الليلي الذي يفترض فيه ان ينام في النهار . انما لم يكن الحشد كبيراً كيوم أمس ، الا انه كان

ولا ريب أكبر مما اراده جدي والسيــــد فان طوش . كانت هناك القبعات الملطخة ، والتبغ والقمصان الــتي بلا ياقات ، وملابس العمل ، عندما ارتفعت صيحة : انطلق !

وانطلقنا يتقدمني ماك ويلي بخطوتين ثم اندفع لايتنينغ بسرعة وطواعية حتى صار خده بجوار ركبة ماك ويلي . وبقينا بعد ذلك ننعطف ونجري ، ووضعنـــا المتوازي يختل قليلا ليعود الى الانتظام. كانت المسافة بيننا تنفتح وتنغلق كالحلم ، كالحركة الطبيعية التي ألِفها من يطلق سرباً من الطائرات دفعة واحدة . وعند المنعطف الأول ، ضربت لايتنينغ لأحثه على الاستمرار ، قبيل ان يتمكن من التفتيش عن ند ؛ ولم أتمالك من أن أستعرض وجوه المتفرجين باحثاً عن وجهه بنفسي . ثم بدأ لايتنينغ نفسه يبحث عنه بين الجمهور ، دون أن يهتم بالاتجاه الذي يسير فيه. كان كل همه أن يرى ند ، لكن دون طائل ، إلى ان كانت الدورة الثانية ثم المرحلة الاخيرة . ورحت أدفع لايتنينغ نحو الحاجز الخارجي (حيث لا يستطيع ايكرون أن يحجب عنا الحلبة وشريط النهاية) فيتمكن لايتنينغ من الرؤية . لكنه إذا كان قد رأى ند هذه المرة فلم يشعرني بذلك. كما أنني لم استطع أن أخبره . وصحت : انظر ! انظر هناك ! هناك هو ! لكن ند لم يكن هنـــاك . لم يكن أمامنا غير الحلبة وخيط النهاية واهياً كشعاع من القمر . وفي هذه اللحظة ، ضرب ماك ويلي حصانه بشدة ، فاستجاب لايتنينغ كالسحر ، ولحق به ، محافظاً على مسافة قليلة إلى

الوراء . فلو استطاع ايكرون ان يركض بسرعة ستين ميلاً في الساعة لركض لايقنينغ بنفس السرعة ، محتفظاً بالمسافة ذاتها إلى الوراء . وواصلنا الركض متوازيين نتأرجح قليلاً كما لو كنا مشدودين إلى بعضنا . والتمع الشريط فوق رؤوسنا . وعدنا نتكلم ، أنا وماك ويلي ، ثانية . كان يصرخ لي في فرح جنوني : « ياه ، ياه ، ياه ، ياه » مخففاً سرعته دون توقف ، ومتجهاً إلى الاسطبل فوراً . كان المهللون والمحبون الذين تجمهروا حولنا يوم أمس قد تخلوا عنـا : قيصر لم يعد اليوم قيصراً .

وجاء ند بسرعة وهدوء وأمسك بالمقود ، بشيء من نفاد الصبر وعدم الانتباه . ثم جاء جدي وراءه يقول :

« ما الذي حدث ؟ ما الذي حدث معه ؟ »

« لا شيء . لم اكن احمل له سردينا هذه المرة ، وقد عرف ذلك . ألم اقل لك ان لدى هذا الحصان حساسية ؟» ثم قال لي : « بوبو ينتظر هناك ، خذله هذا الكديش ليوصله الى ممفيس . سنعود اليوم » . فقلت :

« لكن انتظر . انتظر ».

« انس هذا الحصان . لا نريده . الرئيس استرجع سيارته ، وكل ما فقدناه مبلغ اربعمئة وستة وتسعين دولاراً ، والتخلص من هذا الحصان يساوي هذا المبلغ . اذ ماذا نفعل به ؟ لنفترض انهم توقفوا عن صنع تلك الاسماك القذرة ! الافضل ان يأخذه السيد فان طوش ، فلعل كوبرمين يخبره يوماً او

يخبر بوبو عما حصل هنا يوم أمس ».

لم نعد الى جفرسون تلك الليلة ، بل بقينا عند الكولونيل لنسكومب ، حيث جلسنا في المكتب بعد العشاء . كان بون يبدو متعباً مقهوراً ، لكنه كان ذليلاً هادئاً ، ونظيفاً ايضاً : فقد حلق ولبس قميصاً نظيفاً . اعني قميصاً جديداً ربما اشتراه من هاردويك . وكان يجلس حيث كان ند ليلة أمس . قال :

« كلا . لم اكن اقاتله بسبب ذلك . ولم اكن غاضباً من اجل ذلك . انه من شأنها هي . لا يمكنك ان تنهي كل شيء دفعة واحدة . حين تترك ، عليك ان تنظف البقايا : الاوساخ التي تخلفت مهما تكن خطوتك الأخيرة صالحة . لكنني اردت ان احطم عنقه لانه دعا زوجتي عاهرة » . فقال جدي : « تعني انك ستتزوجها ؟ » فقفز بون ، لكن ليس نحو جدي بل نحوي انا قائلاً : « اذا كنت تقدر ان تواجه السكين بيديك العاريتين دفاعاً عنها ، فلماذا ، بحق الشياطين ، لا اقدر ان اتزوجها ؟ ألست جديراً بذلك مثلك ، وان لم اكن في الحادية عشرة ؟ »

كان هذا كل شيء . وحوالي الساعة السادسة بعد ظهر اليوم التالي ، اجتزنا التلة الأخيرة ، ومن هناك اطلت ساعة مبنى البلدية من فوق الاشجار التي تحيط بالساحة . كان ند في المقعد الامامي مع بون فقال : « صه ، صه ، صه ! احس كأنني كنت غائباً مدة سنتين ».

فقال جدي : « عندما تسوي دلفين حسابها معك الليلة ، ستتمنى لو كان ذلك صحيحاً» . فقال ند : « او ربما تمنيت ألا اكون قد عدت مطلقاً . اكن المرأة التي تظل تمسح وتكنس وتطبخ وتغسل طوال اليوم ، هي بحاجة الى بعض الإثارة من حين الى آخر . »

ثم وصلنا . وتوقفت السيارة ، فلم أتحرك . ونزل جدي فتبعته . وقال بون : « المفتاح مع السيد بالوت . » فأجاب جدي : « كلا ليس معه .» ثم اخرج المفتاح من جيبه واعطاه لبون . وعبرنا الشارع نحو البيت . هل تعرف ماذا قلت في نفسي ؟ قلت « لم يطرأ عليه شيء » . لأنه كان يجب ان يتغير - كان يجب ان يتحول بطريقة ما ، ولو قليلاً . لا اعني انه كان يجب ان يتغير من نفسه ، بل مما جئت احمله له - مما اختبرته وعرفته في الايام الاربعة التي غيرتني . اعني ، اذا كانت هذه الأيام الاربعة الحافلة بالكذب والغش والاحتيال واتخاذ القرارات وعدم اتخاذها، والأفعال التي فعلتها والأشياء التي رأيتها وسمعتها والتي ما كان أبي وأمي ليسمحا لي بأن افعلها او اراها او اسمعها او اتعلمها ، والأشياء التي تعلمتها ولم اكن مستعداً لها ، لو ان هذه كلها لا تجد مكاناً تخزن فيه او توضع فيه ، اذا كان هذا كله لم يغير شيئاً ، وظل كل شيء كما كان لم يصبح اصغر او اكبر او اكثر هرماً او احكم او ادعى الى الشفقة ،اذن لضاع شيء ما ، ألقي جانباً ، صرف دون مقابل . وفي هذه الحال ، اما انه كان خطأ وما كان

يجب ان ابدأ به ، او انني انا الذي كنت خاطئاً او ضعيفاً او على الاقل لا استحق ما حدث .

وقال لي جدي : هيا ! لم يقلها بلطف او بخشونة او اي شيء . وقلت في نفسي : « لو ان العمة كالي تخرج الآن ، سواء أكانت تحمل ألكسندر ام لا ، وتبــدأ تصرخ بي ! » لكن لم يحدث شيء . كان كل شيء كما عرفته قبل ان اتمكن من معرفة غيره . كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل في عصر يوم من شهر ايار عندما كان الناس يفكرون بالعشاء . لا بد ان بضع شعرات بيضاء قد نبتت في رأس امي وهي تقبلني وتنظر الي ، ثم ابي الذي كنت دائماً ... اخاف منه . هذه ليست الكلمة المناسبة ، لكنني لا اقــدر ان افكر بغيرها – اذ لو لم اكن اخاف منه ، لكان يجب ان اخجل عنا كلينا . ثم سمعت جدي يقول : موري ! فقــال أبي : « ليس هذه المرة ، يا رئيس ! » ثم قال لي : لننه المسألة ! فأجبت : « نعم يا سيدي » . وتبعته عبر القاعة الى الحمام ، وتوقفت عند الباب ، عندما أخذ عدة الحلاقة ، وتراجعت الى الوراء افسح له كي يخرج ثم تابعنا . كانت امي في اعلى درجات القبو . كنت استطيــع ان ارى دموعها ولا شيء اكثر . كل ما كان عليها ان تفعلة هو ان تقول : قف ، او ارجوك يا موري ، او لوشيوس فقط ، لكنها لم تقل شيئــاً . وتبعت ابي إلى القبو حيث نحفظ الوقود في الشتاء ، وصندوق الجليد في الصيف ، وكانت امي والعمة كالي قد احدثتا فيه رفوفاً لوضع الاغذية

المحفوظة والمربيات . حتى انني رأيت كرسياً هزازاً لأمي والعمة كالي ايام تضعان المربيات هناك . وهكذا وصلنا الى اللحظة التي امضيت اربعة ايام من الارهاق والركض لأصل اليها . كان هذا خطأ ، وكان كلانا يعرف ذلك . اعني كان يستطيع ان يجلدني بعد كل ما قمت به من كذب وغش وتمرد واحتيال . اذن لم يكن ابي بصلح لي . اذا كان يمكن تسوية كل ذلك ، بحلاقة الرأس ، فقد كنا حقيرين كلينا . أرأيت ؟ كانت العقوبة تافهة حتى جاء جدي يطرق الباب . ولم يكن مقفلا . لكن جد والدي كان قد علمه ، وهو بدوره علم والدي ووالدي علمني ، بأن ليس هناك باب يحتاج لان يقفل: الباب المغلق وحده يكفي ، ولا تدخل حتى يدعوك شخص ما للدخول . لكن جدي لم ينتظر هذه المرة ، فقال ابي :

« كلا. هذا ما كنت ستفعله بي قبل عشرين سنة . »

« ربما كنت الآن أكثر فهماً . اذهب واقنع أليسون بالصعود الى الطابق العلوي والكف عن البكاء . »

فخرج والدي وأغلق الباب ثانية . وجلس جدي على الكرسي الهزاز . لم يكن بديناً ، لكن وسطه كان ممتلئاً بما يكفي ليجعل سلسلة الساعة الذهبية تتدلى باناقة . قلت :

« لقد كذبت ! »

تعال إلى هنا . »

« لا أقدر . اقول لك انني كذبت ! »

« أعرف ذلك . »

« إذن افعل شيئاً ما . افعل شيئاًما لمجرد فعله . »

« لا أقدر . »

« أليس هناك ما يمكن عمله ؟ أي شيء ؟ »

« لم أقل ذلك. قلت لا أستطيع. لكنك أنت تستطيع. »

« ماذا ؟ كيف اقدر أن أنسى ؟ أخبرني كيف . »

« لا يمكنك . لا شيء ينسى . لا شيء يضيع . لكل شيء قيمة . »

« اذن ماذا أقدر أن أفعل ؟ »

«عش وأنت تحمله !»

« أعيش معه ؟ الى الابد ؟ طيلة حياتي ؟ دون أن أتخلص منه أبداً ؟ لا أقدر . ألا تفهم أنني لا أقدر ؟ »

« بلى تقدر . وستفعل ذلك . الرجل يستطيع ان يعيش مع أي شيء . يواجه أي شيء . الرجل يتقبل مسؤولية أفعاله ويتحمل ما ينتج عنها ، وإن لم يكن قد اشترك هو نفسه بالتحريض عليها ، بل أذعن لها فقط ولم يقل لا ، مع انه كان يعرف أن عليه ألا ينصاع لها . تعال ! »

كنت قد بدأت ابكي بشدة وأتهمه ، وأنا اقف او اركع بين ركبتيه ، بينا كانت احدى يديه على ظهري والاخرى على مؤخرة رأسي تضغط رأسي على صدره . وشممت رائحته ، رائحة النشاء وكولونيا الحلاقة والتبغ الممضوغ والبنزين الذي استعملته دلفين لتنظيف البقع عن بزته ، مع رائحة وسكي كنت اعتقد انها من جرعة الوسكي التي يتناولها صباحاً عندما

يفتح عينيه . عندما كنت انام عنده كان ند يدخل في الصباح الباكر حاملا صينيةعليها ابريقماء، وزجاجة الوسكي وسكرية وملعقة وكأس . فيجلس جدي في الفراش ويعد الشراب ويشربه . ثم يضع قليلا من السكر في قعر الكأس ويصب الماء فوقه ويحركه ويعطيني الكأس ، الى ان دخلت جدتي علينا فجأه ذات يوم وابطلت تلك المادة . وقال لي اخيراً :

«يكفي . هذا يكفي لإفراغ برميل . اذهبالآن واغسل وجهك . الرجل يبكي ، لكنه دائماً يغسل وجهه . »

كان هذا كل شيء . وفي يوم الاثنين بعد الظهر ، بعد انصرافي من المدرسة (وكان ابي قد رفض اعطائي ورقة ليعذروني في المدرسة على تغيبي ، لهذا وضعت لي المعلمة أشارة تغيب . لكن الآنسة رودوس قالت انها ستسمح لي بالتعويض عما فاتني) ، كان ند يجلس على الدرج الخلفي فقلت له :

« لو اننا راهنا بالنقود التي اعطانا اياها سام على لايكلنينغ في المرة الاخيرة لكنا رتبنا المسألة جيداً . »

« لقد رتبتها جيداً ، وحصلت على خمسة مقابل ثلاثة هذه المرة، والعجوزبوسوم هود حصل علىعشرين دولاراًلكنيسته. »

« لكننا خسرنا . »

« انتم خسرتم . اما انا فقد راهنت على ايكرون . »

« اوه ! » ثم قلت : « بكم راهنت ؟ » فلم يتحرك . اعني ، لم يفعل شيئاً . اعني لم يكن يبدو عليه اي تغير ؛ وتلك الأيام الاربعة بطولها وما كان فيها من الاحتيال ،

والتعب ، ومحاولة التخمين الصائب السريع ،لم تترك فيه أي اثر ، مع انني قد رأيته حين لم يتم له النوم ، ولا كان يملك ثياباً يرتديها . (أرأيت كيف انني ما زلت ادعوها بالأيام الاربعة ؟ لقد غادرنا جفرسون انا وبون بعد ظهر السبت وعدنا اليها بعد ظهر الجمعة . لكنها كانت بالنسبة لي اربعة ايام ، بين ليلة السبت التي بتنا فيها عند الآنسة بالنبو ولحظة رأيت جدي وأنا على ظهر لايتنينغ – لحظة كان ند يحمل العبء وحده ويصد الطوفان ويدعم السد المنهار بكل ما تصل اليه يده – حتى انا – الى ان تكسرت بين يديه. اعني، ان الرجل يتمسك دائماً بكذبته ، سواء أكشف عنها ام لا .) كنت في الحادية عشرة فقط لكنني عرفت ، ولا اعلم كيف . عرفت فقط :لا تسأل أحداً عن مقدار ربحه او خسارته في القمار . لهذا اضفت :

« أعني هل تجمع لدينا ما يكفي لدفع اربعمئة وستة وتسعين دولاراً للرئيس ؟ »

لكنه ظل مكانه ولم يطرأ عليه اي تغير . لماذا اذن نبتت لامي شعرة بيضاء في غيابي ما دام علي ألا اتغير انا ايضاً ؟ فقد فهمت تلك اللحظة ما عناه جدي : مظهرك الخارجي هو ما تعيش به ، تنام به ، وتكون له صلة ضعيفة بما أنت وصلة اضعف بما تفعله . فقال ند:

« تعلمت الكثير عن الناس في تلك الرحلة . ويدهشني انك لم تتعلم شيئاً عن المال . هل تريد ان يهنئني الرئيس ، ام

تريدني ان اهينه ، ام الجهتين معاً ؟ »

« ماذا تعني ؟»

« عندما اعرض عليه ان أفي ما خسره في الرهان ، ألا أكون كأنني اقول له فيوجهه انه لا يملك ذكاء كافياً للرهان على الخيول ؟ وعندما اخبره عن مصدر النقود التي سأدفعها له ، ألا تأتي برهاناً على ذلك ؟ »

« لكنني لم افهم حتى الآن من أين ستأتيك الاهانة » .

فقلت :

« لأنه قد يأخذها » .

واخيراً جاء اليوم الموعود . فقد ارسلت افربي في طلبي، فعبرت المدينة الى ذلك البيت الصغير* الذي كان بون قداشتراه من جدي على ان يسدد ثمنه بدفع خمسين سنتاً كل يوم سبت . كانت عندها ممرضة ، وكان عليها ألا تغادر الفراش . لكنني وجدتها بانتظاري . حتى أنها مشت عبر الغرفة الى المهد ووقفت ويدها على كتفي بينما كنا ننظر اليه . وقالت :

« حسناً ، ما رأيك فيه ؟»

لم يكن لي اي رأي . كان مجرد طفل آخر ، بشع مثل بون،وان كانعليه ان ينتظر عشرينسنةليصبح فيكبره.وقلت:

« ماذا ستسمينه ؟»

« ألا تقدر ان تخمن ؟ »

« ماذا ؟ »

« لوشيوس بريست هوجانبك !»